التصوير المجازي والكنائي

تحرير وتحليل

تأليف

الدكتور صلاح الدين محمد أحمد
جامعة الأزهر ـ كلية اللغة العربية
الزقازيق

الطبعة الأولى
١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م

ملتزم التوزيع
مكتبة سعيد رأفت
جامعة عين شمس

التصوير المجازى والكنـــائى



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ
ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾

سُورَةُ العَلَق ٩٦



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين . نحمده على عظيم نعمائه وجميل بلائه ونستكفيه نوائب الزمان ونوازل الحدثان ونرغب اليه فى التوفيق والعصمة ونبرأ إليه من الحول والقوة ونسأله يقينا يملأ الصدر ويعمر انقلب ويستولى على النفس . ونصلى ونسلم على أشرف اخلق . سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين . صلى الله عليه وعلى آله وصحابته أجمعين .

(وبعد)

فان اللغة كالكائن الحى ترقى وتتطور من حين الى آخر . وقد وجدنا لغتنا التى ارتبطت فى نشأتها بالدلالة الحسية لم تجمد على هذه الدلالة بل سرعان ما انتقلت الى الدلالة المعنوية مع ارتقاء العقل ونزوعه الى عمليات التجريد الذهنى .

والشاعر والأديب قد يجد فى اللغة الحسية والمعنوية طلبته فى التعبير عن أغراضه وقد لا تفى الكلمات أحيانا بمضمرات نفسه وهواجس خياله فينزع الى وسائل البيان من تشبيه ومجاز وكناية كوسائط لابراز ما فى نفسه وما يجول فى خاطره . ومن هنا خاض الشعراء والأدباء هذه الطرق فى اتساع شامل وتمثلوها فى تعابيرهم المختلفة ومن ورائهم وقف العلماء يرصدون هذه الظواهر البيانية منذ عصر تدوين المؤلفات العلمية فى القرن الثانى الهجرى .

وقد عرضت لظاهرتين من هذه الظواهر الأسلوبية وهما المجاز اللغوى والكناية . فقد استحالت بحوثهما غربا منذ القرن الخامس الهجرى . حتى وجدنا هذا التراث العلمى الحافل بكثير من الآراء والاتجاهات التى ان دلت على شىء فانما تدل على تلك القمم العلمية الشامخة التى إعتبرت هذه اللغة جزءا من عقيدتها . تذود عن حياضها

وتنقيهـا من الشـوائب وتدفع اليها بكل همة وطاقة نتقوم منها معوجا أو تزيل عنهـا لبسـا أو تثبت لبنة صالحة فى صرحها الشـامخ •

وفيمـا كتبه عبد القاهر وطبقه الزمخشرى وخطـه السيد الشريف وسـعد الدين التفتازانى والسكاكى وشراح التلخيص خير شـاهد على ذلك واذا كانت بحوث البلاغة بعامة لهـا من الدقة والشفافية والعمـق والخصـوبة فان المجاز والكناية بخاصـة من الأقطاب التى تدور عليهـا البـلاغة • والأعضاء التى تستند اليها الفصاحة على حد قول عبد القاهر ولذلك توفرت عليهمـا • أبسـط قضـاياهما وأتتبع أفكارهما بالعرض والتحليل والمناقشـة • داعما الفكر النظرى بالتطبيق التحليلى فجمعت بين أصـالة العلم وطرافة التـذوق والاحسـاس بالتعبير • متبعـا فى ذلك منهج البلاغيين المتذوقين لأنه — لعمرى — هو المنهج البلاغى السديد الذى يجب أن تعـود إليه البحوث البلاغيـة وأن تتجه اليه أقلامنا نحن الباحثين وبذلك نرد للبلاغة ثوب الجدة والابتكـار التى لبسـته على يد عبد القـاهر والزمخشرى وجرتها منه مدرسـة المنطق والجدل الفلسفى فى القرن السـابع وما تلاه • فنضـع بذلك أقدامنـا على طريق البعث الحقيقى لحضـارة هـذا العلم الـذى لا ترى علمـا هـو أرسـخ أصـلا وأبسـق فرعا وأحلى جنى وأعـذب وردا وأكرم نتـاجا وأنور سراجا من علم البيـان الذى لولاه لم تر لسـانا يحوك الوشى ويصوغ الحلى ويلفظ الدر وينفث السحر ويقرى الشـهد ويريك بدائع من الزهر ويجنيـك الحلو اليانع من الثمر ٠٠٠٠٠٠٠٠(١) •

وقد استعنت بالله وبدأت فى سبيل ذلك خطوة أرجو لهـا التـوفيق والسـداد • وقد زاد من حمـاسى وألهب رغبتى لهـا ما قرأته من تلك الصيحات والزعامات الباطلة التى يرددها بعض الباحثين المحدثين حول كلمـة المجـاز — بأنها فى اللغة العربية موهمة ورديئـة وأنه يكتنفهـا الترك والنسـيان والاغفـال • وأنهـا ممزقة الدلالة • وأن أصـحابها لا يستطيعون ضـمها فى بنـاء موحد وأن من الزعم الخاطئ أن يتصور امكـان تصـنيف المعانى المجـازية أو الفصل بين مجاز المشابهة ومجاز

---

(١) دلائل الاعجاز ٥٣/٥٤ •

الحكم أو الكنـــاية للتداخل المحير بينها والذى لا تنجو منه التحليــلات الشـــكلية فهى لا تخلو كذلك من إبرداءة ... (٢) .

فكان هذا البحث بمثابة الصواعق المرسلة على أمثال هذه الدعاوى واجتثاثها من أصلها والقـــاء الأضـــواء الهـــادية على الأصول التى بين بهـــا العلمـــاء — المجـــاز — وأنواعه والفروق الأصيلة التى وضـــعوها للفرق بين هذه الأنواع حتى لم يعـــد هنـــاك شىء ردىء أو محير الا فى تلك العيـــون المصـــابة بالرمد وقد تنكر العين ضوء الشمس من رمـــد أو كمـــا قال الآخر :

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به المـــاء الزلالا

وصـــدق الله العظيم إذ يقول : « **فأما الزبد فيـــذهب جفـــاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال** » (٣) .

وكان هذا البحث فى أربعة عشر مبحثا وهى :

الأول : النظم والصور المجازية والكنائيـــة . حررت فيـــه معنى النظم وبينت أنه أســـاس التصوير المجـــازى والكنـــائى وأن جعل نظم الحروف بمعزل عن مفهوم النظم خطأ فى ضبط المعـــايير فالنظم يشـــمل الكلمـــة فى التأليف ونظم الحروف فى الكلمة ودعمت هذه الوجهة بنظرات العلمـــاء كابن جنى وتحليلات لبعض الآيات القرآنية .

الثـــانى : اللغة بين الحقيقة والمجاز . عرضت فيه للدلالة الوضعية فى اللغـــة وارتباطها بالمحســـوسات وتطور هـــذه الدلالة بتقدم الزمن والعلم والفكر وتطور الخيـــال وتولد المجاز فى ظلال هذا التطور والمجاز الذى لحق بالحقيقـــة والمجاز المبنى على مجاز . وأن القـــول بوجـــود الحقيقة والمجـــاز فى اللغة وأنهمـــا من وســـائل التعبير هو الرأى المقبول والمعقـــول .

الثـــالث : المجاز فى اتجاهين . بينت أن فائدة الكـــلام تنبـــع من الاســـناد وضـــم الكلمـــات فى تركيب خاص وأن التركيب قد يكـــون

---

(٢) ينظر الصورة الأدبية ٤/٥ د / مصطفى ناصف بتصرف .
(٣) الرعد ١٧ .

حقيقـة وقد يكـون مجازا وأن المجـاز قد يتلقى من جهة العقل فيكون عقليـا وقد يتلقى من جهـة اللغـة فيكون لغـويا ثم عرجت الى بيـان موقع الاستعارة من المجازين ووضحت معنى — النقل — فيها ٠

الرابع المجاز اللغـوى ٠ أشرت الى معناه والى حد الاسـتعارة وتطور تعريفها حتى استقر فى مدرسة المتـأخرين وعرضـت لقضـية التشـبيه البليغ والاستعارة وموقف عبد القاهر من هـذه القضـية من خلال مستويات أربعـة أشـار اليهـا ثم نبهت فى ختام هذا الموضوع الى أمور مهمـة ٠

الخامس : أشرت الى الأسـاس الذى وضعه عبد القـاهر فى بيان التصريحية والمكنيـة ٠ وعرضت لأقسـام التصريحيـة فتحـدثت عن الأصلية وعمـا يدخل فى اطارها كاسـم الجنس والأعـلام المشـتهرة بوصـف والمصـدر المؤول مع بيـان الفروق البلاغية بين هذه الأسماء ثم عرضت فى اتسـاع شـامل لبيـان جمـال التصـوير بالاسـتعارة التصريحية الأصلية من خلال عرض نمـاذج تحليلية لصـور من القرآن الكريم والسـنة المطهرة والشـعر ٠ بمنهج فريد ودقيق ٠ قام على تخير الأمثلة التى اتحد فيهـا اللفظ المستعار واختلفت دلالتـه المجـازية من تركيب لآخر أو اختلف اللفظ المستعار واتحدت دلالته المجازية مع بيان فلسـفة الاستعارة فى التركيب ٠

السـادس : الاستعارة التبعيـة ٠ أشرت الى معناها والى تعليـل البلاغيين لكونها تبعيـة والأصل المتبوع فيها وارتضيت ما أشار اليـه عبد القـاهر من كون المصدر هو الأصل المقصود من الفعل ٠ ثم عرضت فى اتسـاع شامل لفنونها وألوانها من خلال أقسـام ثلاثة هى :

١ — الفعـل ٠

٢ — الأسـماء المشتقة ٠

٣ — الحروف ٠

مقتفيـا منهج عبد القـاهر فى العرض والتحليل والمـوازنة كمـا عرضت لصـور تحليلية للفعـل الواحـد من خـلال تراكيب مختلفـة كالفعـل — نسـلخ ٠

السابع : الاستعارة المكنية • بينت الفروق بينها وبين التصريحية كما ذكرها عبد القاهر وأشرت الى آراء العلماء فى تحديدها ثم تطرقت الى جمال التصوير بها من خلال بسط الأمثلة وتحليلها فى المقامات المختلفة • وبيان أقسامها •

الثامن : الأغراض هى الحاكمة بنوع المجاز وكانت هذه نتيجة لتحليل طائفة لا بأس بها من الأمثلة • وضحت من خلالها أن الغرض والسياق هما المثر الحقيقى لموطن المجاز ونوعه ودلالته وكان هذا أساسا لهدم مقولة بعض البلاغيين بامكان نقل المجاز من الفعل أو من النسبة الى الفاعل •

التاسع : الاستعارة بين الترشيح والتجريد • أشرت الى أقسام الاستعارة من خلال هذه الأوصاف وأن أبلغها مرتبط بالمقام وذكرت أنواع الترشيح وقد أوصلتها الى ستة أنواع •

العاشر : الاستعارة التمثيلية • بينت معناها والأساس الذى تبنى عليه • هل هو التشبيه التمثيلى أم التشبيه المركب ؟ وأثر هذا الاختلاف على بعض التراكيب مع تحليل صورها وبيان أقسامها وتطرقت الى بيان القرينة وأنواعها فى الاستعارات المختلفة •

الحادى عشر : الاستعارة بين الحسن والقبح • أشرت الى الشروط النصية التى وضعها البلاغيون لحسن الاستعارة والى الشروط التذوقية التى أشاروا اليها ضمنا فى تحليلاتهم لصور الشعراء المستحسنة والمعيبة •

الثانى عشر : تقسيمات المتأخرين فى الميزان • ناقشت هذه التقسيمات عند المتأخرين مناقشة موضوعية قامت على أصول نقلية وعقلية وتذوقية • وبينت الخطأ فى محاولة تحديد الجامع ومن ثم الخطأ فى تقسيم الاستعارة المبنية على هذا التحديد ورددت كثيرا من هذه التقسيمات الى موطنها من فكر عبد القاهر •

الثالث عشر : المجاز المرسل • أشرت الى الفرق بينه وبين مجاز المشابهة واختلاف البلاغيين حول حصر علاقاته ثم عرضت لبعض

علاقاته بعرض الأمثلة وتحليلها وبيـان الأوجه المختلفـة التى يمكن أن تخرج عليهـا بعض الأمثلة • كمـا عرضت لصور من أقسـامه •

الرابع عشر : الكنـاية • قدمت لمحة تاريخية عن بحوثها وظهـور مصطلحها وأشرت الى اختلاف البلاغيين حول كونها حقيقة أو مجـازا أو واسـطة • وهل تحتاج الى قرينـة مانعة أم لا ؟ كمـا أشرت الى الفرق الجوهرى بينهـا وبين المجاز من خـلال عرض بعض النمـاذج وأشرت الى أقسـامها الثـلاثة اشـارة مجملة ثم عرضت نمـاذج لتراكيبـ كنائية متعـددة من القرآن الكريم والسـنة المطهرة والشعر مع تحليلها وبيـان الظواهر الكنائية المختلفة •

فهذا هو عملى الذى رصـدت له همتى ووقتى ومالى فان أصبت به خيرا فذلك فضل الله يؤتيه من يشـاء وان كانت الأخرى فحسـبى أننى اجتهدت وأفدت ولن يحرم المخطىء من الأجر وما توفيقى الا بالله عليـه توكلت واليه أنيب • ربنـا لا تزغ قلوبنـا بعد اذ هديتنا وهب لنـا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب والله أسأل أن يجعله خالصا لوجهه وأن ينفع به • انه أكرم مسؤل وخير مأمول •

١٥ من شعبان ١٤٠٨ هـ

كفر جبارة • فاقوس • شرقية فى :

٢ من أبريل ١٩٨٨ م

دكتـور

صلاح الدين محمد غراب

النظم وصـــور المجاز والكنـــاية

من المعلوم أن بنـــاء الجملة واتساق أجزائها من الدقائق الأسلوبية والفنـــون البلاغية التى يحتـــاج الى معرفتها المتكلم للابانة عن معنـــاه والافصـــاح عن مشاعره واحساساته • وتخير الدلالات المختلفة من حيث الوضوح والخفـــاء الفنى تحتاج الى دربة وممارسة ومعرفة بالأصـــول التى وضـــعها العلمـــاء فى هذا الباب • وتعتبر فكرة النظم من أهم هذه الأصـــول •

ومن الواضـــح أن ألفـــاظ اللغـــة تعتبر المادة الأولى التى يتعامل معهـــا المتكلم والأديب وينقل من خلالهـــا هواجس نفسه وما يختلج فى صدره وما يجـــول فى ضميره ولكنـــه لا يستطيع ذلك من خلال القـــوالب اللغوية المفردة الا اذا وضـــع هذه القوالب فى تأليف ونظمها فى ســـلك خاص من التصوير يناسب مقتضى الحال والغرض المقصود من الكلام • وبذلك يعطى التركيب الثمرة المرجـــوة من بنـــائه • وتفـــوح الدلالات الجديدة بعطائها الفريد من هذا الوضع السياقى • بمراعاة قوانين النظم الذى ضبطهعبد القاهر بقـــوله : (واعلم أن ليس النظـــم الا أن تضـــع كلامك الوضع الذى يقتضيه على النحو وتعمل على قوانينـــه وأصـــوله وتعرف مناهجه التى نهجت فلا تزيغ عنها وتحفـــظ الرسوم التى رسمت لك فلا تخل بشىء منهـــا وذلك أنـــا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم غـــير أن ينظر فى وجوه كل باب وفروقه فينظر فى الخبر الى الوجوه التى تراها فى قولك • زيد ينطلق وينطلق زيد ومنطلق زيد •••••)(١) •

وقد أخذ عبد القـــاهر فى بسطها وتحليلها تطبيقا على الوحـــدات المكونة للكلام من الحروف والأســـماء والأفعال وبين الفروق التى تعرض

---

(١) دلائل الاعجاز ص ١١٧ •

تبعـــا لتغير معرض الكلام • كالشرط والجزاء وجملة الحـــال واقترانها بالواو والضـــمير وفى الحروف التى تشترك فى معنى ثم ينفرد كل حرف بخصـــوصية معينـــة مثـــل — ان واذا وما ولا وكذلك حـــروف العطف كالواو والفاء وثم وحق الجملة من حيث وصلها وفصلها والكلمة من حيث التعريف والتنكير والتقديم والتـــأخير والـــذكر والحذف وغـــير ذلك من الخصوصيات التى يتطلبها نظم الكلام حسب الأغراض التى تؤم •

واذا كان النظم يقوم على توخى معانى النحو وأحكامه فليس المراد الخضـــوع للصـــحة الاعرابية التى تتطلبهـــا القـــاعدة النحـــوية فقط وانمـــا يعنى أيضـــا أن التركيب فى أســـاسه بنـــاء منظـــم يجمـــع بين الصحة الاعرابية والاحســـاسات النفســـية • فالألفـــاظ التى توجد فى النفس أولا هى التى ينبغى أن تكـــون كذلك فى النطق • فاذا وجب لمعنى أن يكـــون أولا فى النفس وجب للفظ الدال عليـــه أن يكـــون مثله أولا فى النطق (٢) •

ومن هنـــا تبرز مقـــدرة الأديب فى استخدام اللفظـــة الـــدالة فى سياقها والتى هى أصح بالمعنى وأكشف عنه وأحـــرى بأن تكســـبه نبـــلا وتظهر فيه مزية •

فاذا كان التصوير بعامة يحتاج الى هذه الدقة فى استخدام الكلمات فان المجاز والكنـــاية على وجه خاص يحتاجان الى مراعاة هذه الأصول لتظهر بلاغة الكلام وروعة التصوير •

وقد أبان عبد القـــاهر عن ذلك من الوجهـــة التحليليـــة لكثـــير من النصـــوص الشعرية والآيات القرآنية • وأشير هنا الى شىء من هـــذا المنهج التحليلى • لأنه الطريقة التى نعتمدها فى تحليل الصور البلاغيـــة

قال الامام « وان أردت مثالا فخذ بيت بشار » •

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه وأنظر هل يتصور أن يكون بشـــار قد أخطر معانى هذه الكلم بباله أفرادا عارية من معانى النحو التى تراها فيها وأن يكون قد وقع — كأن — فى نفسه من غير

---

(٢) المصـــدر السابق ٩٥ •

أن يكــون قد أراد أن يضـــيف فوق الى الرؤوس وفى الأسياف من دون أن يكون أراد عطفهـــا بالواو على — مثار — وفى الواو من دون أن يكون أراد العطف بها وأن يكون كذلك فكر فى — الليل — من دون أن يكون أراد أن يجعله خبرا لـ — كأن — وفى تهاوى كواكبــه — من دون أن يكــون أراد أن يجعل تهاوى فعـــلا للكواكب ثم يجعل الجملة صـــفة لليل ليتم الذى أراد من التشـــبيه • أم لم تخطر هذه الأشـــياء ببـــاله الا مرادا فيهـــا هذه الأحكام والمعانى التى تراها فيها (٣) » •

فنراه يشرح نظم هذه الصـــورة وفق معانى النحو • تلك المعـــانى التى قصـــد اليهـــا الشـــاعر قصدا حيث كان وراء كل كلمة احســـاس ثائر ظهر فى تأليف هذه اللبنـــات على هذا الوضع المخصوص الذى أدى الى نمـــو الصورة وتكـــاملها وانصـــهار لبنـــاتها فى قالب واحـــد حتى أصبح البيت بأسره كأنه كلمة واحـــدة • كمـــا لفت الى عنصر الحركة فى معرض الموازنة بينـــه وبين غيره ممـــا اتفق معه فى الغرض العام • فقد امتـــاز بيت بشـــار بالتفصـــيل الدقيـــق لحـــركة السيـــوف • وهى مصوبة • صاعدة • ويختلط بعضها ببعض وتتـــلاقى فى الضرب فتنثنى وتســـتقيم • ودل على ذلك بالفعـــل — تهاوى — وبذلك أحكم الابانة عن مكونات الهيئـــة • ألوانا وأجساما وحركات •

وكذلك فى قول إبن المعتز :

سالت عليه شعاب الحى حين دعـــا
أنصـــاره بوجـــــوه كالدنانـــــير

فليس الحسن فى ذات الاستعارة أى استعارة السيل للسير وانمـــا لدقة النظم الذى شـــفعت به الاستعارة من التقديم والتأخـــير وايثـــار كون انجار — عليه — دون اليه • لدلالته على الكثرة والازدحام والتتابع نحوه من كل مكان حتى يغص بهم الـــوادى ، وذلك يشـــير الى أنه مطاع وطاعتهم له عن أريحية لا عن قسر واكراه • يفصـــح بذلك التشـــبيه فى عجز البيت الذى يدل على أن وجوه القوم يعلوها الاستبشـــار والنضرة والاشراق بمجرد سماع دعـــوته •

(٣) المصدر الســـابق ٣٧٥ •

قال « فانك ترى هذه الاستعارة على لطفها وغرابتها انما تم لها الحسن وانتهى الى حيث انتهى بما توخى فى وضع الكلام من التقديم والتأخير وتجدها قد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك وموازرته لها وان شككت فاعمد الى الجارين والظرف • فأزل كلا منها عن مكانه الذى وضعه الشاعر فيه فقل — سالت شعاب الحى بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره — ثم أنظر كيف يكون الحال وكيف يذهب الحسن والحلاوة وكيف تعدم أريحيتك التى كانت وكيف تذهب النشوة التى كنت تجدها ؟ (٤) •

وكذلك فى قوله :

وانى على اشفاق عينى من العدى
لتجمح منى نظرة ثم أطرق

فالشاعر جعل النظرة تجمح جموح الفرس الشارد على سبيل الاستعارة المكنية وليس فى ذلك هو سبب الحسن فحسب وانما أيضا لما توخاه فى نظم البيت من الدقائق الأسلوبية كالتأكيد فى أوله — وانى وفى وسطه باللام — لتجمح — لدلالته على امتلاء نفسه وقوة احساساته بهذا المعنى الذى يبوح به وأنه معنى ثابت لا يتطرق اليه شك على الرغم من المحاذير التى يخشاها من الأعداء ثم يؤكد صدور النظر منه بقوله — منى — وينكر فاعل الجموح — نظرة — للاشارة الى أنها نظرة ملتاعة شرود • غريبة • يجتهد فى كبحها فترة • لا يستطيع بايزائها الا الاطراق • كما يفعل المغلوب على أمره •

وعلى هذا النحو مضى يحلل أبيات كثير :

« ولما قضينا من منى كل حاجة »

تلك الأبيات التى لم تعجب ابن قتيبة ولكنه أبان كيف كان الشاعر بصيرا بصنعته بارعا فى نظمه حيث عبر فى الشطر الأول عن قضاء جميع المناسك الفرضية والنفلية بطريق الايجاز وهو طريق العموم ثم وصل بذلك الشطر الثانى الذى أبان به عن آخر فعل المناسك وهو الطواف ودليل الأخذ فى السير الذى هو مقصوده من الشعر ثم كان البيت

---

(٤) المصدر السابق ١٣١ •

الثانى الذى يمثـل آلة السـير • ولم يكن له بعد ذلك الا ذكر ما تطيب به نفوسهم ويقـوى به نشـاطهم فقـال — أخذنا بأطراف الأحاديث بيننـا — فدلل على تصرفهم فى القول وشجون الحديث كما هى العـادة فى الأنس بالأحباب والاغتبـاط لقضـاء حق الله فى العبادات • كل ذلك قدمه عبد القـاهر بين يدى الاستعارة فى قوله — وسـالت بأعناق المطى الأباطح — ولم يجعلها هى محط الاعجاب بل جعلها متممة لتلك البسـط القشـيبة التى بسطها الشـاعر وهيأ بهـا الأسلوب للاسـتعارة فقال « ثم زان ذلك كله باستعارة لطيفـة طبق فيها مفصـل التشـبيه وأفاد كثيرا من الفوائد بلطف الوحى والتنبيه فصرح أولا بما أومأ اليه فى الأخذ بأطراف الأحاديث من أنهم تنـازعوا أحاديثهم على ظهـور الرواحل وفى حالة التوجه الى المنـازل وأخبر بعد بسرعة السير ووطاءة الظهر اذ جعل سلاسة سـيرها بهم كالمـاء تسـيل به الأباطيـح وكان فى ذلك ما يؤكد ما قبله لأن الظهـور اذا كانت وطيئـة وكان سيرها السير السهل السريع زاد ذلك فى نشـاط الركبان ومع ازدياد النشاط يزداد الحـديث طيبا ثم قال بأعنـاق المطى ولم يقل بالمطى لأن السرعة والبطء يظهران غالبـا فى أعناقها ويبين أمرها من هواديها وصـدورها وسـائر أجزائها تستنـد اليها فى الحركة وتتبعها فى الثقل والخفة » (٥) •

وبمثل هذه النظرات الثاقبـة تنـاول أسلوب الكنـاية • التى تدل على معنى أول وهو المفهـوم من ظاهر اللفظ وعلى معنى ثان وهـو يفهم بوساطة المعنى الأول وطالب بأن تكـون دلالة المعنى الأول على الثـانى دلالة سـافرة لا غموض فيها ولا ايهام • وأى خلل يصيب هذه السفارة فانه يقعـد الصـورة عن بلوغ مرتبة البلاغة ولذلك عاب قول العبـاس ابن الأحنف :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقـربوا
وتسكب عينـاى الدموع لتجمـدا

لأنه كنى أولا بسكب الدموع على ما يوجبه الفـراق من الحزن والكمد فأصاب ولكنه تعثر فى صـياغة الكناية الثانية فقـد أراد أن يكنى

(٥) أسرار البلاغة ١/١١٥ •

على ما يوجبه دوام التلاقى من السرور بقوله — لتجمدا — وذلك نخطئه فى معرفة دلالة الجمود فظنه خلو العين من البكاء وانتفاء الدموع عنها ولكن الجمود أن لا تبكى العين مع أن الحال حال بكاء وهذا المعنى يدل على شدة الحزن وبخل العين بالدمع وليس على السرور كما توهم الشاعر وبذلك لم تفصح الدلالة الأولى على الثانية ولم تسفر عن مقصوده فوقع فى شراك التعقيد ٠

وذلك يدل دلالة قاطعة على أن استخدام الكلمات فى نظم الصور وبخاصة الصور المجازية والكنائية يحتاج الى بصر سديد بدلالة الكلمة وأدائها للمعنى المراد بوضوح حتى لا تكون غريبة فى سياقها ٠ نابية فى تركيبها ٠

وعبد القاهر بهذا الاتجاه يركز على الكلمة وقد انخرطت فى سلك التأليف فيقول : (وهل تجد أحدا يقول هذه اللفظة فصيحة الا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملائمة معناها لمعانى جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها وهل قالوا لفظة متمكنة ومقبولة وفى خلافة قلقة نابية ومستكرهة الا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما وبالقلق والبنو عن سوء التلاؤم وأن الأولى لم تلق بالثانية فى معناها وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقا للتالية فى مؤداها) (٦) ٠

وأما بالنسبة لنظم الحروف فلم تنل عنده من الدقة والاحكام ما نالته الكلمة لأنه يرى (أن نظم الحروف هو تواليها فى النطق فقط وليس نظمها ٠ بمقتضى عن معنى ولا الناظم لها بمقتف فى ذلك رسما من العقل اقتضى أن يتحرى فى نظمه لها ما تحراه ٠ فلو أن واضع اللغة كان قد قال — ربض — مكان ضرب لما كان فى ذلك ما يؤدى الى فساد ٠

وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك لأنك تقتفى فى نظمها آثار المعانى وترتبها على حسب ترتيب المعانى فى النفس فهو اذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض وليس هو النظم الذى معناه ضم الشىء الى الشىء كيف جاء واتفق) (٧) ٠

---

(٦) دلائل الاعجاز ٨٨ ٠
(٧) المرجع السابق ٩٣ ٠

ولكنى أرى أن نظم الحروف لا يقل جمالا ودقة عن نظم الكلم وأن الجوانب المعنوية التى يراها عبد القاهر غير مرعيـــة فى نظمهـــا هى جوانب حية ينظمهـــا العقل وتزجيها النفس اذا روعيت الدقة الفنيـــة فى تأليف الحروف على وفق المعانى قوة وضعفا وذلك أن الحـــروف لها مخارجها وهذه المخـــارج تتفاوت فى صـــفاتها من حيث الهمس والرخاوة والشـــدة والجهر وما الى ذلك • والمتكلم البليغ هـــو الذى يراعى هـــذه الصفات فى التعبير عن المعانى المقصـــودة وقد أشار ابن جنى الى هـــذه القيمة الصوتية للحـــروف وأثرها فى اثراء المعـــانى وبلاغة التعبـــير فى باب — تصاقب الألفـــاظ لتصـــاقب المعانى فالأز — مثلا فى قوله تعالى : « **ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا** »— أقوى من — الهز لأن الهمزة أقوى من الهاء فخص المعنى القوى بالحرف القوى وخص المعنـــى الضـــعيف بالحـــرف الضـــعيف كمـــا قـــوله تعـــالى : « **وهزى اليك بجذع النخلة** » •

يقول ابن جنى : (ولكنهم خصوا هذا المعنى بالهمزة لأنها أقوى من الهاء وهذا المعنى أعظم فى النفـــوس من الهز لأنك قد تهـــز ما لا بال له كجذع وساق الشجرة ونحو ذلك) (٨) •

وكذلك الألف والســـين والتـــاء الدالة على الطلب فى استفعل مثلا يقول : (فهذا من اللفظ وفق المعنى الموجود هناك وذلك أن الطلب للفعل والتماسه والســـعى فيه والتأنى لوقوعه تقدمه ثم وقعت الاجابة اليه • فتبـــع الفعل الســـؤال فيه والتســـبب لوقـــوعه فكمـــا تبعت أفعـــال الاجابة أفعـــال الطلب كذلك تبعت حروف الأصل الحروف الزائدة التى وضـــعت للالتمـــاس والمسألة) (٩) •

وكأن نظم الحروف فى مثل هذه الصـــيغة يرســـم صـــورة للطالب والمطلوب بداية بالطلب ونهـــاية بالاجابة • فهذه الحركة التى يتبـــع فيها المتبوع تابعة كانت صدى لنظم الحروف • وعندما تصدر الصـــيغة دالة على فعل الانســـان نفســـه فانه يلاحظ فيهـــا أيضـــا معنى الاجتهـــاد

---

(٨) الخصـــائص ٢/١٤٦ •
(٩) المرجع الســـابق ٢/١٥٤ •

والحركة الدائبة التى تدل على نفس قوية مدفوعة لتحقق مطلوبها كما فى قوله تعالى : ((**استوقد نارا — واستغشوا ثيابهم**)) • وتضعيف الحروف يدل على مضـاعفة المعانى • فاذا كانت الألفـاظ أدلة على المعـانى فى النفس • فان قوة هذه المعـانى النفسية تكشـف عنها الحـروف وذلك بتضعيفها كمـا فى — غلق — وقطع •

(فأما مقابلة الألفـاظ بما يشاكل أصواتها من الأحـداث فبـاب عظيم واسـع ونهج متلئب عنـد عارفيه مأمـوم وذلك أنهـم كثـيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها فيعدلونها بها ويحتذونها عليها وذلك أكثر مما نقدره وأضعاف ما نستشعره) (١٠)•

ومن ذلك قولهم • نضح ونضخ للماء ونحوه • جعلوا الحاء لرقتها للماء الضعيف والخاء لغلظها لمـا هو أقوى منه كما قال تعالى : ((**فيهمـا عينـان نضاختان**)) •

وأوضـح ما تكون بلاغة نظم الحروف وقيمتها الصوتية فى القرآن الكريم اذ نجد أن الحروف عبـارة عن ريشات مصورة للمعـانى وبذلك وبذلك ترسم الكلمـة المعنى حركة وصوتا ليتسـق مع الغرض العـام فى السـياق ففى قوله تعالى : ((**يوم يدعون الى نار جهنم دعا**)) نجد أن كلمة — الدع — ترسم بنظم حرف الدال مع العين الصوت الذى يخرج من الانسـان عندما يدفع بشدة فى ظهره وذلك يوحى بأنه دفع شـديد يحصل به الألم الذى لا يجد المتألم حياله الا أن يفتـح فاه ليخرج هـذا الصوت الذى هو مظهر الشـدة والألم معـا ولو عبر عنه بالدفع مثـلا لأفاد الشـدة فقط وربمـا فهم أنها شـدة محتملة ولكن مجىء النظـم القرآنى على هذه الحروف خاصـة ليبرز ألمهم وعويلهم وأنه ألم فاضح لأصحابه • فهم لا يستطيعون كتمانه •

وبعد صيرورتهم فى النـار • جاء التعبير عن أصواتهم بلفظ أطول وحروف أكثر كمـا فى قوله : ((**وهم يصطرخون فيها**)) فنجد هنا قوة فى الحروف وتثاقل فى النطق مع طول الكلمة لأنها تعبر عن أصواتهم الغليظة

---

(١٠) المرجع السـابق ٢/١٥٨ •

المتجاوبة من كل مكان بعـد أن إسـتقروا فى نزلهم • فلمـا طال مكثهم وطال عويلهم طال نظم حروف الكلمة المعبرة عن ذلك •

كمـا جاءت كلمة ـ فكبكبوا فيها هم والغاوون ـ معبرة بحروفها عن صوت القائهم فى جهنم أصـدق تعبير • فحرف الكـاف مـع البـاء وتكريرهما يشيران الى الصوت الصـادر من القائهم على غـير نظـام كمـا تلقى الأشـياء المهملة بغـير عنـاية وفى ذلك إهـدار لكرامتهـم وامتهـان لآدميتهم •

وقوله تعـالى : ((**أنلزمكموها وأنتم لها كارهون**)) نجـد أن طول الكلمـة مع كثرة حروفها وترابط أجزائها مقصـود للمعنى المراد لأنهـا تعبر عن الالزام بالشرع والعمل بالتكاليف ما حيى الانسان • وهذا فيـه من المشـقة والثقل على النفس ما فيه وبخاصـة للكارهين • ثم ان هذه المشـقة مستمرة مع رحلة الانسـان ومرتبطة به طوال حياته •

فكل هذا كان صـدى لنظم الحروف فى الكلمة وأنه نظم اقتضـاه المعنى المقصـود من التركيب وأن دقة نظم هذه الكلمـات وما فيها من جمـال انمـا كان منبعه تكوينهـا من هذه الحروف المقصودة وما فيها من قيم صـوتية متميزة • ولذلك كان قول عبد القاهر (لا نعلم لتعـادل الحروف معنى سوى أن تسلم من نحو ما تجده فى بيت أبى تمام كريم متى أمدحه أمدحه والورى معى •••••) (١١) قولا يحتاج الى تحرير وضـبط •

وبذلك يتكامل موضوع النظم من ناحيتى تعديل الحروف فى الكلمة وتعديل معانى الكلمـات فى التأليف ليصبح ذا أثر قوى فى دقة التصوير وجماله وبخاصـة فى المجاز والكناية • وسنكشف عن كثير من خصائصه ودقائقه فى عرض الأمثلة وتحليلها وموازنتها فى أبوابها ان شاء الله تعالى

---

(١١) دلائل الاعجاز ١٠٠ وما بعدها •



اللغة بين الحقيقة والمجاز

من الثابت أن اللغة قد ارتبطت فى طورها الأول بالدلالات الوضعية والمعانى المحددة الثابتة ولكنها كالكائن الحى • لا يثبت على حال ولا يستقر فى مكان • فسرعان ما شملتها سنة التطور تلبية لحاجة الانسان •

وان المتتبع لتطور دلالة الكلمات يدرك أن الكلمة لم تستقر على المعنى الذى ارتبطت به أولا بل انتقلت الى مجال آخر تتولد منها دلالات جديدة ولهذه الانتقالات أسباب لغوية وتاريخية واجتماعية ونفسية والتطور الدلالى الذى يعنى تغيير معانى الكلمات ظاهرة شائعة فى جميع اللغات •

(ولقد أورد المحدثون أمثلة كثيرة لتطور الدلالة فى مختلف اللغات ولاحظوا أن هذا التطور غالبا ما يكون فى الانتقال من المحسوسات الى المعنويات) (١) •

ومع اعتراف القدماء بهذا التطور فقد قصروه على حقبة زمانية عرفت بعصور الاحتجاج ورفضوا الاستعمال الجديد لأنه لم يؤثر عن العرب الذين يحتج بهم وسموه مولدا ولكن هذا الموقف لم يؤثر على الحركة الدائبة لتطور الألفاظ لأنه مواكبة طبيعية لنمو اللغة واتساعها • من دائرة المحسوسات إلى المعقولات • فالانسان الأول قد وجد طلبته فى لغته الحسية التى كانت وسيلته الأولى للادراك فقد كان (يعانق الأشياء التى يحسها فقط • ولا يتسع ذهنه الى شىء غير ما يراه ويحسه حتى الخرافة كان لا يستوعبها ادراكه ثم بعد ذلك بدأ ينساب شعاع المعرفة من وراء هذه المحسوسات ويشق طريقه فى اعياء وتباطؤ شديد الى عقل الانسان وبعد زمن متطاول بدأ

---

(١) الترادف فى اللغة ١٥ •

الانسان يجرد المعـــانى ويستخلصها من الأشياء وبدأ الادراك الذهنى وسيلة ثانية من وســائل المعــرفة وبدأت اللغــة المجــردة فى أثر ذلك وانتزعت الكلمــات من الصور والأجسام لتتمحض للــدلالة الذهنيـــة وحين نتأمل أكثر كلمات اللغة وتراجع أصولها واستعمالاتها نجد الدلالة الحسية كامنة هنــاك) (١) .

فمع التقــدم الزمنى والعلمى والفكــرى والأدبى اتســع أفــق الانســـان وخياله وعمق وجدانه بالأشــياء وزادت معــرفته بعــلاقات التشابك بين الأشــياء فأراد أن يعبر تعبيرا مبينــا عن مضمرات نفســه وهواجســـه وتطلعـــاته الروحيــة والوجدانيــة فلم تســعفه تلك التعبيرات الحسية المحدودة فهى تغل خيــاله وتحطم آماله . فاصــطنع تلك التصــويرات الكاشــفة التى تدنى له ما التبس فى غــوامض النفس وتطلق العنــان ليتواثب فيهــا الخيال . وهكذا تولدت صور التشــبيه والمجاز والكنــاية .

وبذلك أصبحت الكلمــات لهــا مســارب جــديدة . فالشـــمس والقمــر والنجــوم وغــيرها لم تعــد مقصــورة على تلك الــدلالات الوضــعية كأجرام ســماوية وانمــا أصبح لهــا وضع آخر فى تصوير ما يعترى الانســـان من الأنس والبهجة والاشراق وعمــومية النفــع . وكذلك الحال فى الأفعــال كقطع — نزع — قــذف — فقــد تحركت من المجال الوضعى الى مجال آخر والأمر كذلك فى الحروف مثل — على — فى — اللام . وسيتضح ذلك فى الحديث عن مجازها .

وفى مجال هذه الانتقالات نجــد أن هناك الكلمات التى لها أصالة المنبت وقــوة النجار تحتفظ بهذه الأصالة ولا تذوب مع هذه الافراغات الجــديدة وتوســـم فى هذا الوضع الجديد بأنهــا مجاز وفى الاستعمال الأول حقيقة .

وهنـــاك الكلمـــات التى تنتقل من الأصل الذى ولدت فيه الى مكان آخر على سبيل التجوز ولكن بكثرة الاستعمال تصير بمنزلة الحقيقة كما

---

(٢) التصوير البيانى ١٣٦ .

فى كلمة — المخاض — فهى موضوعة فى الأصل لتحريك سقاء اللبن وهزه ليجتمع زبده وسمنه ثم استعملت فى مخاض المرأة اذا تحرك الولد فى بطنها للخروج وصار حقيقة فى ذلك •

وكلمة — الاستطراد — أصلها فى الصائد الذى يعدو وراء صيده فيعن له صيد آخر فيترك الأول الى الثانى ثم استعملت فى الانتقال من كلام الى آخر على سبيل الحقيقة •

وكلمة — المناقشة — أصلها فى انتزاع الشوك من الجسد ثم استعملت فى مجاذبات الحديث وانتزاع الكلمات تعبيرا عن الآراء •

وهناك الكلمات التى لا تثبت فى هذا الوضع الجديد بل تنتقل الى وضع آخر تكون فيه مجازا ومن هنا يتولد نوع من المجاز هو المجاز المبنى على مجاز آخر كما فى قوله تعالى : **« ولكن لا تواعدوهن سرا »** فان الوطء يتجوز عنه بالسر لأنه لا يقع غالبا الا فى السر فلما لازم السر فى الغالب سمى سرا ويتجوز بالسر عن العقد لأنه سبب فيه فالمصحح للأول الملازمة والمصحح للثانى المسببية • وعرفه العز بن عبد السلام بقوله — هو أن يجعل المجاز المأخوذ عن الحقيقة بمثابة الحقيقة بالنسبة الى مجاز آخر فيتجوز بالمجاز الأول عن الثانى لعلاقة بينه وبين الثانى) (٣) •

وعلى كل فان الحقيقة هى الأصل فى سوق الأفكار والعواطف • فاذا كان التعبير بها وافيا بالغرض المقصود كان العدول عنها ضربا من العبث ترفضه الأذواق البليغة لأن مبنى الكلام على الفائدة واذا وجد المتكلم أن هذه الفائدة تعظم كلما تواثب الخيال المبدع الذى يتجاوز منطقه الحقيقة الى دائرة الدمج والاتحاد فان ذلك يعطيه الرخصة فى البناء المجازى الذى يفى بغرضه • فليس المجاز حلية أسلوبية وانما هو غرض يقتضيه المقام وتتبناه الضرورة وأعجب ما فى العبارة المجازية أنها تنقل السامع عن خلقه الطبيعى فى بعض الأحوال حتى انها ليسمح بها البخيل ويشجع بها الجبان ويحكم

---

(٣) الاشارة الى الايجاز ١٤٥/١٤٦ •

بها الطائش المتسرع ويجد المخاطب بها عند سماعها نشوة كنشوة الخمر حتى اذا قطع عنه ذلك الكلام أفاق وندم على ما كان منه من بذل مال أو ترك عقوبة أو اقدام على أمر مهول وهذا هو فحوى السحر الحلال المستغنى عن القاء العصا والحبال) (٤) .

واذا كان أسلوب الحقيقة يقف بالمعنى عند حد معلوم فان المجاز يضفى على المعنى عمقا بوساطة المد التخييلى للمجاز اذ أن هناك فرقا بين قولنا — رجل هو سيد قومه — وبين قولنا عنه — قرم — فان العبارة الأولى تقف عند حدود الصياغة الحقيقية بينما تتجاوز الثانية المدلول المباشر الى هيمنته وقوته وكرمه ووقاره وبذلك تنطلق النفس فى رحاب المجاز تتملى كل المعانى التى يمكن تصورها ولذلك قال العلوى — اذا عبر باللفظ الدال على الحقيقة حصل كمال العلم به من جميع وجوهه واذا عبر عنه بمجازه لم تعرف على جهة الكمال فيحصل مع المجاز تشوق الى تحصيل الكمال (٥) .

ولذلك كان للمجاز — أثر جليل فى اتساع العربية ونموها وقدرتها على التعبير على المعقولات المحضة ومعنويات الأمور ... وبفضل المجاز والنقل اتسعت اللغة العربية للعلوم والفنون على اختلاف أنواعها وللحضارة على كثرة مظاهرها (٦) .

واذا كان المجاز له هذا الثراء فهل يعنى ذلك أنه أبلغ من الحقيقة ؟ قال البلاغيون ما يوهم ذلك بقولهم — قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الافصاح والتعريض أوقع من التصريح وأن للاستعارة مزية وفضلا وأن المجاز أبدا أبلغ من الحقيقة (٧) وبمثل ذلك قال الخطيب فى الايضاح وابن رشيق فى العمدة .

والواقع أن قولهم — أبلغ — من بلغ يبلغ بلوغا لا من بلغ يبلغ بلاغة اذ البلاغة هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته واذا كان

---

(٤) المثل السائر ٣٩ .
(٥) الطراز ١/٨٢ .
(٦) فقه اللغة ٢٩ .
(٧) دلائل الاعجاز ١٠٩ .

الأمر كذلك فان الحقيقة تشـــارك المجـــاز من جهة البلاغة وأما من جهة المبـــالغـــة فان المعـــول عليه فى ذلك هو المقـــام والمقتضى وبذلك تكون الحقيقة فى مكانهـــا أبلغ من غيرها كمـــا أن المجاز فى مقامه أبلغ من غيره فالمســـألة اذن ليست فى ذاتية التعبير وانمـــا هى فى مناسبة التعبـــير لمقتضى الحال وبذلك تســـير الحقيقة مع المجـــاز فى أن كليهما من وسائل التعبير الفنى وبكل جاء كتاب الله عنـــوان الاعجـــاز والســـنة المطهـــرة والأدب .

والقول بأن اللغة حقيقة ومجاز هو القول المقبـــول والمعقـــول ولم يكن هذا موضـــع اجتمـــاع من العلمـــاء وبخاصـــة ما يتصـــل بالقرآن الكريم فقـــد اندفع علمـــاء الظاهرية الى انكار المجاز فى القرآن بحجـــة — أن المجاز أخو الكذب والقرآن منزه عنه وأن المتكلم لا يعدل اليه الا اذا ضاقت به الحقيقـــة فيستعير وذلك محال على الله تعالى (٨) .

واندفع فريق آخر الى اثباته كأهل الســـنة والمعتزلة والأشـــاعرة فقـــد رأوه طريقـــا من طرق التعبير البليغ ومظهرا من مظـــاهر الاثراء اللغوى الذى يتم به اشـــباع رغبـــة المتكلم فى الابانة عن أحاسيســـه وانفعالاته ولذلك قال ابن قتيبة — لو كان المجـــاز كذبا لكان أكثر كلامنـــا فاســـدا لأنا نقول نبت البقل وطالت الشجرة (٩) .

وقال عبد القـــاهر (ومن قدح فى المجـــاز وهم أن يصـــفه بغـــير الصـــدق فقد خبط خبطا عظيمـــا ويهـــدف لمـــا لا يخفى ولـــو لم يجب البحث عن حقيقـــة المجـــاز والعنـــاية به حتى تحصل دروبه وتضـــبط أقســـامه الا للســـلامة من مثل هذه القالة والخلاص مما نحـــا نحـــو هذه الشبهة لكـــان من حق العاقل أن يتوفر عليه ويصرف العنـــاية اليه فكيف وبطالب الدين حاجة ماســـة اليه من جهات يطول عدها) (١٠) .

وقد فرق البلاغيـــون بين المجاز والكذب بأن المتجـــوز متـــأول فى كلامه على أســـاس العلاقة الواصلة بين المعنى الحقيقى والمعنى المجازى

---

(٨) الاتقـــان ٢/٣٦ .
(٩) تأويل مشـــكل القرآن ٩٩ .
(١٠) أسرار البلاغة .

ومقيم القرينــة التى تعين مراده من التعبير دون تمــويه أو خــداع • وذلك يطبع مجــازه بطــابع الصــدق الفنى والجمــال الأســلوبى • وأما الكذب فليس فيــه تأول والكاذب يصرف همته الى اثبــات شىء غير ثابت أصلا وليس فيــه عــلاقة ولا قرينــة هادية وانمــا هــو أسلوب يقوم على فوضى المعــانى وعبث الألفــاظ ولا مكان له فى دائرة البيان السـاحر • وذلك بخــلاف الكذب فى الصيغة الشعرية • فقد استحسنه البلاغيــون لأن أســاسه التخييــل والمبالغــة • وقد أبان عبد القــاهر عن المذهبين — خير الشعر أكذبه — و — خير الشعر أصــدقه — وقال — والأول أولى لأنهما قولان يتعــارضان فى اختيار نوعى الشــعر • فمن قال — خــيره أصــدقه كان ترك الاغراق والمبالغــة والتجــوز الى التحقيق •••• ومن قال — خيره أكذبه — ذهب الى أن الصنعة انما يمد باعها وينشر شــعاعها ويتســع ميدانها وتتفرع أفنــانها حيث يعتمــد الاتســاع والتخييل ويدعى الحقيقة فيمــا أصله التقــريب والتمثيــل وحيث يقصــد التلطف والتــأويل ويذهب بالقــول مــذهب المبالغــة والاغراق (١١) •

وأشير الى أن المثبتين المجاز فى القرآن الكريم لم يكونوا على درجة واحدة فى القــول بالمجــاز فيه • فالمعتزلة كانوا يرون أن للفظ دلالتين • الأولى وهى عبــارة عن المعنى الظاهر المكشوف الذى تســتتر تحتــه الدلالة الثانيــة وهى المجــاز كمــا فى قوله تعــالى : ((**يد الله فــوق أيديهم**)) فالمعنى الأول هو الجــارحة والثــانى القــدرة وهــو المعنى المجــازى •

وأما أهل الســنة فيرون أن له يدا لا كالأيدى • فاللفظ مستعمل فى غير ما وضــع له ولكنــهم لم يصلوا الى المعنى المجــاز الذى وصل اليه المعتزلة ونظيره قوله تعالى : ((**كل شىء هالك الا وجهه**))فالمراد بالوجه الذات اذ الوجه جزء مهم بالنسبة للذات • فاذا هلك هلكت الذات وهــذا التأويل مذهب الخلف الذين يؤولون ويحددون المعنى المجــازى للفــظ وأما الســلف فهم يؤولون ولا يحددون فيقولون وجه لا كالوجوه فاللفظ

---

(١١) المرجع الســابق ٢/١٣٤ •

ليس مستعملا فى حقيقته عندهم لكنهم لم يحددوا معناه المجازى وان كان كلام الخلف هو المساير لأساليب العربية لأن الله منزه عن الكلية والجزئية لكن القرآن نزل بلغة العرب فخاطب الناس بما يألفون حتى تصل المعانى الى عقولهم مع الرفق بهم (١٢) •

وهكذا وصل المعتزلة باللفظ المستعمل فى غير ما وضع له الى المعنى المجازى وتوقف أهل السنة عند التأويل ورفضوا الوصول الى دائرة المجاز ونخلص بعد ذلك الى أن القول بالحقيقة والمجاز ووجودهما فى القرآن الكريم وسائر الكلام الرصين هو المساير لواقع الأساليب وأما هذه الآراء المتطرفة فالواقع يشهد بغروبها وعدم ثباتها وقد قال ابن الأثير (وقد ذهب قوم الى أن الكلام كله حقيقة لا مجاز فيه وذهب آخرون الى أنه كله مجاز لا حقيقة فيه وكلا المذهبين فاسد عندى) (١٣) •

كما عقب السيوطى على هذه الآراء بقوله (ومنكر المجاز فى اللغة جاحد للضرورة ومبطل محاسن لغة العرب) (١٤) •

---

(١٢) ينظر الصورة البيانية وقيمتها البلاغية ص ٢٢١ وما بعدها •
(١٣) المثل السائر ٣٦ •
(١٤) المزهر ١/٣٦٤ •



المجاز فى اتجـــاهين

من ألواضـــح أن مفردات اللغة لا تكون جمـــلا ذات فائدة وانمـــا المعـــول عليه فى تحقيق هـــذه الفائدة هو ضـــم الكلمـــات واســـنادها وبنـــاء الجملة من هذه المفردات • فالكلمة الواحدة ســـواء كانت اســـما أو فعلا أو حرفا لا تتحقق بهـــا فائدة •

(والعلة فى ذلك أن مدار الفـــائدة فى الحقيقة على الاثبـــات والنفى ألا ترى أن الخبر أول معانى الكـــلام وأقـــدمها والذى تســـتند ســـائر المعانى اليه وتترتب عليه وهو ينقسم الى هذين الحكمين • واذا ثبت ذلك فان الاثبات يقتضى مثبتـــا ومثبتـــا له نحو • انك اذا قلت • ضرب زيد أو زيد ضـــارب فقـــد أثبت الضرب فعـــلا أو وصـــفا وكذلك النفى يقتضى منفيـــا ومنفيـــا عنـــه • فاذا قلت ما ضرب زيد وما زيد ضـــارب فقـــد نفيت الضرب عن زيد وأخرجته عن أن يكـــون فعـــلا له • فلمـــا كان الأمر كذلك احتيج الى شـــيئين الاثبـــات والنفى بهمـــا فيكـــون أحدهما مثبتا والآخر مثبتـــا له وكذلك يكـــون أحدهمـــا منفيـــا والآخر منفيـــا عنـــه • فكـــان ذلك الشـــيئان المبتـــدأ والخبر والفعل والفاعل وقيـــل للمثبت وللمنفى مســـند وحديث وللمثبت له والمنفى عنه مســـند اليه ومحـــدث عنـــه • واذا رمت الفـــائدة أن تحصـــل لك من الاســـم الواحد أو الفعل الواحد صرت كأنك تطلب أن يكون الشىء الواحد مثبتا ومثبتـــا له ومنفيـــا ومنفيا عنه وذلك محال) (١) •

وهكذا شـــأن الجمل المفيـــدة لا بد فيهـــا من الاثبـــات والمثبت • والقضـــاء بالحقيقة والمجاز يكون بالنظر اليها من الجهتين :

احداهمـــا : أن تنظر الى ما وقع بها من الاثبـــات أهـــو فى حقـــه وموضعه أم قد زال عن الموضع الذى ينبغى أن يكون فيه ؟

---

(١) أسرار البلاغة ٢/٢٣٣ •

ثانيهمـا : أن تنظر الى المعنى المثبت أعنى ما وقع عليـه الاثبات كالحياة فى قولك • أحيا الله زيدا والشـيب فى قولك أشـاب الله رأسى • أثابت هو على الحقيقة أم عدل به عنها (٢) •

فاذا كان الاثبات فى موضـعه وغير زائل عن مكـانه كان الكـلام حقيقة كمـا فى قولك أشـاب الله الرأس • وان كان غير ذلك كان مجازا عقليـا فحده « كل جملة أخرجت الحكم المفـاد بهـا عن موضـوعه فى العقل لضرب من التأول » (٣) •

وكذلك الحال فى المثبت • فاطلاق الأسـد على الحيـوان المفترس حقيقة لأنه أريد بها ما وضعت له فى أصل اللغة وأما اطلاقهـا على الرجل الشجاع فاطـلاق على غـير ما وضـعت له لملاحظـة بين المعنى الأول والثانى ولذلك كانت مجازا لغويا •

ولمـا كان الاثبات لا يحصـل الا من الجملة والجملة لم تؤلفهمـا اللغة وانمـا صنعها المتكلم كان مجـاز الاثبـات عقليـا لأنه متلقى من جهة العقل • وأما مجاز المثبت فان اللغـة هى التى قضت بأن المفردات وضـعت لمعـانى خاصة فاذا انتقلت الى معنى آخـر كان الـدال على المجـاز هو اللغـة ولذلك سـمى مجازا لغويا •

وقال عبد القاهر : « اعلم أن المجـاز على ضربين • مجاز من طريق اللغة ومجـاز من طريق المعنى والمعقـول فاذا وصفنا بالمجاز الكلمـة المفردة كقـولنـا • اليـد مجاز فى النعمة والأسـد مجاز فى الانسـان وكل ما ليس بالسبع المعروف كان حكما أجريناه على ما جرى عليـه من طريق اللغة لأنا أردنا أن المتكلم قد جاز باللفظة أصـلها الذى وقعت له ابتداء فى اللغـة وأوقعها على غير ذلك اما تشـبيها واما لصلة وملابسة بين ما نقلها اليه وما نقلها عنـه ومتى وصـفنا بالمجاز الجملة من الكلام كان مجازا من طريق المعقول دون اللغة •••• » (٤) •

---

(٢) المرجع السـابق ٢/٢٤٣ •
(٣) أسرار البلاغة ٢/٢٥٧ •
(٤) المرجع السـابق ٢/٢٧٩ •

ففى قوله تعالى : « **واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا** » نجد أنه لا مجاز فى الزيادة ولا فى الآيات وانما المجاز فى اثبات الزيادة للآيات لعلاقة السببية .

وفى قوله تعالى : « **أو من كان ميتا فأحييناه** » نجد أن المجاز فى نفس كلمة — ميتا وأحييناه — استعير الأول للضلال والثانى للهداية .

وقد يدخل المجاز من جهتى الاثبات والمثبت معا كما فى قول المتنبى :

وتحى له المال الصوارم والقنا

ويقتل ما يحى التبسم والجدا

استعار الحياة لزيادة المال ووفوره فهو مجاز لغوى فى المثبت ثم أثبته للصوارم فكان مجازا عقليا فى الاثبات بعلاقة السببية .

كما استعار القتل لتفريقه فى العطاء مجازا لغويا ثم أثبته فعلا للتبسم مجازا عقليا فى الاثبات .

واذا استبان أن المجاز عقلى ولغوى . فما موقع الاستعارة من المجازين ؟ هل تقوم على نقل الألفاظ من معانيها الأصلية الى معانى أخرى فيكون التصرف فى اللغة فتكون مجازا لغويا أم أن التصرف فى المعانى والمدلولات بالادعاء كما يقضى بذلك النشاط العقلى فتكون مجازا عقليا ؟

فالمذهب المشهور وهو رأى الجمهور . أنها مجاز لغوى لأن لفظ المشبه فى الاستعارة كأسد فى قولك . رأيت أسدا يرمى القذائف . موضوع فى اللغة للحيوان المفترس وليس موضوعا لمطلق شجاع أى لما يعم الرجل الشجاع والحيوان المخصوص واذا لم يكن كذلك كانت دلالته على المشبه من طريق التشبيه والادعاء ونقل اللفظ عما وضع له الى غير ما وضع له تصرف فى محيط اللغة كما سبق . ولو كان موضوعا لهما لكانت دلالته على الرجل الشجاع من قبيل اللغة ولكان صفة لا اسم جنس وذاك خلاف المجمع عليه .

وذهب البعض الى أنها مجاز عقلى • بمعنى أن التصرف فيها قائم على خطوات عقليـــة فتحويل الرجل الشجاع الى الأســدية بوســاطة التشــبيه والتناسى والادعاء بأنه فرد من أفراد الأســود ونقل أســم الأســد بمعنــاه اليــه • كل هذا نشاط عقلى وهذا معنى قولهم • انها مجاز عقلى وليس مرادهم أنهــا مجاز عقلى فى الاثبات كمــا هو شــأن المجــاز العقلى المقــابل للمجاز اللغوى وانمــا المجــاز هنــا ما زال فى المثبت أى فى الكلمــة •

وقد أيدوا وجهة نظرهم • فى أن اللفظ فى الاستعارة لا ينقل مجردا عن معنــاه لأنه لو نقل مجردا عن معناه • لكانت الأعلام المنقولة مثل • يزيد وصــخر اســتعارة وليس الأمر كذلك فيهــا • ولمــا أفاد مبالغــة ولكانت الاســتعارة مســاوية للحقيقة فى الدلالة على أصــل المعنى • فلا بد من نقــل معنى الأســدية للرجل الشــجاع بالادعــاء لتتحقــق المبــالغة • والا كان لفــظ أســد مثــل لفظ • على • فى الدلالة على الذات لا غير •

ولو كان النقل مجردا عن المعنى لجــاز أن تقول لمن ســميته صخرا أنك جعلته صخرا وهذا لا يجوز لأن الجعل تحــويل من جنس الى جنس آخر ولا تحويل فى التســمية وأما باستعارة هذا اللفظ للدلالة على القوة والشدة فيجوز أن تقول • جعلته صخرا لأنك ادعيت أنه صار كذلك •

كمــا أيدوا وجهة نظرهم فى أن التصرف فى تحــويل المشــبه الى جنس المشبه به وصيرورته من أفراده الحقيقيين بالادعاء بما يأتى :

الأول : لولا ادعاء ذلك لما صــح التعجب فى قول ابن العميد :

قامت تظللنـــى من الشـــمس
نفــس أعــز علــى من نفــسى
قامت تظللنـــى ومن عجــب
شــمس تظللنـــى من الشــمس

فالذى يوجب التعجب هو الأمر الغريب النادر كشمس حقيقة تظلل من الشــمس •

الثانى : ولولا الادعاء ما صح النهى عن التعجب فى قول ابن طباطبا :

لا تعجبوا من بلى غلالته
قد زر أزراره على القمر

فكما أنه لا عجب من ابلاء القمر الحقيقى للثياب كما هو شائع عندهم فهو ينهاهم عن التعجب من رؤية ثيابه كذلك لأنها ملاصقة لجسم قمر على الحقيقة ٠

رد الجمهور :

ورد الجمهور بأن النقل والادعاء هو أمر تخييلى يقصد به المبالغة وليس تحويلا للمشبه الى حقيقة المشبه به فى الواقع وذلك لا يخرج اللفظ المستعار عن كونه مستعملا فى غير ما وضع له ٠ فاذا كانت اللغة قد حددت لفظ الأسد للحيوان المخصوص ٠ فاستعماله فى الرجل الشجاع مهما كانت درجة الادعاء يكون استعمالا فى غير ما وضع له ٠

وأما التعجب والنهى عنه فانه لا يعنى أن المشبه قد صار فردا حقيقيا من أفراد المشبه به تثبت له كل خواصه ٠ وانما صار من أفراد جنسه بطريق الادعاء لتحقيق المبالغة ٠

والفرق واضح بين جعل الشىء داخلا فى أفراد جنس آخر على سبيل التخييل والمبالغة وبين جعله اياه على الحقيقة (٥) ٠

وعلى كل فان الخلاف بينهما لفظى كما قال سعد الدين فى المطول (٦) ٠

وقال الدكتور الكردى « لأن المبالغة وادعاء دخول المشبه فى جنس المشبه به لا ينكرهما من جعل الاستعارة مجازا لغويا وأن كون

(٥) ينظر الافصاط ١٥٣ وما بعدها ٠
(٦) ينظر المطول ٣٤٦ ٠

اللفظ أطلق على غير معناه الحقيقى فى نفس الأمر لا ينكره من جعلها مجازا عقليا (٧) ٠

ومع وضوع كون الاستعارة مجازا لغويا كما وضح عبد القاهر ودافع عنه الخطيب والسكاكى ٠ فقد وجدت نصوص فى دلائل الاعجاز تدل على اعتبارها مجازا عقليا ٠ فقد قال (٠٠ أنا اذا حققنا لم نجد لفظ الأسد قد استعمل على القطع والبت فى غير ما وضع له ذلك لأنه لم يجعل فى معنى شجاع على الاطلاق ولكن جعل الرجل بشجاعته أسدا فالتجوز فى أن ادعيت للرجل أنه فى معنى الأسد وأنه كأنه هو فى قوة قلبه وشدة بطشه وفى أن الخوف لا يخامره والذعر لا يعرض له وهذا ان حصلت تجوز منك فى معنى اللفظ لا اللفظ ٠٠٠٠٠

وليس العجب الا أنهم لا يذكرون شيئا من المجاز الا قالوا أنه أبلغ من الحقيقة ٠ فليت شعرى ان كان لفظ أسد قد نقل عما وضع له فى اللغة وأزيل عنه وجعل يراد به الشجاع ٠ هكذا غفلا ساذجا فمن أين يجب أن يكون قولنا أسد أبلغ من قولنا شجاع ؟ (٨) ٠

ويصل الى بيت القصيد فيقول (فقد تبين من غير وجه أن الاستعارة انما هى ادعاء معنى الاسم للشىء لا نقل الاسم عن الشىء واذا ثبت أنها ادعاء معنى الاسم للشىء علمت أن الذى قالوه من أنها تعليق العبارة على غير ما وضعت له فى اللغة ونقل لها عما وضعت له كلام تسامحوا فيه لأنه اذا كانت الاستعارة ادعاء معنى الاسم لم يكن الاسم مزالا عما وضع له بل مقرا عليه) (٩) ٠

فهل يعنى ذلك اضطراب من الامام كما زعم الرازى ؟

الواقع لا اضطراب وانما استعمل عبد القاهر كلمة النقل فى تلك النصوص التى يفرق فيها بين المجاز العقلى والمجاز اللغوى ٠ فعند النظرة العقلية المحددة للألفاظ المستعارة لا مفر من التسليم

---

(٧) نظرات فى البيان ١٦٨ ٠
(٨)،(٩) دلائل الاعجاز ٣٤٢/٣٩٥ ٠

بكلمة النقل لأن لفــظ أســد أجرى فى الحقيقة على ما ليس بأسد ولفظ بحر كذلك أجرى على ما ليس ببحر • وعلى الرغم من استعمال المشبه به بكل حقائقه فى المشبه وهذا يعنى استعمال الكلمة فى غير ما وضــعت له الا أنه لا ينخلع منهــا على المشبه الا الصــفة المشتركة بينهما كصــفة الشجاعة التى بين الأســد والرجل الشجاع وتبقى بعد ذلك الصــفات الآدمية فى المشبه ثابتة والصــفات الحيوانية فى المشــبه به كالمخــالب وعبالة العنــق وغيرها ثابتة كذلك •

ولم تكن هذه النظرات الجزئية فى بيــان الحدود والقــوانين هى التى تحكم مسيرة عبد القاهر فى تأصيل مذهبه الذى يقوم على الدراسة الواعيــة والمتأنيــة للصور والأســاليب وتحليلها وبيــان خصــائصها الفنيــة • فعــاد يحرر معنى النقل فى فكرة وعطف الحديث مرة أخرى لبيــان حقيقته الفنيــة • فبين أن نقل المشبه به إلى المشبه من الأشياء التى استحكمت فى نفــوس العــامة والخاصــة على السواء • فالأســد ينقــل ويراد به الرجل الشجاع والبدر ينقل ويراد به الحسناء ولكن عند التحقيــق وجد أن الرجل الشــجاع يصــير بشــجاعته أســدا والمرأة بحســنها تصير بدرا أى أن الادعاء هنــا يقــوم على التخييل والتأويل بأن هذه المشــبهات ذات الطابع المعروف والسمت المــألوف قد خرجت عن حقائقها وصــارت الى غير أجنــاسها فالتجوز فى تلك الأحاســيس والمعــانى التى هى عمل النفس ونشــاط العقل • وكلمــا تواثب الخيال المبــدع فانه يؤدى الى ثورة المعــانى فى نفســه ونشــاطها فى عقله • فيرى الأشــياء رؤية جــديدة ويدركهــا ادراكا جــديدا فتتحــول عن طبــائعها المألوفة وأوصــافها الرتيبة الى صور جديدة وحقائق طريفة • فالرجل الذى صار أسدا • لم يعد هو الانســان المعروف ولا الحيــوان المخصــــوص ولكنه نموذج ثالث • تكون من مزج الطرفين • هو روح الأســد فى جســد انســان •

« فالاســـتعارة اذن ليست حركة فى ألفــاظ فارغة من معانيهــا ولا تلاعبــا بكلمات وانمــا هى احساس وجدانى عميــق ورؤية قلبيــة لهــذه المشــبهات التى تشــكلت فى الكلمــات المســتعارة • وقد لخص المتأخرون هذه النظرة الرحبة حين قالوا فى اجراء الاستعارة انها مبنيــة

على دعوى الاتحاد بين الطرفين أى دخول المشبه فى المشبه به وصيرورته فردا من أفراده وهـذا تفسير جليل وموجز لطبيعـة دلالة الاسـتعارة الا أننـا مع طول الالف له لم نحـاول اكتنـاهه وسـبره واخراج مضمونه الذى يعنى أن تنخلع الأشـياء فى وجـدان الشـاعر والأديب المحس بها من صـفاتها وتصور فى صور أخرى وليست المسألة مسـألة كسـوة ظاهرة ينهض بها اللفـظ وانمـا هى فى حقيقتهـا ضرب من الادراك الروحى والرؤية القلبية لهذه الأشـياء » (١٠) •

والذى نخلص اليه أن النقل فى الاستعارة انمـا هو نقل لغوى قام فى جانب من جوانبه على نقل معنـوى مهد له طريق النقل والتجـوز • وتذوق الصـورة الاسـتعارية وتحسس جوانب الشـعور فيهـا يؤكد هذا المفهـوم • فالشـاعر الذى يستعير الأسد للرجل لا يلغى فى الرجل عقله وذكاءه ووجهاته وانمـا يبالغ فى شـجاعته فهـو أمام أسـد ذكى وجيـه •

وكذلك الذى يرى فى محبوبته (زهرة) لا ينسى فيها آدميتها التى هى مصدر تأثيرها ولا ينسى فيهـا خاصة من خواصها ولكنه يدعى لهـا رشـاقة الزهرة وجمـال شكلها وحسن نكهتها ويصورها لنـا فى هـذا الشـكل المؤثر الحبيب • وهكذا تذوب الفواصـل بين المسـتعار منـه والمستعار له فى الاستعارة الصادقة النابعة من الوجدان) (١١) •

---

(١٠) التصوير البيانى ١٨٤ وما بعدها •
(١١) الصـورة البيانية وقيمتها البلاغية ٢٤٩ •

المجاز اللغوى

تبين مما سبق أن المجاز لغوى وعقلى وحديثى الآن مع المجاز اللغوى الذى يأتى مفردا ومركبا .

فالمجاز المفرد . الكلمة المستعملة فى غير ما وضعت له عند أهل اللغة لعلاقة وقرينة مانعة من ارادة المعنى الوضعى .

فاذا كانت العلاقة علاقة مشابهة فالمجاز استعارة . وان كانت غير المشابهة كان المجاز مرسلا . ولا بد فى كليهما من قرينة مانعة من ارادة المعنى الأصلى .

فقوله تعالى : « **الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور** » فيه ثلاث استعارات :

الأولى : استعير الاخراج وهو التحول من مكان الى مكان آخر للتحول من حالة الى أخرى بجامع الانتقال فى كل . استعارة تصريحية تبعية .

الثانية : إستعيرت الظلمات الى الضلال فى عدم الهداية . استعارة تصريحية أصلية .

الثالثة : استعير النور للايمان فى الاهتداء . استعارة تصريحية أصلية .

وهذه الاستعارات من المجاز اللغوى المفرد الذى علاقته المشابهة .

وفى قوله تعالى : « **ينزل لكم من السماء رزقا** » فالمراد بالرزق المطر لأنه الذى ينزل من السماء . فيكون سببا فى الرزق . فالمجاز هنا فى المفرد وعلاقته المسببية . وهو المجاز المرسل .

وأما المجــاز المركب • فهو الذى يكون فى الهيئة سواء دل على هذه الهيئة المركبة بلفظ مركب أو بلفظ مفرد • كمـــا سنوضح ذلك •

وعلى ذلك فالمجــاز اللغوى يشمل :

١ ــ الاستعارة بكل أنواعها • المفردة والمركبة •

٢ ــ المجــاز المرسل بعلاقاته المتعــددة •

الاســتعارة

والاســتعارة فن من فنــون المجاز الذى يمتــع النفس ويؤثر فى الوجدان بخصائصهــا الأسلوبية الدقيقة وبدقائقهــا الفنيــة البليغــة وبعروقها الضــاربة فى معارض التخييل والادعاء •

وقد أبان عبد القــاهر عن قيمها الجمــالية العامة من حيث المبالغة والايجــاز والجــدة والتكثيف والايضـــاح • فى حديث شــيق طــويل نشــير الى شىء منـــه •

فيشير الى تعــدد فنونها واتساع مساحتها الأسلوبية بقوله (هى أمد ميدانا وأشــد افتنانا وأكثر جريانا وأعجب حسنا واحسانا وأوســع ســعة وأبعد غورا وأذهب نجدا فى الصناعة ••••

وفى ميــدان الجــدة والطرافة يقول (ومن الفضيلة الجامعة فيها أنهــا تبرز هذا البيــان أبدا فى صورة مستجدة تزيد قدره نبلا وتوجب له بعد الفضل فضلا •••••••) •

وفى ميدان الايجاز ــ تعطيك الكثير من المعانى باليسير من اللفــظ حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر وتجنى من الغصن الواحد أنواعا من الثمر •••

وفى ميــدان التشــخيص والتبيين ــ ترى بها الجمــاد حيا ناطقا والأعجم فصــيحا والأجســام الخرس مبينة والمعانى الخفية بادية •• وان شــئت أرتك المعانى اللطيفة التى هى من خبايا العقــول كأنهــا قد جسمت حتى رأتهــا العيــون وان شــئت لطفت الأوصاف الجثمانية

حتى تعـود روحانية لا تنالهـا الا الظنـون ... (١) .

حـد الاستعارة :

من المعلوم أن حد الاستعارة لم يولد فجأة وانمـا تلقفتـه مهـاد علميـة متعـددة من بيئة لغـوية وأدبية وتفسـيرية وبلاغيـة . فهى عنـد المبرد . نقل اللفظ من معنى الى معنى وعنـد ثعلب أن يسـتعار للشىء اسـم غيره أو معنى سـواه وعنـد صاحب الوسـاطة ما اكتفى فيها بالاسـم المستعار عن الأصل ونقلت العبارة فجعلت فى مكان غيرها وعنـد الرمانى . تعليق العبـارة على غير ما وضعت له فى أصل اللغـة على جهة النقل للابانة (٢) .

بل إن عبد القاهر نفسه لم يضع لها التعريف المحدد مرة واحـدة وانمـا تتدرج تعريفه لها وتطور من الأسرار الى الدلائل . فبدأ بهـذا التعريف الذى لا ينفك عن المعنى اللغـوى للكلمـة . فالاسـتعارة من العـارية وتدور المـادة حول التحويل والذهاب وكل ذلك نلحظه فى نقل الكلمة من معنـاها الأصلى الى المعنى المنقـولة اليـه . قال (اعلم أن الاستعارة فى الجملة أن يكـون لفظ الأصل فى الوضع اللغـوى معروفا تدل الشـواهد على أنه اختص به حين وضع ثم يستعمله الشاعر وغـير الشـاعر فى غير ذلك الأصل وينقله نقلا غـير لازم فيكـون هنـاك كالعـارية) (٣) .

فهـو هنـا يركز على عملية النقل التى تتناول المجاز بصـفة عامة وفى مواطن أخرى أشـار الى العلاقة والقرينة أو الشرط الذى يصحح عملية التجوز فقـال : (واعلم بعد أن فى اطلاق المجاز على اللفظ المنقول عن أصله شرطا وهو أن يقع نقله على وجه لا يعرى معـه من ملاحظـة الأصل) (٤) .

ثم يصدع أخيرا بفلسـفة هذه الأصول فى هذه التعريفات المحددة

---

(١) أسرار البلاغة ١/١٣٦ وما بعدها .
(٢) نقلا عن الصورة البيـانية .
(٣) أسرار البلاغة ١/١٢٣ .
(٤) المرجع السـابق ٢/٢٦٨ .

فيقول عن التصريحية — أن تجعل الشيء الشيء ليس به — وعن المكنية — أن تجعل للشيء الشيء ليس له (٥) •

وبذلك استقر تعريفها فى مدرسة المتأخرين • فقال الخطيب : (هى ما كانت علاقته تشبيه معنـاه بما وضع له) (٦) •

وهذه الكثرة من التعريفات تدل على (ثراء الصورة الاستعارية وحيويتها وكثرة ايحاءاتها وأهميتها بحيث أن كل واحد من هؤلاء الأعلام لمح منها وجد فيها ما لم يلتفت اليه الآخرون • والحق أننى أحسست أن كل تعريف من هذه التعريفات عندما يصغى اليه المرء باهتمام فانه ينبئه عن معزى الاستعارة ومضمونها بحيث لا يستطيع الانسان رفض تعريف منها كلية وذلك يؤكد معنى الصدق الفنى واستقلال الشخصية العلمية عند كل واحد من هؤلاء الأعلام ولذلك نجد أن لكل منهم طابعه الخاص الذى يميزه عن غيره من حيث النظرة العلمية والاحساس الفنى كما أنها — تتسم بالتطور والنمو الذى طرأ على مفهوم الاستعارة بتقدم الزمن واختلاف المكان وكما تطورت فى تعريفاتها • تطورت فى قبولها ورفضها وحسنها وقبولها فبينما كانت فى أول أمرها عامة تشمل المجاز بأنواعه والأعلام المنقولة من غير بيان للعلاقة بين المستعار منه والمستعار له نجد الزمن يتقدم وتتضح التعريفات شيئا فشيئا وتشترط العلاقة بالمجاورة أو المشاكلة أو بسبب ربط بين طرفيها ثم كشفت عن الغرض من استعمالها وبيان الفرق بينها وبين التعبير بحقيقتها ثم تقدم الزمن بها فقسمت ووضحت الفروق بين أقسامها من حيث البلاغة ثم وجد لبس بينها وبين أصلها التشبيه فوضعت الفروق بينها وبينه على اختلاف بين العلماء فى هذه الفروق •••) (٦) •

وقبل الخوض فى فنون الاستعارة نعرض لنوع من التشبيه أدخله بعضهم فى الاستعارة وهو التشبيه البليغ •

---

(٥) دلائل الاعجاز ١٠٦ •
(٦) بغية الايضاح ٣/١٠٤ •
(٦) الصورة البيانية ٢٤١ وما بعدها •

بين التشبيه البليغ والاســتعارة

هل يسمى نحو قوله تعالى : ((**نساؤكم حرث لكم**)) و ((**هن لباس لكم وأنتم لباس لهن** وقول الرسول ﷺ : (المؤمن مرآة أخيه والنساء حبائل الشيطان) وقولهم — محمد أسد — تشبيها أم استعارة ؟

ذهب بعض البلاغيين كالتنــوخي والشريف الرضى الى اعتبــاره استعارة .

فقد اعتمدوا على الأداة فى التفرقة بينهما . فمــا كان بالأداة يسمى تشبيها وان لم تكن فاستعارة لأن حذف الأداة يوحى بدعــوى الاتحــاد بين الطرفين وذلك يفيد المبــالغة كالاستعارة . فاذا تســاويا فى الافادة تساويا فى المصطلح الدال على ذلك .

والشريف الرضى يعلق على أحاديث كثيرة من نوع هذا التشـــبيه بأنه مجــاز واستعارة كمــا فى قوله ﷺ : (الصــوم جنة) وقــوله للأنصار (أنتم الشعار والناس الدثار) (٧) .

وذهب أكثر البلاغيين الى اعتباره تشبيها على حد المبالغة . فقــد ذهب الرمانى فى صدر حديثه عن الاســتعارة الى أن التشــبيه باق على أصله لم يغــير عنه فى الاســتعمال وأما الاســتعارة فخرجت عن غــير ما وضعت له فى اللغــة . أى أنه أقام الفرق بينهمــا على أساس النقــل وعدمه وكان هذا كافيــا فى تحديد الفرق بينهمــا وقد ارتضاه من بعــده الا أنه ذكر بعــد ذلك ما يشــعر بأنه يقيم الفرق بينهمــا على أســاس الأداة فقــال : (والتشبيه بأداته الدالة عليه فى اللغة) (٨) .

كذلك قال القاضى الجرجانى ((وربما جاء من هذا الباب ما يظنــه النــاس استعارة وهو تشبيه أو مثــل . فقد رأيت بعض أهل الأدب ذكر أنواعا من الاستعارة عد فيها قول أبى نواس :

---

(٧) ينظر المجــازات النبوية ٤٢ ، ٦٦ ، ١٣٣ .
(٨) ثلاث رسائل ٨٦ .

والحب ظهــــــر أنت راكبـــــه

فاذا صرفت عنـــــــانه انصرفا

ولست أرى هذا وما أشبهه استعارة وانما معنى البيت • ان الحب مثل ظهر أو الحب كظهر تديره كيف شـئت اذا ملكت عنانه فهو اما ضرب مثل أو تشـــبيه شيء بشيء وانمـــا الاستعارة ما اكتفى فيهـــا بالاســـم المستعار عن الأصل ونقلت العبـــارة فجعلت فى مكان غيرها) (٩) •

فالاستعارة يتحقق فيهـــا معنى النقـــل بخلاف التشبيه ولذلك قال ابن ســـنان أيضا : وليس يقع الفرق عنـــدى بين التشبيه والاســـتعارة بأداة التشبيه فقـــط لأن التشبيه قد يرد بغـــير الألفـــاظ الموضـــوعة له ويكون حســـنا مختارا ولا يعده أحد فى جملة الاستعارة لخلـــوه من آلة التشـــبيه ومن هذا قول الشـــاعر :

ســـــــفرن بدورا وانتقبن أهله

ومسن غصـــــونا والتفتن جآذرا

وقـــول الآخر :

وأسبلت لؤلؤا من نرجس فســــقت

وردا وعضت على العنــــاب بالبرد

وكلاهما تشبيه محض •••• (١٠) •

ومن الواضح أن البيت الأول لم يتحقق فيه معنى النقل فالمشبهات بهـــا مستعملة فى معانيهـــا الحقيقية ولذا كان تشـــبيها كمـــا قال ولكن الأمر يختلف بالنســـبة الى البيت الثانى لأنه جعل الدمع لؤلؤا والعـــين نرجســـا والخـــد وردا والأنامل عنابا والسن بردا فتحقق فيهـــا معنى النقل ولذلك فهى من باب الاستعارة التصريحية الأصلية •

ومع وضـــوح رأى الخفاجى فقـــد جعله العلوى من القبيل الذى

---

(٩) الوســـاطة ٤١ •

(١٠) سر الفصاحة ١٠٩ •

يرى التشـــبيه البليغ من باب الاســـتعارة • وقد بين الدكتـــور محمـــد أبو موسى سبب خطئه فقـــد أخـــذ مقـــالته من ابن الأثير الذى كان فى كثير من المســـائل تنقصه الأناة فى تحقيق مقالة العلمـــاء (١١) •

وكذلك ذهب الزمخشرى فى قوله تعالى : **((صم بكـــم عمى فهـــم لا يرجعون))** الى أن المحققين على تســـميته تشبيها بليغا لا استعارة لأن المستعار له مذكور وهم المنـــافقون والاستعارة • انما تطلق حيث يطوى ذكر المســـتعار له (١٢)

موقف عبد القـــاهر من هذه القضـــية :

قد اقتفى آثار العلمـــاء المحققين كالقاضى وقرر أنك فى الاستعارة تطرح المشـــبه وتســـقطه من البين وتدعى له الاســـم الموضوع للمشبه به كمـــا فى قولك • جاءنى أســـد ورأيت أســـدا فقـــد أجريت المشبه به على المشبه حتى صـــار فى الظاهر كأنه موضـــوع له فى اللغة وذلك بناء على تشبيه مطـــوى فى نفســـك • مكنـــون فى ضـــميرك فليس القصد من هذا الكلام إثبات شـــبه وانمـــا اثبـــات أن المجىء واقعـــا من الأســـد والرؤية واقعـــة عليه كذلك • وكيف يتأتى أن يكون المراد اثبـــات شـــبه وليس فى الكلام مشـــبه ينصرف الشبه اليه •

وذلك بخـــلاف قولك • هو أســـد فان الاخبار عن الرجل بالأســـد يعنى اثبات معنـــاه له وليس اثبات الجنسية لأنهـــا تقتضى المحال وهو أن يكـــون رجلا وأســـدا معـــا والشىء الواحد لا يكون رجلا وأســـد معـــا وانمـــا يكون رجلا موصـــوفا بصـــفة الأســـد وهـــذه الصـــفة تعنى الشبه أى أن الكلام مســـوق لاثبات التشبيه وقد ذكر فى الكـــلام ما ينصرف اليه وهو المشبه وهذا ظاهر فى كل تركيب يكـــون المشـــبه به خبرا أو فى حكم الخبر • فان الكلام يكون موضوعا لاثبات المعنى للشىء وأما اذا لم يكن كذلك وكان مبتدأ بنفسه أو فاعلا أو مفعولا أو مجرورا • فالكـــلام ليس موضوعا حينئذ لاثبـــات معنـــاه وانمـــا لأمر آخر هـــو تعلقه بالفعل على جهة الفاعلية أو المفعولية أو غير ذلك من جهة التعلق •

---

(١١) التصـــوير البيانى ١٨٨ •
(١٢) الكشـــاف ١/٢٠٤ •

وبعـد أن بدأ عبد القاهر هذا الموضـوع بداية صـلبة قامت على ارساء هذه الفروق وتدعيمها بكثير من الأدلة العقلية واللغوية والعرفية عاد يضـم المخـالفين اليه ويفسـح لهـم صـدره وكأنه — طيب الله ثراه — كان يكره الخلاف والتشـدد فقـال (فان أبيت الا أن تطلـق الاسـتعارة على هذا القسـم الثانى أى هـو أسـد • فينبغى أن يعلم أن اطلاقهـا لا يجـوز فى كل موضـع يحسن دخـول حرف التشـبيه عليه بسهولة (١٢) •

وذكر للتوفيق بين هـذه الآراء حلا وسـطا قام على مسـتويات أربعـة :

المسـتوى الأول :

وهو ما لا يصـح اطلاق الاستعارة عليه وهو الذى يقبل دخـول أداة التشبيه دخولا مستساغا وذلك اذا كان المشبه به معرفة مثل • هو الأسد فانه يقال • هو كالأسـد •

المستوى الثانى :

وهو ما يبعـد عن التشـبيه ليقرب من الاسـتعارة وذلك اذا كان التركيب يقبل بعض أدوات التشبيه دون البعض كأن يكون المشـبه به نكرة مثل هو بحر وهو ليث • فيمكنـك أن تقـول كأنه بحـر وكأنه ليث ولا تقول هو كبحر وكليث • فهـذا أصبح له شبه ما بالاستعارة فى عدم تقدير الأداة معها • فاذا سـميته استعارة كنت أعذر وأشبه بأن تكون على جانب من الصواب •

المستوى الثالث :

وهو ما لا يصـح أن يكون تشبيها ويترجح كونه اسـتعارة وذلك بأن كانت الصياغة لا يحسن دخول أدوات التشبيه عليها الا بتغيـير فى صورة الكـلام مثل • هو بحر من البـلاغة وبدر يسـكن الأرض وهى شـمس متألقـة والفراق غروبها • فلا يمكن دخول الأداة الا بتغيير فى الصياغة • فتقول • كأنه بحر الا أنه من البلاغة وكأنه بدر الا أنه يسكن

---

(١٢) أسرار البلاغة ٢/١٨٩ •

الأرض وكأنهـا شمس الا أن الفراق غروبها • كان لا بد من التغيير فى نظم الكـلام لأن التشبيه انمـا يكون بمـا هـو ثابت ومتقرر ليـؤدى المقصـود منه • فكـان هذا الاسـتثناء ليصرف الوصـف عن الجنس الحقيقى الى الجنس الادعائى ومتى كان التشـبيه محـوجا الى هـذا التقدير والتغيير كان إطلاق الاستعارة عليه أولى •

المستوى الرابع :

وهو ما يتعين حمله على الاستعارة لأن تقدير التشـبيه فيه يؤدى الى التنـاقض كقول المتنبى :

أسـد دم الأسد الهزبر خضـابه
مـوت فريص المـوت منـه يرعد

فلو حمل على التشبيه لأفضى الى كون المشبه بالوصف المذكور — دم الأسـد الهزبر خضابه — فريص الموت منه يرعد — أقوى من المشبه به فيتناقضان •

وقد وقع فى هـذا التنـاقض شـارح الديوان • فقـد حمله على التشبيه بجعل — أسـد — خبرا لمبتدأ محذوف والأصح أنه يحمل على الاستعارة دفعـا لهـذا التنـاقض •

وأما قول البحترى :

وبدر أضاء الأرض شرقا ومغـربا
وموضـع رحلى منه أسـود مظلم

فلو حمل على التشبيه وهو أنه كالبدر الذى يضىء الكـون شرقا وغربا الا موضـع رحله فهو مظلم كان ذلك قياسا على مجهول وتفـويتا لغرض المتكلم • لأنه يريد أنه يعم الناس بخيره ويخصه بالحرمان وذلك لا يتأتى الا بالحمل على الاستعارة وتخييـل أنه زاد فى جنس البـدور واحدا له هـذه الصـفة العجيبة فالكـلام ليس موضوعا لاثبات شـبه بينـه وبين البدر ولكن لاثبات تلك الصـفة • واذا كان المشـبه به لم يجتلب لاثبات شبه كان الكلام مبنيـا على أن كونه بدرا أمر قد اسـتقر

وثبت وانمـــا العمل فى اثبات هذه الصـــفة الغريبة والحـــالة التى هى موضع العجب) (١٣) •

ومع وضـــوح تذوق عبد القـــاهر لهذه التراكيب التى اختصـــت بصـــفات عجيبة نادرة وأنهـــا لا تستساغ الا على سبيل الاســـتعارة • فقـــد ذهب البعض الى رد هذه النظرات المتـــذوقة وأبى الا أن يسلكها فى باب التشبيهات الخيالية • لأنه لا يبعد أن يفوق الفرع الأصـــل فى وصف خاص كمـــا قال الشاعر :

فان تفـــق الأنام وأنت منهـــم
فان المسك بعض دم الغـــزال (١٤)

ولا شـــك أن هـــذا تضـــييق لمجـــال الأســـانيب وخنـــق لملكـــة التخييل الذى عمـــاده الادعاء والمبـــالغـــة فى وجود أجنـــاس خياليـــة ذات صـــفات جديدة على سبيل الاستعارة تضـــاف الى رصيد الأجناس الحقيقيـــة • ثم ان الشىء يثبت بطريق القطـــع والتأكيد والـــوجوب فى الاستعارة فكأن هذه الأجنـــاس الخيالية موجودة بالفعل وهذا بخـــلاف التشبيه الذى يثبت به الشىء بطريق الرجحان •

وفى ختـــام هذا الموضوع أنبه الى أمور :

الأول : أن التركيب الذى يوجد فيـــه الطرفان وبخاصـــة اذا كان المشبه به خبرا عن المشبه من باب التشبيه • وقد يوضـــع التركيب على الابتـــداء والاخبـــار كما فى قوله تعالى : **((والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والســـموات مطويات بيمينـــه))** ولكنـــه ليس من باب الاخبـــار بالمشبه به عن المشبه • لأنه وان كان مكونا من المبتـــدأ والخبر من الوجهة النحوية الا أن التركيب كله يمثل جانب المشـــبه به فقـــط ولذا كان من الاستعارة التمثيلية • وقد حاول بعضهم أن يستثنيه من نحو قولهم — زيد أســـد — وأن يجعل تلك الآية من باب الاخبار بالمشبه به عن المشبه ومع ذلك كانت استعارة • ولكن الفرق واضح بين التركيبين (١٥) •

---

(١٣) اسرار البلاغة ٢/١٩٢ •
(١٤) ينظر شروح التلخيص ٣/٣٠٢ •
(١٥) ينظر المرجع السـابق ٣/٣٠٣ •

الثانى : أن المشبه عندما يطوى ذكره ويسقط من البين يكون التركيب استعارة ولكن هناك من الصور ما يذكر فيها شيء يجذب التركيب مرة أخرى الى التشبيه .

كذكر الوجه . فاذا قلت — رأيت أسدا فهو استعارة وان زدت — فى الشجاعة رجع الأسلوب تشبيها . ومنه .

ولاحت من بروج البدر بعدا
بدور مها تبرجها اكتنان

فقد استعار البروج للقصور المطوية ثم ذكر الوجه وهو بعدا فكأنه قال — ولاحت قصور مثل البروج فى البعد . فترك المشبه يدل على أنه استعارة وذكر الوجه يقضى أنه تشبيه — والظاهر أنه من باب التشبيه لأن المراد بكون المشبه مقدرا أعم من أن يكون محذوفا جزء كلام كما فى قوله تعالى : « **صم بكم** » أو يكون فى الكلام ما يقتضى تقديره كما فى قولنا (رأيت أسدا فى الشجاعة) (١٦) .

أو بيان المشبه به . فاذا قلت . جاءنى أسد فهو استعارة وان زدت من فلان رجع تشبيها . وكما فى قوله تعالى : « **حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر** فقد تعلق الفاعل — الخيط الأبيض — بالفعل على جهة الفاعلية لا على اثبات المعنى . والى هذا الحد كان التركيب استعارة ولكن ذكر — من الفجر — بيان للمشبه به — الخيط الأبيض — رجع به الى التشبيه — واكتفى به عن بيان الخيط الأسود لأن بيان أحدهما بيان للآخر) (١٧) .

الثالث : توجد دقائق قرآنية تمثل الاعجاز لفت اليها الزمخشرى فى قوله تعالى : « **وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها** » وقوله : « **ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان** » .

---

(١٦) المطول .
(١٧) الكشاف ١/٣٣٩ .

فقـولـه « البحران » متعلق بالفعل على جهة الفاعلية كما فى قـولك (غنت لنـا ظبية) فالمشبه مطـوى فى الكلام وظـاهر ذلك أنه من باب الاستعارة ولكن التفتازانى استشـعر من كلام الزمخشرى أنه تشـبيه وقال (وهو مشـكل لأن المشبه فيـه ليس بمـذكور ولا مقـدر ويمكن التقصى عن هذا الاشـكال بأن الاسـتعارة تجب أن تكـون مستعملة فى غير ما وضع له وعلامته أن يصح وقوع اسم المشبه موقعـه ولا يفـوت الا المبـالغة فى التشبيه • فيصح فى نحو رأيت أسد أن يقال : رأيت رجلا شجاعا وهذا ليس كذلك على ما يظهر بالتأمل وكذلك لا يصـح أن يراد بالبحرين الموصوفين المؤمن والكافر لأن قوله **« ومن كل تأكلون ••• الخ »** ينبىء عن أنه تعالى قصـد التشبيه لا الاستعارة وأراد تفضـيل البحر الأجاج على الكافر بأنه قد يشـارك العذب فى منافع والكـافر خلو من المنفعـة (١٨) •

وكذلك هذا الاستفهام فى عجز الآية الثانية المتضمن نفى الاستواء يتوجه الى هذه الصـورة المحسـوسة المطروحة فى الصياغة والتى تدل على قـوة التنـازع النفسى والصراع الداخلى الذى تتبدد به طاقة هذا الرجل بين هؤلاء الشركاء المتصـارعين • تقابلهما صـورة الرجل الآخر الذى سلم من التنـازع • فلو جعلنـا المشـبه مكان المشـبه به طبقـا للمقيـاس السـابق لتوجه نفى الاستواء للمشرك والموحد أى لو قلنـا (من يعبـد آلهـة شتى ومن يعبد الهـا واحدا هل يستويان) ولفقـد التعبير مغزاه واذا ذهب لم يبق فى العبارة شىء (١٩) •

---

(١٨) المطـول ٣٦٠ •
(١٩) التصـوير البيانى ١٩٨ •

الاستعارة التصريحية

الاستعارة التصريحية تقابل الاستعارة المكنية • فوجود المشـــبه به وعدمه هو أساس هذا التقســـيم •

فالتصريحية : ما صرح فيها بالمشبه به والمكنية ما حذف منها المشبه به ورمز اليه بشيء من لوازمه •

وقد أشار عبد القـــاهر الى أساس هذا التقسيم بقوله :

« اعلم أن كل لفظة دخلتها الاستعارة المفيدة فانهـــا لا تخلو من أن تكون اســـما أو فعلا فاذا كان اسما فانه يقع مستعارا على قسمين » •

أحدهما : أن تنقله عن مســـماه الأصلى الى شيء آخر ثابت معلوم فتجرية عليه وتجعله متنـــاولا له تنـــاول الصـــفة مثلا للموصوف وذلك قولك رأيت أســـدا وأنت تعنى رجلا شـــجاعا ورنت لنـــا ظبيـــة وأنت تعنى أمرأة وأبديت نورا وأنت تعنى الهـــدى وبيانا وحجـــة وما شـــاكل ذلك فالاســـم فى هذا كله كمـــا تراه متنـــاول شـــيئا معلـــوما يمكن أن ينص عليه فيقـــال انه عنى بالاســـم وكنى به عنـــه ونقـــل عن مســـماه الأصلى فجعل اسما له على سبيل الاستعارة والمبالغة فى التشبيه •

ثانيهمـــا : أن يؤخذ الاســـم عن حقيقته ويوضع موضـــعا لا يبين فيـــه شيء يشـــار اليه • فيقـــال هـــذا هـــو المراد بالاســـم والذى استعير له وجعل خليفـــة لاســـمه الأصلى ونائبا منابه ومثـــاله قـــول لبيـــد :

وغداة ريح قد كشـــفت وقـــرة
اذ أصبحت بيد الشـــمال زمامهـــا

وذلك أنه جعل للشمال يدا ومعلوم أنه ليس هناك مشار اليـــه يمكن

أن تجرى اليـــد عليه بل ليس أكثر من أن تخيل الى نفســك أن الشمال فى تصريف الغـــداة على حكم طبيعتها كالمدبر والمصرف لما فى زمامه بيده ومقادته فى كفـــه وذلك كله لا يتعـــدى التخييـــل والوهم والتقـــدير فى النفس من غير أن يكـــون هنـــاك شىء يحس وذات تحصل (١) ٠

فكلتاهما يقـــوم على التشـــبيه لأن الاستعارة بنت التشبيه الا أن التشبيه فى التصريحية واضـــح جلى لأنه يقوم على أشـــياء ثابتة يمكن أن ينص عليهـــا وهذا بخلاف التشبيه فى المكنيـــة فانه مســـتور لأن أســـاس التشبيه وهو المشـــبه به محذوف ومرمـــوز اليـــه بشىء من لوازمه وهذا اللازم مثبت للمشبه عن طريق التخييل فى النفس ٠

أقســـام التصريحية

لاحظ البلاغيـــون أن الألفـــاظ المستعارة ليست على درجة واحدة فى قبـــول اجراء التشبيه ٠ فقـــد يدخل التشـــبيه نفس الأطراف دخولا ذاتيـــا كمـــا فى استعارة الأســـد للرجل الشجاع ٠ فان التشبيه يجرى فى الطرفين بالأصـــالة ٠

وذلك بخلاف استعارة الفعل والمشـــتقات ٠ فان التشـــبيه لا يدخل فيهما مباشرة وانمـــا فى أصل اشتقاقهما وهو المصدر فمثلا فى اســـتعارة — أحيـــا لهدى — نشبه الهداية بالاحيـــاء ونستعير الاحيـــاء للهـــداية ونشـــــتق من الاحيـــاء بمعنى الهـــداية أحيـــا بمعنى هـــدى وكذلك المشتقات كمـــا سيتضـــح بعد وقال عبد القاهر : « فاذا استعير الفعـــل لما ليس له فى الأصل فانه يثبت باستعارته له وصـــفا هو شـــبيه بالمعنى الذى ذلك الفعل مشـــتق منه » (٢) ٠

ولذلك ســـمى النمط الأول بالاستعارة التصريحية الأصلية لدخول التشبيه فيهـــا بالأصالة أو لأنها أصل للتبعية أو لأنهـــا الكثير من قولهم هذا أصل أى كثير (٣) ٠

---

(١) أسرار البلاغة ١/١٣٨ ٠
(٢) أسرار البلاغة ١/١٤٤ ٠
(٣) ينظر الرســـالة البيانية ٣١٢ ٠

وسمى النمط الثانى أستعارة تصريحية تبعية لأنها تابعة لاستعارة أخرى جرت فى المصادر أولا على رأى الجمهور أو لتشبيه سابق على رأى العصام .

التصريحية الأصلية : ما كان اللفظ المستعار فيها اسم جنس وهو ما دل على ذات صالحة لأن تصدق على كثيرين من غير اعتبار وصف من الأوصاف فى الدلالة (٤) . ويصدق هذا على اسم العين كالأسد والقمر والشمس واسم المعنى كالمصادر والعلم المؤول باسم الجنس — مثل — حاتم — فان شهرته بالوصف صيرته فى حكم الكلى الذى يصدق على كثيرين . وبذلك يتأتى أن المشبه فرد من أفراده وداخل فى جنسه و (وانما ألحق بأسماء الأجناس دون الصفات — المشتقات — لأن المعنى الذى اشتهر به خارج عن مفهومه وانما لم يجعل اسم جنس حقيقة لأن مفهومه بتضمنه الوصف لم يصر كليا بل هو باق على جزئيته) (٥) .

وبذلك يخرج عن دائرة الأصلية . الأعلام غير المشتهرة بوصف لأنها جزئيات والأسماء المشتقة مثل — قاتل — لأنها وضعت باعتبار الوصف . فقاتل . وضع لذات متصفة بالقتل وأما لفظ — أسد — فانه وضع للذات — الحيوان المفترس — من غير اعتبار وصف من الأوصاف ولذلك فهو يصدق عليه حتى ولو لم تكن فيه صفة الشجاعة . وكما يشبه بحاتم فى الكرم يشبه بمادر فى البخل وبباقل فى العى وبعمر فى العدل وبأحنف فى الحلم واياس فى الذكاء وبأبليس فى الشيطنة وبالحجاج فى الظلم كما قال البارودى :

يستعظمون من الحجاج صولته
وكل قوم بهم للظلم حجاج (٦)

---

(٤) شروح التلخيص ١٠٨/٤ .
(٥) الرسالة البيانية ٣٠٩ .
(٦) ديوان البارودى ١٥٥/١ .

والمراد باسم الجنس المتقدم هو فى أصطلاح البلاغيين وأما عند النحاة فيطلق على النكرة الشاملة للمشتقات والجوامد ويلزم عليه أن يخرج من الأصلية رأيت أسامة يرمى أوفى الحمام مع أنه منها وأن يدخل فيها الاستعارة فى المشتقات كاسمى الفاعل والمفعول والصفة المشبهة واسم الزمان والمكان والآلة مع أن استعارتها تبعية (٧) •

ومع وضوح كون استعارة أسماء الأجناس والأعلام المشتهرة بالوصف أصلية وهو ما عليه الجمهور والعصام فى بعض شروحه ولكنه خالفهم فى الأطول فى الأعلام المشتهرة وذهب الى أن استعارتها تبعية لأن حاتما مؤول بالمتناهى فى الجود فيكون صفة تأويلا وقد استعير من مفهوم المتناهى فى الجود لتكامل فيه • فاستعارته من مفهوم مشتق لمفهوم مشتق ولا يصلح ذلك لاجراء التشبيه بينهما بالأصالة • فينبغى أن يعتبر التشبيه بين المصدرين ويجعل حاتما فى حكم المشتق • فيشبه كمال الجود بتناهيه ويعتبر سريان التشبيه منهما للرجل الكامل فى الجود والرجل المتناهى فيه ويستعار لفظ الثانى للأول بناء على هذه السراية (٨) •

ولكن الفرق واضح بينهما من جهة الوصف • فـ — حاتم — وضع أصلا لذات معينة ثم طرأ الوصف عليها فصارت فى حكم الكلى الذى له أفراد وأما مثل — قاتل — فقد وضعت لتدل على ذات متصفة بالقتل فالوصف فيها ليس دخيلا عليها وانما هو أصيل فيها • فطروء الوصف فى الأول وأصالته فى الثانى هو الفرق بينهما •

المصدر المؤول : هل استعارته أصلية أم تبعية ؟

ويقصد به دخول — أن — المصدرية على الفعل المستعار مثل — أحزننى أن يطغى السيل على أهالى سيناء — هل تجرى الاستعارة فى الفعل — يطغى — أم فى المصدر المنسبك منه مع — أن — وهو الطغيان ؟

---

(٧) شروح التلخيص ١٠٨/٤ •
(٨) الرسالة البيانية ٣٧٨ •

قال الدسوقى : (والحق الأول لأن الاستعارة ينظر فيها الى اللفظ لا للتأويل) (٩) .

أى أن الاستعارة تكون تبعية باجرائها فى الفعل الملفوظ به وأما — أن — فلا دخل لها فى الاستعارة وانما هى آلة لمجرد السبك فاذا أدت غرضها طرحت .

وان اعتبرت استعارتها فى المصدر المنسبك من الفعل و — أن — كانت أصلية .

وذلك بخلاف الأعلام المؤولة فانه قد نظر فيها للتأويل لا لذات اللفظ المستعار اذ لو نظر له فقط ما جرت الاستعارة فيه (١٠) .

فالتأويل فى الأعلام المشتهرة بصفة كان من أجل اجراء الاستعارة ولكن التأويل فى الفعل المقترن بالحرف المصدرى كان من أجل غرض آخر لا يمس الاستعارة وليست الاستعارة متوقفة عليه . فتجرى فى الفعل و — أن — بمعزل عنه .

فنقول فى المثال السابق . شبه زيادة الماء زيادة مفسدة بالطغيان بجامع مجاوزة الحد واستعير المشبه به للمشبه واشتق من الطغيان بمعنى الزيادة يطغى بمعنى يزيد على سبيل التصريحية التبعية .

أو تقول بعد السبك . شبه الزيادة بالطغيان واستعير المشبه به للمشبه على طريق التصريحية الأصلية . والمختار الأول لما سبق .

وقد علل البلاغيون لكون الاستعارة فى أسماء الأجناس أصلية بأنها (تعتمد على التشبيه والتشبيه يقتضى كون المشبه موصوفا بوجه الشبه أو كونه مشاركا للمشبه به فى وجه الشبه وانما يصلح للموصوفية الحقائق أى الأمور المتقررة الثابتة كقولك جسم أبيض وبياض صاف دون معانى الأفعال والصفات المشتقة منها لكونها

---

(٩)،(١٠) شروح التلخيص ٤/١١١ .

متجددة غير متقررة بوساطة دخول الزمان فى مفهومها أو عروضـــه لهـــا دون الحرف وهو ظاهر (١١) •

وسأشير الى طرف من هذه التعليلات فى الحديث عن التبعية •

---

(١١) المطول ٣٧٢ ٠

جمال التصوير فى التصريحية الأصلية

عندما نتحسس ملامح الجمـال فى صور هذه الاسـتعارة نرى أن اللفظ المستعار تبعث فيه روح جديدة تبث فيـه حيـوية الحركة ومرونة الاتحاد وأصالة الجمـال •

أما حيـوية الحركة فلأن اللفظ يترك مجـراه المعتـاد ومسـلكه المألوف ويتحرك فى اطار جديد • يخطر فيـه باشـعاعاته ودلالاته التى رصـد لأدائها فى الوضع الجديد وبذلك يكتسب فى هذه الزورة شـيات حسـنة تنفض عنـه الف الرتابة وجمودية الوضع اللغـوى ويصبح من أهل المقـامات ومقتضـيات الأحـوال الـذين تزدان بهـم الأمكنـة بمـا يبثونهـا من عبـير المعـانى ولطيف الاشـارات وبذلك يتحقـق المعنى من وجوده • فليست الألفـاظ مخلوقة للدلالة القاموسية لتظـل علامة عنيهـا ومرتبطة بهـا ولكنهـا وضـعت أو ولدت هناك لتكـون الأرض الصلبة التى تنطلق منهـا الى أجواء المشـاعر ودنيا العـواطف وربيع المعانى • فاللفظ المستعار بهذا الاعتبار يزيد اللغة ثراء وتطـورا بهذه الحركات الجـادة فى محيط الاستعارة وأما مرونة الاتحاد فتمثـل فى اقتحامه الدوائر الغريبة على جنسـه وتلونه بلون أفرادها حتى يدعى أنه واحـد من بنى جنسـها • تثبت له أبرز صـفاتها وبذلك تتحطـم الحدود وتذوب الفـوارق بين المشبه والمشـبه به ويتحـدان فى ظـلال المبـالغة •

وأما أصـالة الجمـال فلأن اللفظ لم يبتر عن قديمـه بترا وانمـا صار ببزته التى نسجها الخيـال جديدا وكأننا أحدثنا بالاسـتعارة أمرا قديمـا وجـديدا معـا وهـذه هى طـرافة الجمـال والجـدة حيث نحصل على عناصر ونماذج غير معروفة لدينـا فى بعض جوانبها كالزهرة التى تختال وتتكلم والأسـد الذى يحمل المدفع وغير ذلك •

صور وتحليلات :

تأمل لفظى الظلمة والنـــور فى قوله تعالى : ((**الحمد لله الذى خلق السـموات والأرض وجعل الظلمـــات والنـــور ثم الذين كفــروا بربهم يعدلون**)) تجد أنهمـــا مذكوران فى اطار الثنـــاء عليه تعـــالى لخلقه هذه النعم الكبرى وهى تمثل قدرته وعظمته وتخاطب العقل والقلب للايمـــان بخالقهـــا ومع وضـــوح هذه الآيات الكونية التى يعايشها الانســـان فى كل مكـــان وزمان فقـــد سلك انكافرون منهجا قاسطا وساووا بالله غـــيره من معبوداتهم وهذا شىء لا ينبغى أن يكـــون ولذلك عطف نهـــاية الآية بالحرف — ثم — الدالة على استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح قدرته •

فالظلمة والنـــور هنـــا لم يتعديا مظهـــرهما الكـــونى الذى يراه الانســـان ويحسه وكان استخدامهما فيمـــا وضعا له لأن السياق هـــو الذى حدد المراد بهمـــا وكانا لبنتين ملتحمتين فيه • تؤديان الدور الذى رصدا من أجله •

ولذلك كان قول ابن القيم (وكل ما فى القرآن من الظلمات والنـــور مستعار) (١٢) غير دقيق • وكانت عبارة الرمـــانى أدق حيث قال (كل ما جاء فى القرآن من ذكر — من الظلمات الى النور — فهو مستعار)(١٣) فقد حدد القالب الذى يخرجان فيه وهو — من — و — الى •

وتأملهما مرة أخرى وقد تحركا من هذا المجال الحقيقى المحســـوس الذى خلقـــا له وتركا هذا الكون الفسيح الى كون الصـــدور والقلوب فى قوله تعالى : ((**الله ولى الذين آمنـــوا يخرجهم من الظلمات الى النور**)) أى من الضـــلال الى الايمـــان فقـــد استحالت الكلمتـــان بالاستعارة الى شىء آخر غير ما يعرفه الناس فالضـــلال الذى يقطـــع الصلة بالله ظلمة والانقيـــاد للأهواء ورغـــائب النفس ظلمة والحيـــاة التى يشـــيع فيهـــا العقوق وتهدر فيها الحقوق وتضيع فيهـــا القيم ظلمة • ظلمـــات بعضها فوق بعض • لكنهـــا من نوع جديد لا تراه الأبصار وانما تدركه البصـــائر • والذى يبدد هذه الظلمـــات هو نور الايمـــان الذى يسكن

---

(١٢) الفوائد المشـــوق ٤٨ •

(١٣) ثلاث رســـائل فى اعجاز القرآن ٩٢ •

القلب ويحرك الجوارح حركة هادية الى الله والنفس والنـاس والكـون كله . فليس هو نور الشمس الذى يضىء جـزءا من الأرض ولا نور المصـباح الذى يضىء ركنـا من البيت وانمـا هو نور البصـيرة الذى يجعل صاحبه فى نور وان جلس فى ظلمة ومؤانس وان كان فى وحدة وفى أخـوة وان كان فى غربة وفى معية الله وان كان فى هجرة .

وتأمل لفظ **« النـور »** فى قوله تعـالى : **« وأنزلنـا اليكم نورا مبينـا »** انه يعبر هنـا عن مصـدر نور البصـيرة السـالف . القرآن الكريم . فهو النور الكامل والخالد .

أما كمـاله فلأنه لم يدع شـيئا الا أرشـد اليه ودل العقل عليـه وأما خلوده فلأن نوره يسـع الدنيـا المتراحبـة بأحقـابها الى الآخرة السرمدية بثوابها وجنانها . وفى هذا امتاع للعقـل والعاطفة معـا . فان العقل لو فكر وقدر التقـدير المنطقى السـليم لاختـار هـذا الكتـاب دستور حيـاة وقانون عمل وطرح هـذه المذاهب البشرية التى يدعيهـا أصـحاب انتهويمات الفلسـفية والأفكار العلمـانية . كمـا أن العاطفة تشرأب الى كل نعيـم . وكأن هـذه الاسـتعارة ترسـم لنـا طريق الحياة السوية والسير على الصراط المستقيم .

وأنظر الى لفـظ **« النـور »** فى قـوله تعـالى **« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبـين »** تجـد أنه اسـتعير لارسـول ﷺ فهـو المرسـل بالكتاب المبين الذى يضـع المعـالم الهادية ويزيل الظلمـات العاتيـة وينير البصـائر ويرشـد الحائر . وبذلك تكتمل الدائرة النورانيـة من القرآن والرسـول والايمـان . نور على نور . فتجعل الداخل فيهـا فى حالة من الاشراق النفسى والانشراح الصـدرى والاطمئنـان القلبى والامتاع الروحى ، شبيهة بتلك الحالة التى يكـون عليهـا من يعيش فى حومة الأضواء الحسـية حيث تتضـح الرؤية وتتقشع الظلمات .

واذا كان النـور من جنس النـار كمـا قال الزمخشرى . فانظـر اليه وقد تغيرت مادته للتعبير عن الطرف المقـابل الذى ينخرط فى سـلك الظلام المفضى الى النـار . قال ﷺ . لا تستضيئوا بنـار المشركين . فالرسـول يلفت أنظـار أمته لتأخذ حـذرها ممن لا يدينـون بدينهـا

ويعلمهم أنه مهمـا كانت ألسـنتهم معسـولة ومشورتهم مجـدية فان مشورتهم ظاهرها الاضـاءة وباطنها الاحراق • فلا ينبغى أن نخـدع بهـا لأنهم كمـا قال الله تعالى : ((**ان تمسسكم حسـنة تسـؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بهـا**)) فهم يعضـون أناملهم كلمـا وجدوا بارقة أمل أو صـحوة ضـمير أو يقظـة دينيـة تشرق فى سـماء الأمـة الاسـلامية •

فهذه الاسـتعارة ترسـخ فينـا الاعتصام بحبل الله المتين فهـو النـور الهادى وأما مشـورة المشركين فهى نار محـرقة لأن القـول السديد والمشـورة الصادقة لا يخرجان الا من معين التقوى والايمـان بالله •

ويقول ﷺ فى كلام آخر • ولا تسـلط عليهم عـدوا من سـوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم — فيستعير — البيضة لمجتمع أمته وموضـع سلطانهم ومستقر دعوتهم وكأنه ﷺ يرمى بهذه الاستعارة الى وجـوب المحافظة على المجتمع الاسـلامى وبقائه بعيـدا عن كل شغب من شأنه أن يخـدش لبنـاته ويعرضه للانصباب فى نار المشركين • وعلى أقويائه أن يصونوا ضعافه حتى يكون السـياج المنيـع الذى يحمى دولتهم من أنفسـهم لا من غيرهم شـأنهم شأن البيضة فى اجتمـاع عنـاصرها وتلاحقها وحمـاية ظاهرها لداخلها وذلك مرهون بصيانتها • وقد يجـوز أن يكون المراد بالبيضـة • المغفر الذى يلبسه المحارب • وأنه اسـتعير لقوتهم واتفاقهم ووجوب التئـامهم من أجل النصرة والمدافعة والتستر وحمـاية بعضهم البعض (*) .

ولا مانع من ارادة المعنيين • فالمعنى الأول فى حالة السـلم والمعنى الثانى فى حالة الحرب •

ونتأمل بعـد ذلك صوب العقول لنتعرف على سـمات الجمـال من خلال تحرك الكلمـات بالاستعارة •

قال المتنبى فى وصف قلم :

(*) ينظر المجازات النبوية .

يمج ظلاما فى نهار لسانه ويفهم عمن قال ما ليس يسمع(١٤) •

فالشاعر نقل لفظ الظلام الى معنى آخر غير المعانى التى شاهدناها فى استعارة القرآن • وبذلك أضفى على اللفظ معنى آخر غـير المعـانى العقلية وهو المداد الذى تسـود به الصحائف • التى يحبهـا أهل العلم وتتعشقها القلوب المثقفة •

وكذلك نقل لفظ — النهار — من دلالته الزمنيــة المعـروفة الى القرطاس • وبذلك ولدت له دلالة جديدة على لسـان الشاعر وقد أحكم التأليف بين الألفـاظ المستعارة بالطبـاق البديع الذى يحـدث لونا من ألوان الاثارة والتنافس بين المعانى •

وأنظر الى تعبير الشعراء عن القصـائد تجد كلا منهـم يسـتخدم اللفظ الذى يفـوح بالمعـانى النفسية العميقة ويكشف عن أحاسـيس جمة فى قلب الشـاعر فالمتنبى يجعل — القصائد — قلائد فى قوله :

وما الـدهر الا من رواة قـلائدى

اذا قلت شعرا أصبح الدهر منشـدا

فسـار به من لا يسـير مشـمرا

وغنى به من لا يعنى مغـردا(١٥)

ان كل كلمة تنم عن احتفال الشاعر بصنعته وتوفره عليها حتى أضحت نبرات العزة والاختيـال تفـوح من صياغتها • وتأمل ما نحن بصـدده وكيف عبر عن القصـائد بالقلائد التى تتزين بها الحسان لتكون موضـع الزينة ومثار العجب ورمز الافتتـان وحديث الركبان • ويقف الدهر منها موقف الاجلال فيرويها وينشدها وكأنه خلق لذلك كما يدل على ذلك أسلوب القصر بالنفى والاستثناء — وما الدهر الا ••••• فهذا القـالب لا يأتى الا فى المعـانى التى تسـاق بقـوة ووكادة حتى تصـيغ لهـا الآذان ويعيها الوجدان •

---

(١٤) ديوان المتنبى ٢/٣٥٣ •
(١٥) ديوان المتنبى ٢/١٤ •

وشوقى يعبر عنها بالعرائس فى قوله :

لى فى مدحك يا رسول عرائس
تيمن فيك وشاقهن جلاء
هن الحسان فان قبلت تكرما
فمهورهن شفاعة حسناء (١٦)

فهو يحتفل بالقصائد التى يسوقها الى رسول الله ﷺ • ويختار لها هذا اللفظ الذى يهتز له الوجدان وتتراقص له القلوب المحبة ولا تمل من ترداده • وكأن هذا اللفظ المستعار لا يدل على مجرد قصائد وانما يبوح بعواطف مشبوبة وبفؤاد تواق الى الذكرى العطرة ومن ثم فهو لا يسوق كلاما وانما يهدى عرائس تختال بحليها وتجرر اليه أذيالها بفؤاد متيم وقلب وامق •

وجرير يجعل القصائد كأسامرة فى قوله :

أعددت للشعراء كأسا مرة
فسقيت آخرهم بكأس الأول

فقد ضاق ذرعا بالشعراء الذين ناصبوه العداء ولكنه أعد لهم(١٧) ما يفت فى عضدهم ويثلم ألسنتهم • فجعل قصائد الهجاء كأسامرة ليجهز عليهم جميعا • وزاد هذه الاستعارة عمقا فى المجاز بهذا الترشيح فى الشطر الثانى (فسقيت آخرهم بكأس الأول) •

فصنيع هؤلاء الشعراء يؤكد ما قررناه سابقا من أن النقل فى الاستعارة ليس مجرد نقل ألفاظ بقدر ما هو نقل مشاعر وأحاسيس ورؤى قلبية نطلع عليها من خلال تحرك الكلمات •

فالمتنبى يختار — القلائد — لقصائده لأنه يتفاخر بشعره ويتيه به على ممدوحيه ويدل على أقرانه • والقلائد توحى بذلك بل وتمهد السبيل لاجازته • ومن يخطب الحسناء لم يغلها المهر وشوقى

---

(١٦) الشوقيات ١/٤١ •
(١٧) ديوان جرير ٥٣٧ •



يختـــار — العرائس — لأنه يتحـــدث عن قصـــائد مـــديح مهـــداه الى ســـيدنا رسول الله وكذلك شأن العرائس تتزين فى بيت أبيهـــا ثم تذهب الى مستحقيهـــا •

وجرير يختـــار — الكأس المرة — لأنه بصدد المعركة مـــع أنداده ويريد أن يلاقوا حتفهم على يديه بهـــذا انسلاح اللســـانى وتجمل هذه الاستعارة عندما ينتزع الشـــاعر لفظا يندر حضوره فى الذهن عنـــد ذكر المشبه كما فى قول المتنبى :

لا ناقتى تقبـــــل الـــــرديف ولا
بالســـوط يوم الرهان أجهـــــدها
شراكهـــا كـــورها وشـــفرها
زمامها والشـــسوع مقـــــودها
أشـــد عصف الرياح يســـــبقه
تحتى من خطـــــوها تأيدها (١٨)

فقد وضـــع تصويره وضـــع من يتحـــدث عن ناقة فعـــلا • فهى لا تقبل الرديف — الذى يركب خلف الراكب — وأنه لا يجهدها بالسوط • ولكن مراده بالنـــاقة — النعل — ولكنهـــا براعة الشـــاعر • الذى جعـــل الشىء المنقـــول ناقلا والمتجرد عن الحـــركة ذاتى الحـــركة وبذلك بثت الاستعارة الروح فى هذا اللفظ واقتنصت له لفظـــا ليس من وإديه وتتم الصـــورة بالتشبيه البليـــغ فى البيت الثانى بهـــذه الجمـــل المتـــوازنة فى صياغتها والمتوازنة بحركاتهـــا التى تمثل حركات النـــاقة فى ســـيرها وزإن ذلك كله بالمبـــالغة التى جعلت أهـــون ســـيرها أشـــد من الرياح العاصـــفة لتذهب النفس كل مذهب اذا تخيلت سرعة الناقة وهذا المجاز المعبر وهذه المبـــالغـــات الواصـــفة • أدلة رصدها الشاعر لبيان سرعته الفائقة فى تخطى البيـــداء • وكأنه ينطلق من هذا المجاز ليؤسس كنـــاية عن وصفه بالسرعة الفائقـــة •

---

(١٨) ديوان المتنبى ٢/٢٦ •

الاستعارة التبعية

تعليل تبعيتها والأصل المتبوع فيها :

الاستعارة التبعية تقابل الأصلية وكلتاهما فرع التصريحية وقد مضى الحديث عن التصريحية الأصلية .

وأما التصريحية التبعية فهى ما كانت فى الأفعال والمشتقات والحروف . وقد علل السكاكى ذلك بقوله : (هى ما تقع فى غير أسماء الأجناس كالأفعال والصفات المشتقة منها والحروف بناء على دعوى أن الاستعارة تعتمد التشبيه والتشبيه يعتمد كون المشبه موصوفا والأفعال والصفات المشتقة منها والحروف عن أن توصف بمعزل وانما المحتمل لها فى الأفعال والصفات المشتقة منها مصادرها وفى الحروف متعلقات معانيها فتقع الاستعارة هناك ثم تسرى فيها . وأعنى بمتعلقات معانى الحروف ما يعبر عنها عند تفسيرها مثل قولنا من معناها ابتداء الغاية والى معناها انتهاء الغاية ....)(١).

ومعتمد السكاكى فى هذا الأساس على أن « الأصل فى الموصوفية هى الحقائق » وأسماء الأجناس صالحة للموصوفية لأنها حقائق بخلاف الأفعال والمشتقات والحروف فلا يتأتى فيها تشبيه أو استعارة الا بعد جريانهما فيما هو صالح للموصوفية وهو المصدر أو متعلق معنى الحرف .

وقد أشرت سلفا الى أن سعد الدين ذكر سبب عدم تقرر الأفعال والصفات المشتقة منها وهو دخول الزمان المتجدد فى مفهوم الفعل اذ أنه يدل عليه دلالة تضمنية ويعرض للصفات لأنها تدل عليه دلالة التزامية وبذلك يكون الزمن عاملا أساسيا فى القول بتبعية الاستعارة . ولكنه يقول بعد شرحه لعبارة السكاكى (وههنا نظر

---

(١) مفتاح العلوم ١٨٠ .

وهو أن هذا الدليل بعد تسليم صحته غير متناول لأسماء الزمان والمكان والآلة لأنها تصلح للموصوفية نحو مقام واسع ومجلس فسيح ومنبت طيب وغير ذلك ولا تقع أوصافا ألبته وهم أيضا قد خصصوا ما يشتق من الفعل بالصفات المشتقة وهذه ليست بصفات باتفاق ألبته ولهذا صرحوا بأن تعريف الصفة بما دل على ذات باعتبار معنى هو المقصود غير صحيح لانتقاضه باسم الزمان والمكان والآلة فان المقتل مثلا اسم للمكان باعتبار وقوع القتل فيه فيجب أن تكون الاستعارة فيها أصلية لا تبعية وأن يقدر التشبيه في نفسها لا في مصادرها ولا شك أنا اذا قلنا بلغنا مقتل فلان أى الموضع الذى ضرب فيه ضربا شديدا كان المعنى على تشبيه ضربه بالقتل وكذا اذا قلنا هذا مرقد فلان اشارة الى قبره فهو على تشبيه الموت بالرقاد •

فالأولى أن يقال • ان المقصود الأهم فى الصفات وأسماء الزمان والمكان والآلة هو المعنى القائم بالذات لا نفس الذات وهذا ظاهر فاذا كان المستعار صفة أو اسم مكان مثلا ينبغى أن يعتبر التشبيه فيما هو المقصود الأهم • اذ لو لم يقصد ذلك لوجب أن يذكر اللفظ الدال على نفس الذات وحينئذ تكون الاستعارة فى جميعها تبعية) (٢) •

وكأنه يهدف الى بيان وجهة أخرى فى التعليل غير عدم الصلاحية للموصوفية وهو أن المقصود الأهم والأولى بالاعتبار فى الصفات واسم الزمان والمكان والآلة هو المعنى القائم بالذات • وأما اعتبار أن الحقائق هى الأصل فى الموصوفية فان الصفات وأسماء الزمان والمكان والآلة تجرى فيها الاستعارة الأصلية لأنها تصلح للموصوفية مع اتفاق الجميع على تبعيتها •

وقد أكد هذا الذى ذهب اليه فى المطول واعتبره أساس تبعية الأفعال كذلك فقال (بل التحقيق أن الاستعارة فى الأفعال وجميع المشتقات التى يكون القصد بها الى المعانى القائمة بالذوات تبعية لأن المصدر

---

(٢) المطول ٣٧٣ •

الدال على المعنى القائم بالذات هو المقصـود الأهم الجـدير بأن يعتبر فيـه التشـبيه والا لذكرت الألفـاظ الـدالة على نفس الـذوات دون ما يقوم بها من الصفات)(٣) .

وقد كانت هذه التشقيقات التى أثارها البلاغيـون على أثر عبـارة السكاكى ميدانا فسيحا للاعتراض والحوار والمناقشـة . وهـذا ان دل على شىء فانمـا يدل على بصـيرة القوم بفقه اللغـة وقدرتهم العلمية الفائقـة فى وضـع الحـدود والتمييـز بين الـدلالات . وتمحيص المسـائل تمحيصا علميـا بالبراهين والأدلة . ولكن توجيه التبعية هـو أيسر من أن يحتـاج الى هذه المعـارك الجدلية فسواء كان السـبب فى عدم اعتبار الاستعارة فى الفعل والمشتقات بالاستقلال يرجع الى عـدم الصلاحية للموصـوفية أو كان السبب فى أن الأولى بالاعتبـار هو المعنى أى المصدر أو كان السبب . أنها غير مستقلة بالمفهومية . فان الاستعارة تعـود الى الأصل المتين الذى ذكره عبد القاهر وهو المصدر فهو الحدث المقصود الأهم من الفعل وبذلك تسـير الاستعارة فى أفق التعبـير وفى محيط الدلالة لتؤدى المغزى من وضعها . وكيف لا يكون المصـدر هـو المقصـود وهو الأصل الذى اشتق منه الفعل ولا سـبيل لمعـرفة الفرع الا بالرجوع الى أصله .

الاستعارة التبعية . ألوان وفنون :

على الرغم من أن الاستعارة التبعيـة ليس لهـا صـفة الاستقلال الذاتى لأنهـا تابعـة لغـيرها اسـتعارة أو تشـبيها . فان المسـاحة اللغـوية التى تظهر فيهـا متراحبة كمـا أن ألوانهـا اللغوية متعـددة ولذلك قسمتها من حيث مستوياتها اللغوية الى ثلاثة أقسام :

الأول : استعارة الأفعال .

الثانى : استعارة الأسماء المشتقة .

الثالث : استعارة الحروف .

---

(٣) شروح التلخيص ٤٥/١١٥ وما بعدها .

استعارة الأفعال

سنفصل الحديث فى هذه الاستعارة مستلهمين منهــج عبد القــاهر الذى يقوم على مراعاة الدلالات اللغــوية وأنساب المعــانى ودراســة الأســاليب مع بيان فروقها وخصائصها الفنية •

ومن المعلوم أن الفعل له دلالتــان • حــدث وزمن والاســتعارة متصورة فى كلتا الدلالتين • وسنعرض لهمــا بالتفصيل وكذلك ما يتصل باستعارة الفعل كاســم الفعل والفعل الذى لا مصدر له • لنتعــرف على كيفية استعارته • وعلى هذا يتوزع موضوع إستعارة الفعل على النحــو الآتى :

أولا : استارة الفعل باعتبار الحدث :

ان النقل الذى هو أســاس الاســتعارة اما أن تنقــل به الكلمــة بعيــدا عن المعنى الأول واما أن تكون قريبة منه لأن الكلمــات تجمعهــا رابطة مشتركة وان كانت كل كلمة تنفرد بعــد ذلك بخصوصية تميزها عن غيرها • فاذا تحركت الكلمة فى نفس الدائرة التى تجمعها وبين جنســها وسمت استعارتها بالقرب وان تحركت فى اطار أبعــد وســمت بالبعــد وقد قســمها عبد القاهر من حيث هذا الاعتبار الى ثلاثة أضرب :

الضرب الأول : وعماده — أن يرى معنى الكلمة المستعار موجودا فى المستعار له من حيث عموم جنسه على الحقيقــة الا أن لذلك الجنس خصــائص ومــراتب فى الفضــيلة والنقص والقــوة والضعف فأنت تستعير لفظ الأفضل لما هو دونه) •

فالحركة جنس عام ودائرة واســعة تدخل فيهــا حركة الطــيران والعدو والســباحة والتــدويم والــدوران • وقد اختصــت كل حركة بصدورها من فاعل مخصــوص • فالطيران لذى الجناح والعــدو فى البر والسباحة فى البحر •

---

(٤) أسرار البلاغة ١/١٤٨ •

فقـــول الشاعر :

وطرت بمنصلى فى يعمـــلان

دوامى الأيدى يخبطن السريحـــا

وقـــول الآخر :

قوم اذا الشر أبدى ناجذيه لهم

طاروا اليه زرافات ووحـــدانا

وقول النبى ﷺ : (خير النـــاس رجل ممسك بعنان فرســـه كلمـــا سمع هيعة طار اليهـــا) •

استعير الطيران للعـــدو وسرعة ملاقاة الأعـــداء وبعـــد التنـــاسى والادعاء واستعارة المشبه به للمشبه • اشتق من الطيران بمعنى العدو • طار بمعنى عـــدا •

فالعـــدو والطيران يشتركان فى عموم الحركة على الاطـــلاق ولكن كمـــا سبق أن الطيران مخصوص بذى الجنـــاح واســـتعير لغـــير ذى الجنـــاح • ويلاحظ أن استعارته كانت فى مقـــام ملاقاة الأعداء والخفة للجهـــاد وهو شىء تتثاقل عنه النفـــوس الحريصـــة على حيـــاة • وأما النفوس الأبية فانها تلبى الدعوة الى الجهـــاد والنفرة اليـــه وهى مغتبطة لأنهـــا تعلم أن فيه عزها فلا يســـعها الا أن تطـــير اليـــه فرحا وسرورا باللقـــاء وكأنها تقول — فاسقنى بالعـــز كأس الحنظـــل — فاستخدام هذا الفعل — طـــار — فى هذا المقـــام يوحى بالخفة والنشاط والمســـارعة شـــأن الطائر فى جو الســـماء لا يعجزه شىء ولا يحول بينه وبين غايته شىء وانمـــا ينـــاح الى أى بقعة يريدها •

والفعل — نثر — تجرى اســـتعارته فى هـــذا المحيـــط • وأصله (للأجســـام الصـــغار كالدراهم والدنانير والجواهر والحبوب ونحوها لأن لهـــا هيئة مخصوصة فى التفريق لا تأتى فى الأجســـام الكبـــار ولأن القصـــد بالنثر أن تجتمع أشـــياء فى كف أو وعاء ثم يقع فعل تتفرق معه دفعـــة واحدة والأجسام الكبار لا يكون فيها ذلك لكنه لما اتفق فى الحرب تســـاقط المنهزمين على غير ترتيب ونظام كمـــا يكون فى الشىء المنثـــور

عبر عنـــه بالنشر ونسب ذلك الى الممدوح اذ كان هو سبب الانتشار)(٥)٠
وذلك كمـــا فى قول أبى تمـــام :

وقد نثرتهم روعة ثم أحـــدقوا
به مثلما ألفت عقـــدا منظمـــــا

وقول المتنبى :

نثرتهم فوق الأحيــــدب نثرة
كما نثرت فوق العروس الدراهم

استعير — النثر — من معنـــاه الحقيقى لتساقط الرجال المنهزمين وتفرقهم على غير نظـــام واشـــتق من النثر بالمعنى المراد نثر بمعنى — فرق وأســـقط على غير نظـــام ٠

ثم ان النثر الحقيقى الذى يكون للأجسام الصغار يكـــون الانسان قابضــــا عليه ومتمكنـــا من التصرف فيه ٠ فاختيار لفظ — انثر — يدل على التمكن والأخذ بنواصى الأعداء أخذ عزة واقتدار وليس عن فرصـــــة سنحت فى ليل أو نهـــار ٠

واحذر النقـــد الطائش الذى يوجه الى مثل هذا التصوير الدقيق ويصـــفه بالانفصـــال وعدم تنـــاسق الأجزاء ٠ لأن صـــور انقتـــــل والدماء تثير فى النفس الانقباض وتقشـــعر منها الجلود ٠ وأين هذا من صورة نثر الدر أو الدراهم على تاج العروس ٠ ذلكم المنظر الذى تطمئن له القلوب وتنبسط له الأســـارير ٠

فهذا التصور غافل عن مقام الصورة ودقائق التصوير ٠ فالشـــاعر يصـــور فعل الممـــدوح — ســـيف الـــدولة — مـــع الأعـــداء ويعبر عن أحاســـيسه الفرحة وقد ظفر بالأعداء وتمكن منهم وأسقطهم شر اسقاط فكان هذا التردى ومنظر هذه الجثث المخضبة بالدماء هو الذى يبهجـــه ويغتبط له لأنه يعنى نصره على الأعداء بل هو الغاية التى كان يطمـــــح وراءها ٠

---

(٥) المرجع الســـابق ١/١٥٠ ٠

فجـاء تصوير الشـاعر مرآة عاكسة لكل ما يختلـج فى نفسـية المدوح وانتقى أجزاء تفوح بالبهجة والسرور لارتباطها بما يبهج • وهو النثر لأنه يستعمل مع الجواهر واللآلىء كثـيرا كمـا قال الله تعـالى : و« **واذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا** » •

وقال شوقى :

قم فى فم الدنيا وحى الأزهـرا

وانثر على سمع الزمان الجوهرا

ثم تمم الصـورة بهـذه الهيئـة الحسـية التى تدل على السرور دلالة أصلية وهى قوله (كما نثرت فوق العروس الدراهم) وبذلك اتحد النظم مع الاحسـاس وتناسقت أركان التصوير فى الدلالة على الغرض المقصـود •

والفعل — قطع — موضوع لازالة الاتصال من الأجسام المتلاصقة أجزاؤها — واذا جاء فى تفـريق الجمـاعة وابعـاد بعضـهم من بعض كقوله تعالى : « **وقطعناهم فى الأرض أمما** » كان شبه الاسـتعارة وان كان المعنى فى الموضـعين على ازالة الاجتماع ونفيه (٦) •

ويلاحظ أن — التقطيـع — هنـا مستعار لتفريق الجماعة والنثر هنـاك مستعار لتفريق المنهزمين المتسـاقطين فمع أن المستعار له وهـو التفريق فى الموضعين الا أن اللفظ المستعار اختلف فيهما مرة بالقطع ومرة بالنثر • ولعل هذا التنـويع يكمن فى أن اللفظ المسـتعار يطـوى وراءه احساسات ومشاعر هى التى تقود الى اختياره وتفضيله فى موطنه لأداء المعنى المراد من وضعه فى السياق وهذا يؤكد ما سـبق من أن الاستعارة ليست حركات فارغة تنقل بهـا الألفـاظ وانمـا هى خطرات روحيـة ومثيرات نفسـية وراء اللفظ المستعار •

فالنثر يستعار لتفريق المتسـاقطين لأنه تفريق يلاحظ فيـه سرور المـدوح وتمكنه من الأعداء فهو تفريق يقع به الاغتبـاط لأنه فى مقـام المدح •

---

(٦) أسرار البلاغة ١/١٥٢ •

وليس الأمر كذلك فى التفريق الحاصل بالتقطيع فليس فيه سرور وانمـا هو تمزيق لعـلائق الأخوة ووشـائج القربى لقلة الألفـة حتى صـارت كل جمـاعة تؤم خلاف ما تؤمه الأخـرى • ولذلك عبر عنهـم بلفظ — أمما — كمـا قال الزمخشرى فالتقطيـع أبرز هذه المعـانى فى صـورة مجسـدة وكأن ذهابها شىء محسـوس تراه الأعين وتحسـه الأيدى • لأنه فى مقـام العقوبة والقـدح •

ومثل هذه الكلمات الواصفة قوله تعالى : ((**فقـالوا ربنا باعـد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقنـاهم كل ممـزق**)) • فجعل تفرقهم تمزيقا والتمزيق للثـوب فى أصل اللغـة ولكن التفـريق لا يبلغ مبلغـه فى تصـوير المعناة التى لحقتهم وتمزيق شـبكة الـود الواصل بينهم • فخيوط النسـيج عندما تتضام يقوى الثوب ويصـبح ذا فائدة ويقى صاحبه الحر والقر ولكن عندما تتسلط عليه قـوى حداد تمزقه وتذهب قوته وبريقه وفائدته ويصبح أثرا بعد عين • فهذا الفعـل — مزق — ينضخ بكل أبعاده المـادية والنفسـية على هذه الجماعة التى ظلمت نفسـها •

ومنه قول المتنبى :

وتولى بنى اليزيدى بالبصرة حتى تمـزقوا فى البـلاد (٧) •

وتولى بنى اليزيدى أى تولاهم الخلف • وبنو اليزيدى — كتـائب وثبوا بالبصرة واستولوا عليهـا فى خلافة المنصور وأخرجوا ابن رائق • فعظم شـأنهم ثم اختلفوا وذهب ملكهم وخـوى نجمهم • وقد صـور الشـاعر هذا التفرق أبدع تصـوير باستعارته الفعل — تمزقوا — لأنه لم يدل فقط على مجرد التفريق وانمـا دل على صعوبة التفريق والمعاناة النفسـية التى رسـمها الاختلاف بينهم وقد كانوا قبل ذلك كالجسـد الواحد اتحـادا وقوة ووثوبا • يصعب نزع العضو منـه • فكان لفـظ — التمزيق — دالا على هذا التـاريخ الذى تولاهم الخلف فيـه وتأمل لفظ — تولى — وكأن الخلف هو وليهـم ولا شىء يدبر أمـرهم ولا هم يخرجون عن طاعته وهو الجدير بالذكر ولا يتعلـق الغـرض بشىء يذكر

---

(٧) ديوان المتنبى ٢/١٣٥ •

سواه وكذلك لفظ — حتى — التى تطوى وراءها قصـة هذا الخلف الذى ظلوا عاكفين عليـه حتى تفرقوا شر تفرق .

ويدخل فى هذا الاطار الفعل — سبح — كما فى قول سويد :

يسـبح الآل على أعلامهـا

وعلى البيد اذا اليـوم متـع

فالسـباحة . العـوم والحركة فى الماء . اسـتعارها لحركة الآل — السراب — فى الليونة والسهولة وان كانت الحركتان متصلتان بجنس واحد وهو المـاء لأن السراب يلوح كأنه ماء .

وممـا يدخل فى جنس هذه الحركة المشـاهدة اسـتعارة الفعل — يموج — كما فى قوله تعالى : ((**وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ونفخ فى الصـور فجمعناهم جمعـا**)) اسـتعير المـوج للتزاحم والتـدافع والاضطراب اللا نهـائى فى هذا اليوم الموعود وكأن الناس حينئذ فى بحر محيط تتدافع أمواجه وتتكاثف ظلمـاته ولا عاصـم من أمـر الله الا من رحـم .

ومنه قول المتنبى :

وقد خفقت لك الرايات فيـه

فظل يموج بالبيض الحداد (٨)

انه يصـور تكاثف الجيش وتزاحم أسلحته التى تتدافع فيه تدافع الموج فهى مشرعة يلاحظ فيها القـوة والعتو والخـوف الذى يقض مضـاجع الأعداء . فالمـوج هنـا دليل العظمة والاقتـدار والقـوة الغالبة ولكن موج الخلـق فى الآية السـابقة مظهر الحـيرة والـدهش والخوف والرعب .

الضرب الثانى : وعماده أن يكون المسـتعار منه والمسـتعار له من جنسـين مختلفين وذلك (أن الاشتراك ههنا فى صفة توجد فى جنسـين

---

(٨) ديوان المتنبى ٢/ ٨١ .

مختلفين مثل أن جنس الانسان غير جنس الشمس وكذلك جنسه غير جنس الأسد وليس كذلك الطيران وجرى الفرس فانهما جنس واحد بلا شبهة) (٩) •

وهذه الاستعارة التى تجرى بين الأجناس المختلفة فى الأسماء قد مضت أمثلتها فى الحديث عن الاستعارة التصريحية الأصلية فلتراجع هناك وأما الحديث هنا فخاص بالأفعال •

قال الشاعر :

وأقرى المسامع اما نطقت بيانا يقود الحرون الشموسا

فالقرى فى الأصل هو ما يقدم للضيفان — استعارة الشاعر لما يقدم من البيان الساحر •

ومنه قول ذى الرمة :

فأظلت بأجماد الزجاج سواخطا
صياما تغنى تحتهن الصفائح

فالشاعر جعل صوت الحجر تحت الحوافر غناء والبون شاسع بين الصوت الصادر عن الأجسام الصلدة وبين صوت الغناء الرقيق • ولكن النابغة الذبيانى يقرب هذا البعد فيجعل هديل الحمائم غناء فى قوله :

اذا تغنى الحمام الورق ذكرنى
ولو تعزيت عنها أم عمار (١٠)

فصوت الحمائم وهديلها فيه من الرقة والتطريب ما يطرب القلوب ويميل الأسماع وبذلك يقترب من الغناء الذى يثير المشاعر ويراكض أفراس الصبا •

وقد يستعار الفعل الواحد باعتبارين مختلفين فيسلك باعتبار

---

(٩) أسرار البلاغة ١/١٥٥ •
(١٠) ديوان النابغة ١٢٥ •

أحدهمـــا فى الضرب الأول وبالاعتبار الآخر فى الضرب الثانى ومرد ذلك الى المقـــام والغرض من السياق وتلك جماليات التعبير ٠

فالفعل — فاض — وضع فى الأصل لحركة الماء على وجه مخصوص وذلك أن يفـــارق مكانه دفعة فينبســـط ٠ كمـــا ذكـــر عبد القـــاهر وقد استعاره المتنبى فى مقامين مختلفين ٠

أحدهما : فى التعبير عن انبســـاط الفجر وظهـــور شـــعاعه كما فى قوله :

يتراكمون على الأســـنة فى الوغى
كالفجر فاض على نجـــوم الغيهب

وهو بهـــذا الاعتبار يسلك فى الضرب الأول — لأن للفجر انبساطا وحالة شبيهة بانبســـاط الماء فى حركته وفيضه (١١) ٠

ثانيهمـــا : فى التعبير عن الجود وكثرته وفيضه كما فى قوله :

ان فى الموج للغـــريق لعـــــذرا
واضـــحا أن يفـــوته تعـــداده
للنـــــدى الغلب انـــــه فاض
والشعر عمادى وابن العميد عماده(١٢)

انه يعبر عن تقصيره فى تعداد فضـــائل الممدوح وكيف يعدها وهـــو غارق بين أمواجها ٠ فعـــذره واضح ٠ ثم صـــور جوده الغالب بتـــدفق المـــاء حين يفـــارق مكـــانه فينبسط ويمتد الى الجـــوانب ٠ فاســـتعار الفعل — فاض — لكثرة الجود ٠ والعطاء والماء جنســـان مختلفان وبذلك تسلك هذه الاستعارة فى الضرب الثانى ٠

الضرب الثالث : وعمـــاده هذه الجـــوامع العقليـــة التى لا تكـــون متحققه فى الأطراف وانمـــا هى أشياء يدركها العقل ويؤولهـــا الذهن الى

(١١) أسرار البلاغة ١/١٥٠ ٠
(١٢) ديوان المتنبى ٠

شىء يقوم بالمشبه ويكون منه بسبيل • ففى استعارة النور للحجة نجد أن الظهور والانكشاف الذى يحدثه النور أمر يحس ويرى بالعين ورد وجه الشبه بهذا المعنى الحسى الى الحجة لا يستقيم الا على معنى أن القلب يصير فى وضوح الادراك وزوال الشكوك ونفى الريب فى حالة شبيهة بما يحصل للعين من وضوح الرؤية عند سطوع النور وزوال الظلمة وهذا الشبه صورة عقلية تستشف بالفكر والتأمل وطريق التأويل •

ولذلك اعتبر عبد القاهر هذا الضرب هو الصميم الخالص من الاستعارة • ومما يمثل هذا الضرب من الأفعال قوله تعالى : **« فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين »** قال الزمخشرى : (**فاجهر به وأظهره** • يقال • صدع بالحجة اذا تكلم بها جهارا كقولك صرح بها من الصديع وهو الفجر والصدع فى الزجاجة الابانة) (١٣) •

فالصدع مستعار للجهر والابانة • جهرا تتميز به حقائق الدين وتستبين به مناهجه • واذا كان الصدع موضوعا لتمايز الأشياء المحسوسة كالزجاجة والحائط فانه شىء يدرك بالعين ولكن بيان حقائق الرسالة وكشف أغراضها شىء يدرك بالقلب والمعنى الذى تجتمع فيه الأطراف وهو قوة التأثير الذى لا ينمحى أثره انما يتوصل اليه بطريق التأويل •

والفعل — صدع — المرتبط بالدلالة الحسية جسد هذه المعانى المتصلة بالرسالة وأبرزها فى معرض المحسات التى يتناولها الشق والكسر • وأبان عن القوة التى يجب أن يتذرع بها الداعية لمنهج الله حتى يشق حجب الظلام ويحطم ما حوله من قتام وينشر تعاليم الاسلام ويرسخ معانيه فى قلوب الأنام ترسيخا يزيد بمرور الأيام • ولذلك كانت هذه الاستعارة تجسيدا حيا لنضال الرسول ﷺ مع جبهة الكفر الرافضة التى كانت تطوقه بالحديد والنار ومع ذلك لم تلن قناته وصدع بالحق الذى حطم عقائدهم وكشف أباطيلهم وهدم أعرافهم الموروثة وهكذا ينبغى أن يكون مسلك الداعى لمنهج الله

---

(١٣) الكشاف ٢/٣٩٩ •

قوة واخلاصـــا وتفانيـــا ومصراحة واعلانا لأوامر الشرع ومسائل الدين مهما قعـــد له المثبطون بكل ســـبيل يبغونها عـــوجا • ولنـــا فى رســـول الله الأســـوة الحسنة •

صـــور تحليلية للاستعارة فى حدث الفعل :

ونشير الى بعض النمـــاذج التى تظهر من خلالها الدقائق الفنيـــة فى أســـلوب الاستعارة وبخاصـــة الاستعارة القرآنيـــة حيث تكمن وراء اللفظ المســـتعار ملامح جمـــالية لا تظهر الا بالتـــأمل الصـــادق والفكر الدقيق فيمـــا وراء الدلالة المبـــاشرة • وهنـــاك تلوح المعانى الهامســـة وتتولد من جوانب اللفظ غـــلالات شـــفافة كضـــوء الفجر الهـــامس • لا ترمقه الا عيـــون نشـــطت من سباتها • تتحسس مسرى النســـــيم البـــاكر • فليس فيه وهج الشـــمس الذى يعرفه الناس • وليس فيـــه دكنة الليـــل التى تعمى الأشـــياء على الناظرين •

ففى قوله تعـــالى : « **وآية لهم الليل نسلخ منـــه النهـــار فاذا هم مظلمون** » تعبير عن ظاهرة كونيـــة ترى فى كل زمان ومكـــان وهى زوال النهـــار واقبال الليل وقد عبر عن هذا الزوال بالانســـلاخ الـــذى يعنى زوال الجلد عن جسم الحيوان وبسلخ الحيوان يذهب جلده الـــذى كان يحفظ عليه حيـــاته بمـــا عليه من شـــعر ووبر وبمـــا فيـــــه من مراكز الاحســـاس ولذلك جعـــل موطن العـــذاب فى قـــوله تعـــالى : « **كلمـــا نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غـــيرها** » وبزوانه يصـــير الجســـم الى همود وســـكون فلا حركة ولا نشاط ثم ان كشطه عن الجســـم لا يكـــون دفعـــة واحدة وانمـــا يتبدى الجسم من تحته شـــيئا فشـــيئا وبحركة متدرجة لا تكاد تحس حتى ينكشف كاملا وذلك لشـــدة التحـــامه وقـــوة اتصـــاله •

وبالنظر فى المقـــابل وهو زوال النهار نجد أنه زمن الحركة والحس والنشـــاط والسعى الذى يحفـــظ على الانســـان ماء وجهـــه ويقيه ذل الســـؤال وباقبال الليل تسكن الحـــركة ويركن الجســـم الى مضـــجعه وصيرورته الى حالة شبيهة بتلك الحالة التى يكـــون عليها الجســـم الذى كشط عنه جلده فالنهـــار معاش والليل سبات وهذه دلالة واضـــحة على

قدرة الله ورحمته — ومن رحمته جعل لكم الليل لتسكنوا فيــه والنهــار مبصرا — فلم يكن الزمن نهــارا كله ولا ليلا كله وانمــا نهــار وليــل • ليتحرك الانســان حركة نافعــة فى نهــاره ثم بعــد كــلاله يأوى الى فراشه ليجدد نشــاطه ليعــود مرة أخرى وهكذا دواليــك حتى يأتيــه اليقــين •

ثم ان اقبــال الليل عقب النهــار يكون بحــركة خافتــة حثيثــة لا مفاجئة وذلك شأن نزع جلد الحيوان •

وهذا اللفظ المستعار من جهة أخرى قد جمع بين ظاهرتين متباعدتين ظاهرة كونيــة وظاهرة حيــوانية ومــع ذلك ظهرتا على غاية من الاتحاد التام وهذا من أسرار الروعة الجمالية التى تظهر بها المختلفات متفقــات والمتنــافرات متحدات فى ربقة واحدة واذا ظهر الشىء من غير موطنــه كانت النفوس به أعجب واليه أميل •

وأنظر الى هذا اللفظ — الانســلاخ — فى مــوطن آخر فى قــوله تعالى : **« واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغــاوين »** فقد استعير للخروج من دائرة الايمــان وزواله من القلب الى الكفر والضــلال ولا شــك أن الايمــان حياة بل هو الحيــاة الكاملة لأنه يهــذب النفوس فتمضى على فطرها السليمة ونظرها الرشيد الى نور الحق المبين • وبالخروج عن ذلك • تزول من القلب هذه الحيوات ويسير الانســان معطل الادراك • منطفىء البصــيرة • تحجبه ظلمــات الضــلال عن منــارات الحق الراشــدة فيعيش وكأنه ميت فأشــبه من هذه النــاحية الحيــوان الذى فقــد الحس والنفس كمــا أن التــدرج الملحوظ فى فعل الســلخ ملاحظ كذلك فى تلك الحركات المغوية التى ينزلق بهــا الانســان وراء الشيطان • فهو لا يصــد الانســان عن الايمــان دفعــة واحدة وانمــا يستهويه بخطواته خطــوة خطوة أو بتدلياته شيئا فشــيئا كمــا يتدلى الحبــل مثل قــوله تعــالى : **« فدلاهما بغــرور »** وقال تعالى : **« ولا تتبعوا خطوات الشيطان »** •

وبذلك كشفت هــذه الاستعارة الجــوانب المعنــوية والحســية

لوســوسات الشـــيطان واخــراجه الانســان من الايمــان الى لهب النيران • كمـا أوجدت اتحادا بين ظاهرة حيوانية وظاهرة انسانية •

وأنظر الى اللفظ نفســه فى قوله تعالى : « **فاذا انسـلخ الأشـهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ٠٠٠** » فقد استعير لذهاب هذه الأشهر وزوالها وكانت هى المدة التى يكف القتال عنهم فيهـا • فكـانوا يتحركون حركة منطلقة لا تنغيص فيهـا ولا تقييد فكانت بمثابة الحيـاة لهم وبعدها يقاتلون فتضــيق حركتهم وينكمش مســعاهم ويتــوارون عن الأنظـار فيكون وجودهم كلا وجود وحياتهم كلا حياة وكأنهم بهـذا الاعتبار أموات • فكان اللفظ المســتعار — المســلخ — دالا على الحالين جميعا • حياتهم فى الأشهر الحرم وقتالهم بعد زوالها •

ومنه قول المتنبى :

انما يفخر الكريم أبو المســك بما يبتنى من العليــاء
وبأيامه التى انسلخت عنه وما داره سوى الهيجــاء
وبما أثرت صوارمه البيض له فى جماجم الأعـداء(١٤)

فقد اســتعار الســلخ لزوال أيامه التى كان يفتخر بهـا بمـا بنى فيهـا من العليــاء وأذل الأعداء اذ كانت داره هى ساحة الهيجاء وهذه المآثر هى التى تخلد ذكرى الرجال فتجعلهم أحيــاء وان كانوا مــوتى فصـح له أن يســتعير السلخ الذى هو ابطال لشىء كان يموج بالحركة والحيــاة لذهاب هذه الأيام •

وأنتقــل الى حــدث آخر فى قــوله تعــالى : « **قال رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شــيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا** » نجد أن التركيب كله يفــوح بريح الوهن الذى دب فى جسم سيدنا ذكريا باطنـا وظاهرا وتعانقت الظواهر البلاغيــة من حقيقة ومجاز وكناية وغيرها على تجســيد هذا الضــعف •

فقــد دفعه ايمــانه بربه وبخاصة عندما شاهد أعطياته تتنزل على

(١٤) ديوان المتنبى ١٥٧/١ •

مريم في محرابها دون أسباب بشرية الى طلب الولد للحفاظ على ميراث النبوة • وقد بدأ طلبه بهذا النداء الخفي — اذ نادى ربه نداء خفيا — ثم جاءت الآية التالية بصياغتها مفصحة عن حيثيات هذا النداء كاجابة سريعة لتساؤل يثار حول مقول النداء وتعلقت بها عن طريق كمال الاتصال • وكان عليه السلام قد بلغ مبلغا كبيرا في الضعف وقحولة المفاصل وتقلص الحركة ولذلك فهو يهمس بهذا النداء • وحذف حرف النداء — يا — من — رب — تشير الى هذا الهمس الخاطف في تصوير النداء الخفي الذي ينم عن الشيخوخة والهرم ولما كان هذا الضعف قد ألم به باطنا وظاهرا • فقد عبر عن الضعف المستور بالكناية اذ أنها تدور في اللغة حول الستر والخفاء وذلك قوله : **« انى وهن العظم منى »** وقدم لها بهذا التأكيد — انى — الدال على صدق هذا الحكم وأنه ممتلىء النفس والاحساس به وأن الوهن قد شمل كل عظامه ولذلك جاء التعبير بالمفرد — العظم — دون الجمع — العظام — لأن استغراق المفرد أعم وأشمل من استغراق الجمع ثم ربط هذا الوهن به مرة أخرى بقوله : « منى » واذا كان هذا حال العظم وهو أمتن ما في الجسم فغيره من باب أولى أضعف وأوهن وأما ضعفه الظاهر فقد دلل عليه بأبرز شىء وهو شيب شعر الرأس وذلك قوله **« واشتعل الرأس شيبا »** فعبر بالاشتعال عن الشيب وقد وضعت الجملة على أدق ما يكون التصوير • فيلاحظ أولا أن حرف الشين في كلمة — اشتعل — يدل بصوته على تفشى هذا الحدث في المكان بسرعة كما تتضرم النار في الهشيم ثم ان الفعل أسند الى المكان والذى يشيب هو الشعر وذلك يوحى بشمول الحدث للمكان كله • ثم بينت حقيقة هذا الاشتعال بقوله : « شيبا » فكشفت عن المراد ووضحت المقصود من الفعل السابق ونسبته الى الرأس وبذلك تعانق المجازان • اللغوى والعقلى في بيان سرعة الحدث وشموله واستقراره — حتى لم يبق من السواد شىء أو لم يبق منه الا ما لا يعتد به وهذا ما لا يكون اذا قيل اشتعل شيب الرأس أو الشيب في الرأس بل لا يوجب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة (١٥) •

---

(١٥) دلائل الاعجاز ١٣٢ •

والفرق واضح بين هذه الاستعارة التى أبرزت بياض الشيب لامعا قد أتى على الرأس فى شمولية واستقرار وبين هذا التشبيه فى قول الفرزدق .

والشيب ينهض فى الشباب كأنه
ليل يصيح بجانبه نهار

فالشيب هنا ما زال جادا مسرعا فى محاولة محو الشعر الأسود ومحاولته ما زالت مستمرة . يدل على ذلك الفعل — ينهض — فلم يستقر بعد لأن الاستقرار يكون بعد الشيوع والشمول للرأس جملة . فالبياض والسواد فى حركة تفاعلية لمغالبة الأول للثانى وهذه الصورة هى التى تلتئم مع صورة المشبه المكون من الليل والنهار وحركة صائحة من النهار فى أعقاب الليل لاضاءة مكانه . وهنا نقع على مكمن الاعجاز والايجاز لبلاغة الاستعارة . فقد كثف لفظ — اشتعل — معنى السرعة المفادة من صورة المشبه المكون من ثلاث كلمات — والشيب ينهض فى الشباب — وزاد عليها معنى الشمول والاستقرار والبريق واللمعان . وبقى التشبيه بهيئته التركيبية لم يبرح الدلالة الأولى من دلالات الاستعارة المتعددة .

وأما قول الآخر :

لا تعجبى يا سلم من رجل
ضحك المشيب برأسه فبكى

فقد وقف عند نقطة البداية وهى ظهور الشيب واستعار الضحك لظهوره وهو لا يفيد أكثر من وقوعه بصورة جامدة لا حركة فيها . فهذه الاستعارة تمثل البداية لمرحلة الشيب يليها هذا التشبيه المركب السابق الذى انطلق من نقطة البداية فى محاولة سريعة للانتشار والشيوع يثلثهما هذه الاستعارة القرآنية التى شملت تصوير الحدث من بدايته حتى نهايته بتركيز معجز فى كلمة واحدة .

وتأمل قوله تعالى : **« أو من كان ميتا فأحييناه » تجد أن** الاستعارة قد حركت الألفاظ من مجالها الذى وضعت له الى مجال جديد

تتـولد فيه أحداث جديدة • فلم يعد الموت هو إبطال الحـواس وانمـا أصبح له معنى غير متعـارف وهو الضـلال لأن الهـدف من الحيـاة أن يكون الانسـان سوى الفطرة يعرف الحق ويهتـدى اليـه فان لم يكن كذلك كان فى عـداد الموتى • وكأن الضلال اكتسب معنى جـديدا هـو الآخر فلم يعـد هو الحيـدة عن طريق الحق وانما هو المـوت • وكذلك الحياة لم تعد هى الوجود من العدم وانما هى الهداية الى نور الايمان • الحياة أصبح لهـا معنى غير متعـارف بين النـاس • ليست هى حيـاة المطعم والمشرب وانمـا هى حياة القلوب والأرواح •

وقد أحكم التصوير بالربط بين الموت والحيـاة بالطبـاق البـديع لأن الانسـان لا يخلو من التلبس بواحد منهمـا اما الموت واما الحيـاة وكذلك لا يخلو فى رحلته من الضـلال والهـداية • وفى جعله الضـلال موتا اشـارة الى وجوب توقى الأسـباب التى تنزلق بالأقدام الى دائرة الضـلال كمـا يتـوقى الانسـان أسـباب التردى فى المهـالك • وفى جعله الهـداية حيـاة اشـارة الى حفز النفس على وجـوب التخلص من نزعات الشيطان والمسارعة الى الاعتصام بحبل الله والحرص على منهجه حرصه على الحياة • وبذلك ترسـخ هـذه الاسـتعارة فى النفس النفرة من الضلال واعتناق الهداية •

وتأمل لفظتى الحياة والموت مرة ثانية فى قوله تعالى : ((**وآية لهـم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون**)) تجد أن التصوير بالاستعارة دفع اللفظتين دفعـة أخرى من حيـز الانسـان الى حيـز الجمـاد • فجعل تجرد الأرض من مظاهر الانبات والخصوبة موتا كمـا جعـل الخضرة والنضرة التى يظهرها الله عز وجـل فيهـا من النبـات والأنوار والأزهار حياة لهـا • فالموت له هنـا معنى جديد وهو اقفـار الأرض من مظاهر الانبات وكذلك الحياة لها معنى جـديد وهـو النضرة والخصوبة وعجائب الصنع • وقد تولدت هذه المعانى الجديدة من حركة اللفظ المستعار فى السياقات المختلفة وهو فى كل موطن يشع البريق الدال على الغرض المقصـود •

ولعلى أكون بعـــد هذه الجولة المتواضـــعة قد كشفت اللثـــام عن قول عبد القـــاهر فى شأن الاستعارة (ومن الفضيلة الجامعة فيها أنهـــا تبرز هذا البيـــان فى صورة مستجدة تزيده قدرا ونبلا وتوجب له بعـــد الفضـــل فضـــلا وانك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد حتى تراها مكررة فى مواضـــع ولها فى كل واحد من تلك المواضع شـــأن مفرد وشرف منفرد وفضيلة مرموقة وخلابة مومو قة)(١٦) ٠

(١٦) أسرار البلاغة ١/١٣٧ ٠



ثانيـا — استعارة الفعل باعتبار الزمن :

ان هذا النوع من الاستعارة تولد من النظـرة المزدوجة الى دلالة الفعل — الحدث • والزمن • وقد اعتبرهما السـيد من باب الاسـتعارة بقوله (واعلم أن التعبير عن الماضى بالمضـارع وعكسـه يعـد من باب الاستعارة بأن يشبه غير الحاصل بالحاصـل فى تحقق الوقـوع ويشـبه الماضى بالحاضر فى كونه نصب العين واجب المشـاهدة ثم يستعار لفـظ أحدهمـا للآخر فعلى هذا يكون الاستعارة فى الفعل على قسمين :

أحدهمـا : أن يشبه الضرب الشديد مثـلا بالقتـل ويسـتعار له اسمه ثم يشتق منه قتل بمعنى ضرب ضربا شديدا •

والثانى : أن يشبه الضرب فى المستقبل بالضرب فى الماضى مثـلا فى تحقق الوقوع فيستعمل فيه ضرب فيكون المعنى المصـدرى أعنى الضرب موجودا فى كل واحد من المشبه والمشبه به لكنه قيـد فى كل واحد منهمـا بقيـد مغاير لقيد الآخر فيصح التشبيه لذلك) (١) •

ويلاحظ أنه اعتبر هذا اللون من التعبير المتحد حـدثا والمختلف زمنا من باب الاسـتعارة التبعيـة مخالفـا ما ذهب اليـه البعض من أنه من باب المجـاز المرسل الذى علاقته الاطلاق والتقييد أو المجاورة (٢) •

أو من باب الالتفـات فقد عمم العلوى حده بقوله (هو العدول من أسلوب فى الكلام الى أسلوب آخر مخالف للأول وهذا أحسن من قولنـا هو العـدول من غيبة الى خطاب ومن خطاب الى غيبة لأن الأول يعـم سـائر الالتفاتات كلهـا والحد الثانى انمـا هو مقصـور على الغيبـة والخطاب لا غـير ولا شـك أن الالتفـات قد يكـون من المـاضى الى

---

(١) حاشـية السيد على المطول ٣٧٥ •
(٢) ينظر حاشية الانبابى ٣٥٧ •

المضـــارع وقد يكون على عكس ذلك) (٣) ٠

كمـــا أنه أشـــار الى أن المعتمد فى استعارة الفعـــل باعتبار الزمن ليس هو الزمن المجرد وانمـــا هو المصـــدر المقيـــد بالزمن ٠ وعلى الرغم من أن الحدث واحد فى المشبه والمشبه به الا أنه لمـــا قيدا بقيدين مختلفين فكأنه حدث مغاير للآخر نظرا لارتباط الحدث بالزمن وحلوله فيـــه ولذلك صح التشبيه من هذه الزاوية ٠

وقد ذهب مذهب الجمهور فى كون استعارة الفعل باعتبار الحـــدث تابعة لاستعارة مصـــدره وذهب مذهب العصـــام فى اســـتعارة الفعـــل باعتبار الزمن فى كون استعارته تابعة لتشبيه سابق ٠

قال الصـــبان (وان شـــئنا نعتبر مجرد تشـــبيه أحدهمـــا بالآخر وسريان التشبيه الى القتل فى المستقبل وانقتل فى الماضى الجزئيين اللذين فى ضمنى قتل ويقتل فنســـتعير بناء على هذا التشبيه الحاصـــل بالسراية قتل لمعنى يقتـــل ٠ وعلى هذا العصام وموافقوه وكلام السيد ظاهر فيه لأنه رتب استعارة ضرب لنضرب فى المستقبل على مجرد التشبيه وهـــذا ظاهر فى أن استعارة الفعل باعتبار هيئتـــه من حيث دلالتهـــا على الزمان ليست تابعـــة لاستعارة المصدر المقيـــد ٠٠٠٠ وانمـــا كان الأمـــر كذلك لأن استعارة المصـــدر انمـــا هى لأجل الاشـــتقاق منه والاشـــتقاق لم يحصل الا من لفظ الضرب لا من مجموع الضرب فى الماضى ولفظ الضرب يصـــدق على الضرب فى المستقبل والضرب فى المـــاضى صـــدق كلى على جزئياته فهـــو حقيقة فيهمـــا والتجوز انمـــا هو فى قيده مع أن هذا القيد لم يشـــتق منه) (٤) ٠

فاستعارة المصـــدر فى الحدث أولا تكون مجدية حيث يترتب عليهـــا اشتقاق الفعل منـــه ولكن فى استعارة الفعل باعتبار الزمن فان الحـــدث واحد والتجوز انمـــا هو فى هذا القيـــد أو الزمن فهـــو أســـاس هـــذه الاســـتعارة فليست هنـــاك حاجة لاســـتعارة المصـــدر المقيـــد بالزمن والاشتقاق منه ولكن يكفى التشبيه الذى تنبنى عليه الاستعارة ٠

---

(٣) الطراز ٢/١٣٢ ٠

(٤) الرسالة البيانية وحاشية الانبابى ٣٦٢ وما بعدها ٠

ولذلك فرق السيد بينهما فى الأصل المتبوع من هذه الزاوية وهى الحاجة الى الاشتقاق وعدمه •

وهناك من ركز على الزمن وحده لأنه يمثل جهة الاختلاف • فيجرى التشبيه فى الزمانين المطلقين فيسرى فى جزئيهما ثم يستعير بناء على هذا التشبيه الحاصل بالسراية لفظ الماضى للمضارع أو المضارع للماضى •

كما فى قوله تعالى : **« ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار ... »** •

فنشبه مطلق الزمان المستقبل بمطلق الزمان الماضى فى تحقق الوقوع فيسرى التشبيه الى الزمانين الجزئيين اللذين فى ضمنى — نادى وينادى فنستعير بناء على هذا التشبيه الحاصل بالسراية — نادى — لـ — ينادى فيتحصل من ذلك أن استعارة الفعل باعتبار الزمن تكون تابعة اما :

١ — لتشبيه فى المصدر المقيد بالزمن أو للاستعارة فيه •

٢ — لتشبيه فى مطلق الزمن •

وأشير الى أوجه هذه الاستعارة :

أ — التعبير بالماضى عن المضارع :

يدل الفعل الماضى بطبيعته الأصلية على أن حدثا قد وقع فى الزمن الماضى وفرغ منه ولم يعد هناك شك فى امكان وقوعه • ولذلك كانت استعارته للمضارع الذى سيقع أبلغ وأكد وأعظم موقعا فى النفس لدلالته على تحقيق الوقوع وكينونة الأحداث بما فيها من رغبة ورهبة وفرح وترح وغير ذلك من الأمور التى يلتقط الماضى مشاهدها من المستقبل القريب أو البعيد فيطوى هذا الزمن القصى طيا دانيا تظهر أحداثه ظهورا ما ضويا يعيشه الانسان تاريخا ينفعل به ويتأثر ويطرح عن نفسه الشك فى امكان الوقوع بل يعيش الوقوع وأثره على نفسه •

وهذا النوع من التعبير أكثر وضوحا فى القرآن الكريم لأنه كلام من عنده علم الغيب فما سيكون فى حكم ما كان وتحقق وبخاصة فى

مشـــاهد القيـــامة كالنفـــخ والحشر والعرض والحوار بين المستكبرين وأتبـــاعهم وســـوق المؤمنين والكافرين • وغير ذلك • يقـــول الدكتـــور محمد أبو موسى : (والقرآن الكريم يعرض كثيرا من مشـــاهد القيـــامة فى صـــورة الماضى وكأنهـــا أحداث قد وقعت وذلك ليؤكد كينونتهـــا وأن زمن الدنيـــا فى حساب الحق كأنه زمن قد انتهى ليواجه بهـــذا الأسلوب الحاسم دواعى الانصراف عن أمر القيامة)(٥) •

ومنه قوله تعالى : ((**ويوم نســـير الجبـــال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا • وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمـــونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم ألن نجعل لكم موعدا • ووضـــع الكتـــاب فترى المجرمين مشفقين ممـــا فيه ويقولون يا ويلتنا مال هـــذا الكتـــاب لا يغادر صـــغيرة ولا كبـــيرة الا أحصـــاها ووجـــدوا ما عملـــوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا**)) •

وقال : ((**وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ونفـــخ فى الصـــور فجمعنـــاهم جمعـــا وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا**)) (٦) •

فهذه الآيات قد طوت الزمن المتراحب بين الدنيا والآخرة • فبعـــد أن ذكرت الآيات الســـابقة صـــور الدنيـــا الزاهية واقبـــالها وسرعة فنائها جاءت هـــذه الآيات لتصور هذه الأحداث المستقبلة فى يوم القيامة بهذه الصياغة الماضـــية — حشرناهم — عرضـــوا — وضع الكتـــاب — ووجدوا — ونفـــخ — وذلك ليؤكد وقوعها وأنها كائنة لا محـــالة وما على الانســـان الا أن يفكر فى موقعه من هذه الأحداث لا فى امكانها فهـــو أمر مفروغ منه•فلا ينبغى أن يرتع ويلعب فىالدنيا ومظاهرها من المالوالبنين وانمـــا عليه أن يكبـــح جمـــاح نفسه ليفوز بالباقيات الصـــالحات فهى خير ثوابا وخير عقبـــا •

وقال تعالى((**ونفـــخ فى الصور فصعق من فى الســـموات ومن فى الأرض الا من شاء الله ثم نفخ فيـــه أخرى فاذا هم قيـــام ينظـــرون** •

---

(٥) خصـائص التراكيب ٢٠٨ •
(٦) ســورة الكهف ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٩٩ •

وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون • ووفيت كل نفس بما عملت وهو أعلم بما يفعلون وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا حتى اذا جاؤها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا • قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين • قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى اذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوؤ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين • وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين » (٧) •

ان كثيرا من أفعال هذا الموقف المستقبلى صيغت صياغة ماضية مثل نفخ وصعق وأشرقت وضع وجيء وقضى وفيت وسيق وجاؤها وفتحت وقال وقيل وقالوا وأورثنا •••••• وذلك ليتجاوز الانسان أمر امكانها الى الأحداث نفسها فيعيش هذا المشهد المتكامل ويفكر فى أمر النفخ الأول الذى يخر له من فى الكون مغشيا عليه والنفخ الثانى الذى يقوم فيه الناس ناظرين هنا وهناك وما توحى به كلمة — قيام — من الحركة والاستعداد واجالة النظر فى الموقف الرهيب ولذلك كانت أدل على هذا المعنى من كلمة الوقوف مثلا التى تعنى السكون والجمود • وكيف يتأتى الجمود فى هذا اليوم الذى تنكشف فيه مسارب الضلال وينتصر الحق بنور العدل الذى يزين الأرض وذلك معنى قوله — وأشرقت الأرض بنور ربها — ويوضع الكتاب الذى هو رمز الحساب والجزاء ويجيء دور الشهداء على الأمم وتصدر كلمة الفصل بالحق وتوفى كل نفس عملها ثم ينقسم الموقف الى قسمين • فريق يساق الى جهنم سوقا محفوفا بالاهانة والتصايح والتوبيخ حتى اذا جاؤوها فتحت أبوابها وكأنها كالسجن الذى يظل مغلقا ولا يفتح أبوابه الا عند استقبال المجرمين • وفريق يساق الى الجنة سوقا محفوفا بالاكرام والتعظيم حتى اذا جاؤوها وفتحت أبوابها وكأنها

(٧) سورة الزمر ٦٨ — ٧٥ •

كالدار التى أعدت للضيف الكريم • توضع فرشها وتفتح أبوابها وتهيأ لاستقباله قبل مجيئه ولذلك خولف بين الصياغتين فقال فى شأن دار المتقين وفتحت وحذف جواب — اذا — للدلالة على ما لهم من الكرامة والحفاوة ما لا يحيط به الوصف ولا يحتمله التعبير • ثم ينتهون إلى أماكنهم ويتصرفون فيها تصرف الوارث فيما يرثه ويحمدون الله على فضله وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين •

٢ — التعبير بالمضارع عن الماضى :

والفعل المضارع يدل بطبيعته على وقوع الحدث فى الزمن الحالى • فصيغته من أقدر الصيغ على تصوير الأحداث واحضارها وكأنها ترى بالعين ، وقد — قصدت العرب بالاخبار عن الفعل الماضى بالمستقبل لأن الاخبار بالفعل المضارع اذا أتى به فى حالة الاخبار عن وجود كان ذلك أبلغ من الاخبار بالفعل الماضى وذلك لأن الفعل المضارع يوضح الحال التى يقع فيها ويستحضر تلك الصورة حتى كأن السامع يشاهدها (٨) •

والانسان يستحضر الأمور العجيبة والمواقف الصعبة التى مرت فى الماضى وذلك لأن المضارع مما يدل على الحال الحاضر الذى من شأنه أن يشاهد كأنه يستحضر بلفظ المضارع تلك الصورة ليشاهدها السامعون ولا يفعل ذلك الا فى أمر يهتم بمشاهدته لغرابة أو فظاعة أو نحو ذلك (٩) •

ولذلك كان الاستحضار خاصا بالأحداث الماضية وذهب بعضهم الى أن الاستحضار قد يكون للمضارع كذلك لكن قيل — ان استحضار المستقبل لم يوجد فى كلامهم بل هو مختص بالماضى (١٠) •

والمضارع المعبر به عن الماضى اما أن يدل على حكاية الحال الماضية واستحضار الصورة كما فى قوله تعالى : ((**كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون**)) •قال الزمخشرى :

---

(٨) الفوائد المشوق ٣٣ •

(٩) المطول ١٧٣ •

(١٠) شروح التلخيص ٢/٩٠ •

فان قلت لم جيء بأحد الفعلين ماضـيا وبالآخر مضارعا ؟ قلت • جيء • يقتلون على حكاية الحال الماضـية استفظاعا للقتـل واسـتحضارا لتلك الحال الشنيعة للتعجب منها) (١١) •

ومنه قول تأبط شرا فى حديثه عن لقائه الغول :

فأضربها بلا دهش فخـــرت
صريعـا لليدين وللجـــران

فهـو ينقل لنـا مشهد لقائه الغول وضربه اياها • فعدل عن الماضى الى المضارع فى قوله — فأضربها — لاستحضار تلك الحالة العجيبة التى تشجع فيهـا على ضرب الغـول وصرعهـا ليشـاهد قـومه شـجاعته الفائقة •

واما أن يدل على الاستمرار كما فى قوله تعالى : « **الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون** » • فان قلت : هلا قيـل الله مسـتهزئ بهم ليكون طبقـا لقوله : « **انما نحن مستهزئون** » قلت : لأن يستهزئ يفيـد حدوث الاستهزاء وتجدده وقتا بعد وقت • ويعلـق السـيد على كـلام الزمخشرى قائلا : (أما افادته الحدث والتجدد فلكونه فعـلا وأما كون ذلك وقتـا بعـد وقت فلأن المضـارع لما كان دالا على الزمان المستقبل الذى ينقلب حالا شيئا بعـد شيء على الاستمرار ناسب أن يقصد به اذا وقع موقع غـيره أن معنى مصـدره المقـارن لذلك الزمان يحـدث على منواله مستمرا استمرارا تجدديا لا ثبوتيا كما فى الجملة الاسمية) (١٢) •

وهكذا تفعل هذه الصـيغ فعلها فتثير الخواطر وتحرك المشـاعر • الماضى يستل الحدث من الزمن المستقبل وكأنه قد وقع وثبت والمضـارع يعيـد شريط ما وقع وكأن العين تراه • وبذلك تكون اللغة الفنية العالية • عندما تنفلت عن مجاريها الأصلية وتتبادل الصيغ أمكنتها الطبيعية •

---

(١١) الكشاف •
(١٢) الكشـاف وحاشية السـيد عليه ١٨٨/١ •

٣ — أثر التقييد بالشرط فى توجيه زمن الفعل :

سنتناول هذا الموضـــوع من خلال أدوات الشرط الثـــلاث — ان — اذا — لو — فكل أداة لها ارتباط بمدلول فعلى معين وقد يأتى استخدامها على غير هذا الخصـــوص الوضعى فتكون النطـــائف البلاغيـــة والدقائق الأسلوبية وسحر البيـــان وراء هذه الاستخدامات ٠

وهذه الأدوات يجمعها معنى الشرط الا أن لكل منها وجهة فى أصـــل الاستعمال فكل من — ان — و — اذا للشرط فى المســـتقبل والشرط يعنى تعليق أمر بغيره أى تعليق حصول انجـــزاء على حصـــول الشرط وهـــذا يستدعى أن يكون الجواب والشرط غير ثابتين لأنه ينافى التعليق فان قلت: ان تكرمنى أكرمك فاكرامك معلق على اكرامه ٠ فالفعـــلان غـــير حاصلين الآن وانمـــا يحدث فى المستقبل ٠ ولمـــا كان الفعل يدل بأصـــل وضـــعه على الحدوث والتجدد كان هو المنـــاسب للشرط ٠ بخلاف الاســـم الذى يدل بأصل وضـــعه على الثبوت ٠ والثبوت ينافى التعليـــق ٠ فاذا كانا — أى ان واذا — بهـــذه المثابة أى للشرط فى الاستقبال ٠ امتنع فى جملتيهما أن تكونا ماضيتين لفظـــا ومعنى ٠

قال الخطيب : (واعلم أنه لمـــا كانت هاتان الكلمتـــان لتعليـــق أمر بغيره أعنى الجزاء بالشرط فى الاستقبال امتنع فى كل واحدة من جملتيها الثبوت وفى أفعالهمـــا المضى) (١٣) ٠

وقال السكاكى : (أما ان فهى للشرط فى الاستقبال والأصـــل فيهـــا الخلو عن الجزم بوقوع الشرط ٠٠٠٠ واذا للشرط فى الاستقبال والأصل فيها القطع بوقوع الشرط)(١٤) ٠

وقال الزمخشرى فارقا بين — ان — و — لو — (أن — ان — تجعل الفعـــل للاســـتقبال وان كان ماضـــيا ولـــو تجعله للمضى وان كان مستقبلا)(١٥) ٠

---

(١٣) بغية الايضاح ٠
(١٤) مفتـــاح العلوم ١١٥ ٠
(١٥) شرح المفصل ٨/١٥٥ ٠

وقال التفتازانى (ولو للشرط أى لتعليق حصول مضـــمون الجزاء لحصول مضمون الشرط فرضـــا فى الماضى مع القطع بانتفاء الشرط فيلزم انتفاء الجزاء كمـــا تقول • لو جئتنى لأكـــرمتك معلقـــا الاكرام بالمجىء مع القطع بانتفائه • فيلزم انتفـــاء الاكرام • فهى لامتناع الثانى أعنى الجزاء لامتنـــاع الأول أعنى الشرط) (١٦) •

وبذلك يتضح أن الأصل فى استخدام هـــذه الأدوات اختصـــاصها بالفعل عموما • غير أن — ان واذا • تختصـــان بالفعل المضـــارع وتنفرد اذا بالقطع بوقوعه وتنفرد ان بعـــدم الجزم بوقوعه • وتختص لو بالفعل الماضى وتنفرد بدلالتها على القطع بانتفائه •

وهذه الأصول واضحة فى قوله تعالى : ((**وهو على جمعهم اذا يشاء قدير**)) وقوله : ((**ان يشـــأ يذهبكم ويأت بخلـــق جـــديد**)) وقـــوله : (**لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا**) •

وقول الشـــاعر :

فزحلفهـــا بأزفلهـــا اليـــه
أمـــير المـــؤمنين اذا تشـــاء

فالمضـــارع والماضى فى ظلال هذه الأدوات جاء على طريق الأصـــل فى التعبير •

ويلاحظ أن القطـــع وعدمه فى وجود الفعل انمـــا هو بالنظـــر لمن يجوز عليه الشـــك كمـــا فى المخاطبـــات البشرية ولذلك قال الســـعد (المراد بالقطع أو الاحتمـــال بالنظـــر الى حال الشىء فى نفســـه وفرض الكلام مقولا على لســـان من يجوز عليه الشك أو التردد والا فبالنظر الى علم الله تعالى ليس الا القطع بالوقوع أو اللا وقوع)(١٧) •

---

(١٦) المطـول ١٦٦ •
(١٧) حاشـية السعد على القسم الثالث من المفتاح ٣٦٠ •

خروج هذه الأدوات عن هذا الأصـــل :

علم مما سبق أن — اذا — تدل على الأمــر المقطــوع بوقــوعه والماضى كذلك يدل على تحقق الوقوع • ولذلك وجدنا الأمور المســتقبلة المقطــوع بوقوعها تأتى فى حيز — اذا — بلفظ الماضى وان كان بالنظــر الى المعنى على الاستقبال — لأن — اذا — الشرطية تقلب المــاضى الى معنى المستقبل مثل — ان —) (١٨) •

كمـــا فى قوله تعالى : **« اذا وقعت الواقعة »** وقوله : **« ثم اذا أنشاء أنشره »** فهذه الأحداث لمـــا كان مقطوعا بوقوعها لصدورها عمن لا خلاف فى اخباره ســيقت فى قالبين من قوالب التحقيق والقطــع وهمـــا — اذا والماضى ولكنه نقل من ناحيـــة أخرى الى المستقبل من جهـــة المعنى لأن — اذا — ظرف لما يستقبل من الزمان •

وقال تعـــالى : **« يا أيها الذين آمنـــوا اذا نودى للصـــلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون • فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضـــل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون • واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها وتركوك قائما قل ما عنــــد الله خـــير من اللهـــو ومن التجارة والله خـــير الرازقين » (١٩) •**

نجد أن — اذا — دخلت على الأفعال — نودى — قضيت — رأوا — وهى أفعال ماضـــية لكنهـــا فى الأولين ماضـــية لفظـــا لا معنى بدليـــل ما بعدهمـــا من الأوامر — اسـعوا — ذروا وغير ذلك • وفى الثـــالث — رأوا — ماضى لفظـــا ومعنى •

وبذلك يكون فى الفعلين الأولين تجوز بالاستعارة التبعيـــة فى زمن الفعل وهو العـــدول عن المضـــارع الى الماضى •

وأما قوله — واذا رأوا ••• فالفعل ماضى لفظـــا ومعنى لأن الآية

---

(١٨) المطول ١٥٤ •

(١٩) سورة الجمعة ٩ — ١١ •

نزلت بعـــد وقوع حادثتها وهى أن تجـــارة قدمت المدينـــة والرســـول ﷺ يخطب فهرع أكثر الجالســـين الا القليل منهم الى التجـــارة وتركوا النبى قائمـــا يخطب .

فموطن التجوز اما أن نجعله فى الأداة — اذا — واما أن يكـــون فى الفعـــل نفســـه .

وذلك بأن نشبه مطلـــق ظرف ماضى بمطلـــق ظرف حـــال بجامع استحضار الصـــورة فى كل ثم يسرى التشبيه من الكليين إلى الجزئيين . فنستعير بنـــاء على هذا التشبيه الحاصل بالسراية الظـــرف الموضـــوع للمستقبل وهو اذا للظرف الموضوع للماضى وهو اذ .

وإما أن نشبه الرؤية فى الماضى بالرؤية فى الحال بجـــامع استحضار الصـــورة ثم استعير الرؤية فى الحال للـــرؤية فى الماضى واشـــتق منه — يرون — وكان هذا المضـــارع هو المنـــاسب للتعبير ولكنه حـــذف ورمز اليه بشىء من لوازمه وهو — اذا — وذلك على ســـبيل التبعيـــة فى زمن الفعل والمكنيـــة فى حذف الفعل الأساسى الجدير بايلاء الأداة والرمز بها اليـــه .

ومنه قول الشـــاعر :

ونديمـــان يزيد الكـــأس طيبـــا

ســـقيت اذا تغـــورت النجـــوم

وقال شـــوقى :

فاذا سخوت بلغت بالجـــود المدى

وفعلت ما لا تفعـــــل الأنـــواء

واذا عفـــوت فقادرا ومقـــدرا

لا يستهين بعفـــوك الجهـــــلاء

واذا رحمـــــت فأنت أم أو أب

هـــذان فى الدنيا همـــا الرحمـــاء

وإذا غضبت فإنمـا هي غضبـة
في الحق لا ضغن ولا بغضاء(٢٠)

فكل هذه الأحداث التي ذكرت في حيز — إذا — صيغت صياغة ماضية ولكنها برزت في معرض المضارع والتجوز فيها على غرار ما سبق في وإذا رأوا تجارة ...

ومعلوم أن الغرض هو استحضار الصورة ولكن مواقف الاستحضار مختلفة . فالاستحضار في الآية وإذا رأوا — لهذا الموقف المشين الذي صنعه هؤلاء الماديون مع رسولنا ﷺ . وتوبيخهم على هذا المسلك الذي تركوا فيه تجارة الأرواح الى تجارة الأجساد وقد وجه إليهم هذا التوبيخ والتقريع بالالتفات بطريق الغيبة لتبعيدهم عن شرف المخاطبة وعز الحضور . وفي هذا تنفير لمن يحذو حذوهم فيترك منهج الله وراءه ظهريا .

والاستحضار في — إذا تغورت النجوم — لهذا المجلس الحالم الذي يضم الندماء في أوقات السحر حيث تدار الكؤوس وتترنح الرؤوس وتتراقص النفوس .

والاستحضار في أبيات شوقي لهذه المعاني السامية التي انفعل بها وصاغها شعرا ليستحضرها المسلمون ويعيشوا بها واقعا في حياتهم فيكون لهم بها في كل لحظة احتفال بنبيهم .

وأما — إن — فقد علمنا أنها خاصة بالمضارع فإذا جاء بعدها ماضيا قلبته مستقبلا ما عدا — كان — فقد ذهب البعض الى أنها متمحضة للدلالة على المضي (وقد نص المبرد والزجاج على أن — إن — لا تقلب كان الى معنى الاستقبال وذكر كثير من النحاة أنه إذا أريد إبقاء معنى الماضي مع إن جعل الشرط لفظ كان نحو قوله تعالى : « **إن كنت قلته فقد علمته** » « **وإن كان قميصه قد من قبل** » وذلك لقوة دلالة كان على المضي لتمحضها له لأن الحدث المطلق الذي هو مدلوله مستفاد

---

(٢٠) الشوقيات ١/٣٦ .

من الخبر فلا يستفاد منـــه الا الزمان الماضى ولذا ذكر صاحب الكشاف فى قوله تعالى : **«وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى »** انه يجـــوز أن يراد وان كان الشيطان ينسينك قبل النهى قبـــح مجالســـة المستهزئين لأنه ممـــا ينكره العقول فلا تقعـــد بعد أن ذكرناك قبحهـــا فلمـــا أراد جعل الشرط ماضـــيا قدر كان ليستقيم المعنى)(٢١) .

واذا كان السـعد يرى أن الزمخشرى ســـار على رأى المبـــرد فى تخريج آية الأنعـــام فانه انتحى منحى آخر فى تخريج آية يوســـف — أن كان قميصـــه .. قال (كيف جاز الجمع بين ان الذى هو للاســـتقبال وبين كان ؟ قلت لأن المعنى أنه يعلم ان كان قميصه قد ونحوه قولك . ان أحسنت الى فقد أحسنت اليك من قبل لمن يمتن عليك باحســـانه تريد ان تمتن على أمتن عليك) (٢٢) .

فالماضى عبر به عن المضـــارع على سبيل الاستعارة الزمنية .

وعلى ذلك اذا جاء بعدها ماضى لفظـــا فانه يكـــون من باب التعبير بالماضى عن المضـــارع لابراز غير الحاصل فى صـــورة الحاصـــل لهـــذه الأمور :

١ — قوة الأسباب التى يترتب عليهـــا وجود الشىء فيعبر عنـــه بمـــا يبرزه فى صـــورة الحاصل وهو الماضى الدال على تحقق الـــوقوع كمـــا يقال عند انعقـــاد أسباب الاشتراء . ان اشتريت كذا كان كـــذا .

٢ — أن يكون المعنى الاستقبالى من شـــأنه الوقوع فيعبر عنـــه كالواقع كقـــولك ان مت كان كذا وكذا .

٣ — التفـــاؤل واظهار الرغبة فى وقوعه مثل : ان ظفـــرت بحســـن العاقبة فهو المرام لأن النفس اذا رغبت فى شىء كثر لديها تصوره وربمـــا تخيلته واقعـــا فتعبر عنـــه بالماضى كما فى قوله تعـــالى : **« ولا تكرهوا فتياتكم على البغضاء ان أردن تحصـــنا »** فعبر بالمـــاضى — أردن — عن

---

(٢١) المطول ١٥٨ .
(٢٢) الكشـــاف ٣١٤/٢ .

المضـــارع — يردن — لاظهار الرغبة فى الوقوع • وأما استخدام ان — دون — اذا — فلأنه كان بمثابة الفعل النـــادر •

وقد يظهر ما بعدها فى معرض الحاصل على سبيل الفرض والتقدير على جهـــة التعريض بمن صدر منه الفعـــل كمـــا فى قـــوله تعـــالى : ((**لئن أشركت ليحبطن عملك**)) فالمخـــاطب بذلك سيدنا رســـول الله ﷺ ويستحيل وقوع الاشراك منه وانمـــا هو تعريض بمن وقع منـــه وهـــو يحمل على توبيخ الكفـــار على أعمـــالهم التى تمـــوت حبطـــا كالأنعـــام التى تنفق فى الربيع ولا تنـــال من رتوعها فى المـــأكل والمشرب الا مرارة الألم وازهاق وقد نسب ذلك اليهـــم على أبلغ وجـــه • فاذا كان اشراك المعصـــوم يحبط عمله فما بالك بأعمـــالهم ؟

وقد ألقى لهم ذلك بالتعريض دون الخطاب المباشر تبعيدا لهـــم عن أهلية المخاطبـــة •

وهل التعريض هنـــا لازم للفعل الماضى دون المضـــــارع ؟ ذهب الســـكاكى الى الأول ولكنه لم يسلم من المناقشات • وخلاصـــة القول فى ذلك أن التعريض • هو نسبة الفعل الى من لا يقع منه والمراد غيره وهذا المعنى حاصـــل سواء كان الفعل ماضـــيا أو مضـــارعا • فلو قيل — لئن تشرك لتحقق معنى التعريض أيضـــا (٢٣) •

وقد يكون ما بعدها مقطوعا بوجوده فينزل حينئـــذ منزلة الأمـــر المفروض كمـــا يفرض المحال أو ينزل منزلة غير الحاصل اثارة وتهيجـــا لكمـــاله •

فمن الأول قوله تعالى : ((**أفنضرب عنكم الذكر صفحا ان كنتم قوما مسرفين**)) على قراءة كسر همزة — ان — فان كونهم مسرفين أمر مقطوع به و — ان — خاصـــة بالحكم المحتمل لوقوعة وعدمه فكأن شـــبه القطعى الحصول بالمشـــكوك فيه لقصـــد التوبيخ والتقريع على هـــذا المســـلك الذى لا ينبغى أن يكون الا على سبيل الفرض والتقدير لوجود ما يقلعه من أصله •

---

(٢٣) ينظر شروح التلخيص ٢/٦٤ •

ومن الثانى قوله تعالى : « **وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين** » فالمخاطبون بذلك هم مؤمنو بدر وايمانهم مقطـوع بالحصـــول ولكن الغرض من أيقاع المــاضى بعـــد — ان — أى مــوقع المضـــارع الذى لا يجزم بوقوعه لاثارة مشــاعرهم وتهيجا لنفوسهم والهابا لأرواحهـــم فى بلوغ الكمــال الايمــانى ٠

وأما — لو — فتخرج عن حقيقة الاستخدام الســابق وهو الماضى لفظــا ومعنى الى هذه المواطن :

أولا : أن يليها المضــارع لفظــا كمــا فى قوله تعالى : « **واعلمــوا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم** » فاذا كان الاســـم يفيد الاستمرار الثبوتى فان الفعل المضــارع يفيد الاستمرار التجددى فاذا وقع بعــد — لو — وهى حرف امتنــاع أفاد امتنــاع الاســـتمرار وهو ما اختاره ســعد الدين ٠

فوضـــع المضارع — يطيعكم — موضع الماضى — أطاعكم — لقصد اســـتمرار الفعل فيمــا مضى وقتــا بعد وقت ٠ ليفيـــد أن رســـول الله لو كان كلمــا عن لكم أمر واستصوبتموه أطاعكم فيـــه لأصــابكم العنت والهــلاك (٢٤) ٠

ثانيــا : أن يليها المضــارع لفظــا ومعنى كمــا فى قوله تعــالى : « **ولو ترى اذ وقفــوا على النــار — ولو ترى اذ المجرمــون ناكســوا رؤوســهم عند ربهم — ولو ترى اذ الظالمــون موقوفون عنـــد ربهم** » ٠ فهذه الرؤية من مشــاهد القيــامة المستقبلة وكان الأصل مع — لــو — الفعل الماضى ولكنه عدل عنـــه الى المضــارع تشبيها له بالماضى فى تحقق الوقـــوع ٠

وليس هنـــاك تناقض بين تحقق الوقوع وبين الامتنـــاع الذى تدل عليه — لو — لأن الامتنـــاع باعتبار الاســـناد الى المخــاطب والتحقـــق باعتبار أصل الفعل فالمنزل منزلة الماضى لتحققه هو أصـــل الرؤية والذى فرض وقوعه وأدخل عليه — لو — هو الرؤية بالنسبة للمخــاطب فذكر

---

(٢٤) المرجع الســابق ٢/٧٩ ٠

— لو — يدل على أن الرؤية بمثابة من الفظاعة يمتنع معها رؤية المخاطب (٢٥) •

وبالنسبة لدخول — لو — نشبه أصل الفعل وهو الرؤية المستقبلة بالرؤية الماضية فى التحقق والحصول فى كل واستعير بناء على هذا التشبيه الرؤية الماضية للرؤية المستقبلية واشتق من الرؤية الماضية الفعل الماضى الدال على التحقق ولكنه حذف ورمز اليه بشىء من لوازمه وهو — لو — ووضع مكانه الفعل المضارع المنزل منزلته بالتأويل على سبيل الاستعارة المكنية التبعية ويمكن أن يكون موطن التجوز فى الأداة نفسها • بأن نشبه مطلق ظرف مستقبل بمطلق ظرف ماضى فى حصول الحدث فيسرى التشبيه من الكليين الى الجزئيين واستعير بناء على هذا التشبيه الحاصل بالسراية — لو — لا — اذا الخاصة بالمضارع •

ثالثا : أن يليها المضارع وليس الغرض منه ما سبق ولكن — للدلالة على أن الفعل من الفظاعة بحيث يحترز عن أن يعبر عنه بلفظ الماضى لكونه مما يدل على الوقوع فى الجملة كما تقول • لقد أصابتنى حوادث لو تبقى إلى الآن لما بقى منى أثر (٢٦) •

ومنه قول الشاعر :

ولو يدفن التيمى ثم دعوته
الى فضل زاد جاء يسعى من القبر

ويتحصل مما سبق فى — لو — أنها تدخل على المضارع للدلالة على :

١ — امتناع الاستمرار •
٢ — تحقق الوقوع •
٣ — استحضار الصورة •
٤ — فظاعة الفعل •

---

(٢٥) المرجع السابق ٢/٨٤ •
(٢٦) المطول ١٧٣ •

ثالثا : استعارة اسـم الفعل والفعل الذى لا مصدر له :

واسم الفعل مثل — هيهات — وتبعية الاستعارة فيه تكون بالنظـر الى مصدر الفعل الذى يكون اسـم الفعل بمعنـاه • فهيهات بمعنى بعد فاذا استعيرت لمعنى عسر تجرى الاستعارة بين العسر والبعد اللذين هما مصـدرى الفعلين • عسر وبعد وذلك على النحو التالى :

أولا : مذهب الجمهور شبه العسر بالبعـد واستعير البعـد للعسر واشتق من البعد بمعنى العسر بعد بمعنى عسر وجعلت — هيهات • بمعنى بعـد المستعار لمعنى عسر •

ثانيـا : مذهب الصام • شبهنا مطلق العسر بمطلق البعـد فيسرى التشبيه الى فرد يهما اللذين فى ضمنى بعد وعسر واستعرنا بناء على هذا التشبيه الحاصـل بالسراية بعد لمعنى عسر •

وأما الأفعال التى لا مصـادر لهـا تحقيقا مثل يذر ويدع ونعـم وبئس فان استعارتها تابع المصـادر المقـدرة من معانى هذه الأفعال • (فيقدر لهـا مصادر ويقدر التشبيه فى أحداث هذه الأفعال ثم الاستعارة فى مصـادرها المقدرة ثم اشتقاق هذه الأفعال منها)(١) •

ففى استعارة يذر لمعنى يذهب يجرى التشبيه بين مصدر الفعـل • ذهب والمصدر المقدر من معنى الفعل • يذر وهو الترك • فنشبه إلذهاب بالترك فى مطلق الاعراض ويستعار الترك للذهاب ويشـتق منـه يترك بمعنى يذهب ويجعل يذر بمعنـاه •

وفى استعارة نعم لبئس نجرى التشبيه فى المصـدر المقدر • فنشبه المدح بالذم فى ارتياح النفس وانبساطها تنزيلا للتضـاد منزلة انتناسب تهكما ونسـتعير إلمدح للذم ونشتق منـه مدح بمعنى ذم ونجعل نعـم بمعنـاه ومن استعمال — هيهات قول المتنبى •

---

(١) الرسالة البيانية وحاشية الانبابى ٣٧٤ •

اليوم عهدكم ٠ فأين الموعـــــد
هيهات ليس ليـوم عهـدكم غـد
الموت أقرب مخلبـا من بينـــكم
والعيش أبعد منكـــم لا تبعـدو

فهو يخاطب أحبتـه فى لقـاء الـوداع الـذى جعله يزفر زفرات حارة من غروب حيـاته وتسلط شبح الموت عليه وكأنه حيوان يمد مخلبه اليه ويتسـاءل ٠ متى اللقاء ؟ فيستأنف الجواب مصدرا بهـذه الكلمة — هيهات — الدالة على معنى التبعيد والتعسر ٠ اذ ليس ليوم وداعه غد ٠

والعسر الحسى والمعنـوى فى اعتبار الاستعارة سواء (ودعـوى أنه متى كان لأمر حسى لم يكن وجه الشبه فى المشبه به أقـوى لا يخفى بطلانها)(٢) ٠

استعارة الأسـماء المشـتقة

والمراد بهـذه المشـتقات ٠ هى اسم الفاعل والمفعـول والصـفة المشبهة والتفضـيل والمكـان والزمان والآلة ٠ وتشترك جميعهـا فى أن الأهم والمقصود منها هو المعنى المصدرى وأن استعارتها تبعية ٠ ولكنها تفترق فى أن منهـا ما وضـع لذات مبهمة باعتبار وصف معـين وهـو المسمى بالصـفة وهى الأربعة الأولى — فالوصف فيها لا يدل على تعيين الذات مثل قائم ٠ فان معنـاه ذات ما متصـفة بالقيـام ولذلك يجـد العقل ليربطه بشىء يتعين عنـده فلا تقـع موصوفة وانما تقع واصـفة لغـيرها ٠

ومنهـا ما وضـع لذات معينـة باعتبار وصـف معين وهـو اسم الزمان والمكـان والآلة كمقتل ومفتـاح فانه يدل على خصوصـية تلك الذات من أنهـا زمان أو مكان أو آلة (٣) ٠

وجعل اسـم الزمان والمكـان والآلة من المشتق هو احدى طريقتين

---

(٢) المرجع السابق ٠
(٣) ينظر حاشية الانبابى ٣٣٣ ٠

والأخرى أنها جوامد وسبب الخــلاف هو اختلافهم فى المشتق هل هــو ما أخذ من المصــدر للدلالة على ذات متصــفة بحدث أو ما أخــذ منــه للدلالة على ذات وحدث فهى على الثــانى مشــتقة وعلى الأول غــير مشتقة (٤) •

وفرق البلاغيــون بين الفعل والمشتق بحسب الوضــع • فالفعــل دال على حدث وزمان ونسبة والمشــتق دال على حــدث وذات ونســبة والهدف من هذا التفريق هو بيــان أن الزمن لا يدخل فى المشتق واذا كان كذلك بعــد عن استعارة الزمن : (وانما حققنا المقــام ليظهر عدم دخول الزمان فى مفهوم شىء من المشتقات سوى الفعل واســم الزمان ••••• والفرق بينهما من جهة النسبة • فالنسبة فى الفعل هى النسبة الى الفاعل على جهــة القيام به أو الوقوع منــه وفى اســم الزمــان على جهــة الوقوع فيــه (٥) •

فاستعارة اسم الفاعل كقوله تعالى : « **فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصــيدا خامدين** » أى ســاكنين وهادئين وأصل الخمود للنار كمــا قال لبيــد :

وجدت أبى ربيعــا لليتــامى
وللضيفان اذ خمــد الفئيــد

فبعد أن جعلوا كالزرع المحصــود فى الاستئصال عبر عن سكونهم بالخمود وهو المنــاسب لقوله ـ حصــيدا ـ اذ الســكون يترتب على الحصــد فهنــا ترتيب فى وقوع الأحداث فشــبه سكون هؤلاء الظلمة وانقطاع أصواتهم وحركاتهم بخمــود النــار وكأن وجودهم كان وجودا محرقا ومؤذيا ولكن الله أخمــد جــذوتهم وأســكن لهيبهم • واســتعير المشبه به للمشبه واشــتق منه بالمعنى المذكور • خامدين بمعنى ساكنين • ومعلوم أن ذلك بعد التناسى والادعاء ومثله (ان كانت الا صيحة واحدة فاذاهم خامدون) ومنه قوله تعــالى : « **وأما عاد فأهلكــوا بريح صرصر عاتية** » استعير العتوة للشــدة والتمرد •

---

(٤) المرجع السابق ٣٧٥ •
(٥) المرجع السابق •

وقال الشـــاعر :

أنت فى خضراء ضــــــــــــاحكة

من بكـــــــــاء العارض الهـــن

جعل تفتح الأزهار ضحكا وبعد التشبيه والتناسى والادعاء استعير الضـــحك لتفتح الأزهار واشتق من الضحك بمعنى التفتح ضاحكة بمعنى متفتحة أزهارها •

وقال الشـــاعر :

أغرك منى أن حبـــــــك قاتلى

وأنك مهما تأمرى القلب يفعـــــــل

جعل ما أصابه به من الســـقم والاضناء بسبب الحب قتلا واستعار القتل له • واستعارة اســـم المفعول كمـــا فى قوله تعالى : ((**ولا تجعـــل يدك مغلولة الى عنقك**)) وحقيقته لا تمنع نائلك كل المنع والاســــــتعارة أبلغ لأنه جعل منع النـــائل بمنزلة غل اليـــد الى العنق وذلك مما يحسن حال التشـــبيه فيه بالمنـــع فيهما الا أن حال المغلول اليد أظهر وأقـــوى فيمـــا يكره (٦) •

والرمانى يفسر المنـــع كذلك من الوجهة النفســـية فليس هو مجرد منـــع وانمـــا هو المنـــع عمـــا يكره ولذلك كان اللفظ المســـتعار أبلـــغ لدلالته على هذا الكره فشـــبه المنـــع بالغل واستعير الغل له واشتق منه بمعنى المنع مغلولة بمعنى ممنوعة ولعل التعبير عن هذا المنـــــع باســـم المفعول يشـــير الى أن من طبيعة الفطرة الانسانية الجود اعترافا بفضل المنعم الأكبر ولكن النفس الأمارة بالســـوء هى التى تقيد براءة الجوارح عن طاعة الفطرة • فكأن النفس حينئذ آمرة واليد مأمورة بهـــذا البخـــل ومنقادة لغيرها فى هذا الفعل • ولذلك برز هذا المعنى بصيغة اسم المفعول الذى يعنى وقوع شىء على شىء آخر وان أخذت الهيئة المكونة من اليـــد والغل لفعل الشحيح فى منعه كانت استعارة تمثيلية •

---

(٦) ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن ٩٣ •

ومنـــه قول الشاعر :

مقذوفة بدخيس النحض بازلهــــا

له صريف صريف القعو بالمســـد

مقذوفة أى لعظم خنقها وتراكب لحمها كأنها قد رميت باللحم رميا • والدخيس الكثير المتداخل والنحض • اللحم • والقعو • الذى فيه البكــر اذا كان من خشب وان كان من حديد فهو خطاف • والبـــازل • النـــاب والصريف صوته والمســـد الحبل •

يصور النابغة قوة ناقته ونشـــاطها فيجعل احكام خلقهـــا وتراكب لحمها قذفا باللحم واستعير القذف باللحم لعظم الخلق واحكامه واشـــتق منه مقذوفة بمعنى عظيمة الخلق قوية الاحكام •

ومن استعارة اســـم التفضيل :

ولئن نطقت بشكر برك مفصــــحا

فلســـان حالى بالشكاية أنطـــق

شبهت الدلالة بالنطق واستعير النطق لها واشتق منه أنطـــق بمعنى أدل ومن استعارة الصـــفة المشبهة قوله تعالى : « **وفى عـــاد اذ أرســـلنا عليهم الريح العقيم** »وأصل العقم • هزمة تقـــع فى الرحـــم فلا تقبـــل الولد • وكذلك الريح المهلكة • لا ثمرة لهـــا من تلقيح شـــجر وارســـال مطر • شبهت هذه الحالة بحالة العقم فى المرأة بجامع الخلو عن الفائدة فى كل •

وكانت كلمة — العقم — أدل على الاهلاك التام لما لها من دلالة على الانقطـــاع التام عن الخير ولذلك تجىء فى القرآن الكريم وصفا للعذاب الذى لا تعقبه رحمة اذ (لم يستعمل القرآن كلمة العقيم وصفا للعذاب الا فى وصف عقاب الذين كفروا ولا يزالون) : « **فى مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم** » • وقد جاءت وصفا للريح — فى الآية السابقة — وأفادت نفس المعنى لأن عادا لم تر لهم باقية (٧) •

---

(٧) الاعجاز البلاغى ١٢٤ •

ومنه قولهم لشعيب« **انك لأنت الحليم الرشيد** » **استعير الحلم** والرشد للسفه والغى قاصدين السخرية والاستهزاء .

ومن استعارة اسم المكان قوله تعالى : « **قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا** » . فكلمة — مرقد — اما أن نعتبرها اسم مكان واما مصدرا ميميا .

فان كانت اسم مكان للرقاد وهو القبر كانت استعارته تبعية . ولما كان المعنى القائم بالمكان هو المقصود . نقول . شبه الموت بالرقاد فى عدم ظهور الأفعال الاختيارية واستعير الرقاد للموت واشتق منه بمعنى الموت — مرقد — بمعنى مكان الرقاد .

وان كانت مصدرا ميميا كانت استعارته أصلية .

وحكى الألوسى مذهبا ثالثا وهو أن يكون المرقد على حقيقته والقوم لاختلاط عقولهم ظنوا أنهم كانوا نياما ولم يكن لهم ادراك لعذاب القبر لذلك استفهموا عن موقظهم (٨) .

واستعارة اسم الزمان مثل هذا مقتل محمد — تشير الى زمان ضربه ضربا شديدا واسم الآلة كقولك عن الوزير — مفتاح السلطان . شبهت الوزارة بالفتح لنحو الباب المغلق بجامع التوصل الى المقصود واستعير الفتح للوزارة واشتق منه مفتاح بمعنى وزير .

وأمثلة المبالغة مثل . قتال الفسقة بمعنى كثير الضرب لهم . ومنه قول البارودى فى وصف سحابة :

ضحاكة كثيرة النواح
منشورة فى الأفق كالوشاح (٩)

شبه لمعها البارق بالضحك فى الاشراق والتهلل واستعار الضحك للمع واشتق منه بالمعنى المذكور . ضحاكة — صيغة مبالغة على وزن فعالة بمعنى كثيرة اللمع والبرق .

---

(٨) روح المعانى ٣٢/٢٣ .
(٩) ديوانه ١٧٣/١ .

واستعارة المشــتقات الســابقة كانت بالنظر الى المادة أى الحدث وقد يستعار المشــتق باعتبار الهيئــة من حيث دلالتهــا على الذات • كاستعارة المرقد بكسر الميم اســم آلة لمعنى المرقد بفتحها اسم مكــان قصــدا للمبالغــة فى وصــف مكان الرقود بأن له دخلا عظيمــا فى ارقاد كل من استقر فيه بحيث كأنه يتوسط بين الحدث الذى هو الرقود وفاعله الذى هو الراقد فى اتصــافه به توسط الآلة والأصــل فى هــذه الحــالة الذات •••••) •

وتتميما للحديث عن المشتقات نذكر أن العلامة الصبان بعد أن فرغ من الحديث عن استعارة المشتقات الحقيقية قال : (هل يدخل فى المشتق المصغر والمنســوب لأنهما مشتقان حكما ؟)(١٠) •

وقد أجاب بأن بعضــهم صرح بأن المراد بالمشــتق ما كان مشــتقا حقيقة أو حكما وعلى ذلك يدخلان فى اطار الاستعارة التبعيــة ولكن ليس هذا محل اتفــاق من البلاغيين لأن منهم من قاسها على العلم المشــتهر بصــفته واستعارته أصلية عنــد الجمهور وتبعيــة عند العصام فى أحد أقــواله •

والصبان يفرق بين — حاتم — وبين ما هو مشتق حقيقة أو حكمــا فيقول لأن كونه فى تأويل المشــتق ليس بالوضــــع الأصلى بخلافهمــا فان كونهمــا فى تأويل المشتق بالوضــع الأصلى فيهمــا كاسم الفــاعل والذى ينبغى عنــدى أن تكون استعارتهما تبعيــة أى تابعــة لاستعارة مصــدرى المشــتقين اللذين همــا بمعناهما أعنى بهذين المشتقين لفــظ صــغير ولفظ منتسب الى كذا مثلا قياسا على مذهب الجمهور فى مثــل ذلك أو لمجرد تشبيه قيــاسا على مذهب العصام (١١) •

فهو يرجح كون استعارتهما تبعيــة ويفرق بين حاتم والتــأويل فى هذه الأســماء المشتقة بأن كون حاتم متأولا بالمتنــاهى فى الجــود أمر عارض على أصــل الوضــع وذلك ما رجح كون استعارته أصلية وهــذا

---

(١٠) الرسالة البيانية ٣٧٧ •
(١١) المصدر الســابق ٣٧٨ •

بخلاف الأسماء المشتقة حكما فهى بالوضع الأصلى فنقول فى — هذا رجيل — اذا أريد به رجل كبير يتعاطى ما لا يليق به • شبه تعاطى ما لا يليق بالصغر بجامع سقوط الهيبة فى كل وبعد التشبيه والادعاء استعير لفظ الصغر لتعاطى ما لا يليق واشتق منه بهذا المعنى لفظ صغير بمعنى متعاطى ما لا يليق به أو نشبه مطلق تعاطى ما لا يليق بمطلق الصغر فيسرى التشبيه من الكليين الى فرديهما من المشبه والمشبه به اللذين فى ضمنى متعاطى ما لا يليق ورجيل ويستعار بناء على هذا التشبيه الحاصل بالسراية لفظ رجيل لمتعاطى ما لا يليق •

ومثله فى لفظ — قرشى — لمصرى يتخلق بأخلاقهم الحسنة • فنشبه التخلق بأخلاق قريش بالانتساب اليهم واستعير الانتساب للتخلق واشتق منه المنتسب الى قريش بمعنى المتخلق بأخلاقهم •

أو نشبه مطلق التخلق بمطلق الانتساب اليهم فيسرى التشبيه الى فردى المشبه والمشبه به الذين فى ضمنى متخلق وقرشى ويستعار بناء على هذا التشبيه الحاصل بالسراية لفظ قرشى للمتخلق بأخلاقهم •

والاجراء الأول على رأى الجمهور والثانى على مذهب العصام •

ومنه قول الشاعر :

أيوعدنى الأخيطل من بعيد
وقد لاقى اسنتنا شباكا

فالشاعر ينكر أن يتوعده الأخطل وكأنه اعتبر أن هذا الوعيد منه تعاطى ما لا يليق من الهجاء وبخاصة فى هذا الوقت الذى أحاطت به الأسنة كالشباك ولعله لذلك استخدم صيغة التصغير التى تدل على هذا المسلك المشين • وتجرى استعارته كسابقة •

وكذلك عرض لاستعارة المبهمات أى الضمير واسم الاشارة واسم الموصول •

وقد اختلفت وجهة نظر العلماء فى تحديد نوع استعارتها من حيث الأصلية والتبعية • وكان منطلق القول بأصالتها أو تبعيتها هو

الاختلاف حول أصل الوضـــع فيها فمن ذهب الى أنهـــا جزئيات وضـــعا واستعمالا أى أنهـــا لم توضـــع لمفهـــوم كلى كاســـم الجنس الـــذى تختص به الأصلية فتكـــون استعارتهـــا تبعيـــة وهو مـــذهب العضـــد والســـيد ٠٠

وأما على مذهب الســـعد والجمهور فهى كليـــات وضعا جزئيـــات استعمالا فيحتمل اعتبار الوضـــع فتدخل فى اســـم الجنس وتكـــون استعارتهـــا أصلية) (١) ٠

ورأى الســـبكى احتمالين فى أن الضمير واسم الاشارة موضوعان على أن يعودا على ما يراد منهما من حقيقة أو مجاز وعلى ذلك فلا تجوز فيهمـــا واما أن يتجوز فيهمـــا تبعـــا للتجوز فيمـــا يرجعان اليه فتكون استعارتهمـــا تبعيـــة وليست التبعيـــة هنـــا كالتبعيـــة التى تتبع المعنى المصـــدرى بالتشبيه أو الاستعارة ولكن التبعية هنـــا معناها أن تتبـــع التجوز فى المرجع ففى قولك — رأيت أسدا فى الميدان فأكرمته — فيستعار الضمير بنـــاء على التشبيه والاستعارة فى الأسد من المرجع الحقيقى أى الحيوان المفترس للمرجع المجـــازى أى الرجل الشجاع ٠ (فالتبعية — هنـــا — بمعنى أعم من التبعية المتعـــارفة عنـــد القوم اذ المتبوع فيهما وهو المرجع ليس أحد المتبوعات فى التبعية المتعارفة (٢) ٠

قال الســـبكى (واعلم أن الاستعارات الواقعة ضمائر أو أســـماء اشـــارات لهـــا حكم ما يطابقه من مفسر ان كان ضمائر ومشار اليـــه ان كانت أســـماء اشـــارة والظاهر أنهـــا كلهـــا داخلة فى التبعيـــــة فان الاستعارة فيهـــا باعتبار الاستعارة فيمـــا ترجع اليه أو يقـــــال انهـــا لا يتجوز بها فان وضعها أن تعود على ما يراد بهـــا من حقيقـــة ومجـــاز فاذا قلت رأيت أسدا يرمى فأكرمته فضـــمير المفعول حقيقة لعـــوده على مفسره وذلك وضعه واذا قلت يا أيها الأسد الرامى بالنبـــل مشـــير الى الانســـان فالضـــمير فى قولك الرامى حقيقة (٣) ٠

---

(١) حاشـية الانبابى ص ٣٩٨ ٠
(٢) الرسالة البيانية ص ٣٩٩ ٠
(٣) شروح التلخيص ٤/١١١ ٠

والأرجح أنهـا تبعيـة لدليلين :

الأول : أنهـا ليست باسم جنس لا تحقيقـا ولا تأويلا لأن معانيها جزئيات والأصلية مختصـة به أى باسم الجنس •

الثانى : أن أصـالة الاستعارة تتوقف على أصالة التشـبيه أى على جريانه فى نفس مفهومى الطرفين وهـذا لا يتصور الا فيما يصـلح لأن يكون موصوفا ومحكوما عليه بسبب الاستقلال فى الانفهـام ومفهومات المبهمات ليست كذلك لأنهـا محتاجة الى ضم ضميمة حتى يتم فهمها من الألفـاظ الدالة عليهـا ومما يرشـدك الى هذا ما يقال فى توجيـه بنائها أنهـا شـابهت الحروف وأنهـا لا يتم معنـاها ولا تصلح لأن يحكـم عليهـا بشىء ما لم يذكر تصريحا أو تقديرا ما يتم به معنـاه فى الفهـم مثل المشـار اليه والصـلة والمرجع وغـيرها واذا كان الأمـر كذلك فلا يتصـور فيهـا التشبيه والاسـتعارة أصـالة بل لا بد أن تعتبر التشبيه أولا فى كليـات تلك المعـانى الجزئية ثم يعتبر سريان التشـبيه منهـا اليها فتبنى الاستعارة على ذلك التشبيه الحاصل بالسراية فتكون تبعيـة(١) •

وعلى ذلك فاسـم الاشـارة الذى وضـع فى الأصل لأن يشـار به الى محسـوس مشاهد اذا استعمل فى غير هذا الأصل يكون استعماله فى غير ما وضـع له على سبيل التبعيـة •

فاذا استعمل فى المعقول فلتنزيله منزلة المحسوس المشاهد بالبصر • وكذلك لو استعمل فيما يستحيل احسـاسه كقوله تعالى : **« تلك الجنة »** فلتصييره كالمحسـوس المشـاهد وذلك على سبيل المجاز (١) فى كـونه قطعى الوجود لا شـك فيه •

فاذا قلت : هذا رأى عظيم • فقـد استعرت اسـم الاشـارة من المحسوس إلى المعقول فيقال فى اجرائها • شبه المعقول مطلقا بالمحسوس مطلقا فى قبول التمييز والتعيين فسرى التشبيه من الكليين الى الجزئيات

---

(١) الرسالة البيانية ٣٩٨/٣٩٩ •

(١) ينظر المطول ٧٧ وحاشية الصبان على الاشمونى ١٣٨/١ •

فاستعرنا بنــــاء على هــذا التشبيه الحاصل بالسراية لفــظ هــذا من جزئى المشبه به الى جزئى المشبه •

وعليه قول الشـــاعر :

(لا أستطيع لهــذا الحب كتمانا)

وكذلك يستعار اسم الاشـــارة المفرد لغيره كمـــا فى قوله تعـــالى : « عــوان بين ذلك » أى الفارض والبكر (٢) •

وينزل القريب منزلة البعيــد لعظيم منزلته كمـــا فى قولهـــا عن يوسف : « **فذلكن الذى لمتننى فيه** » فقالت — ذلك — وهو حاضر بدليـــل قولهن : « **ما هــذا بشرا ان هذا الا ملك كريم** » رفعـــا لمنزلته الفـــائقة فى الحســـن وأنه جدير بأن تفتتن فيه النســـاء وكأنهـــا تعتذر عما فعلته معـــه بذلك • وكأن اسم الاشـــارة بهذه الصياغة المجازية يرمى بفكرتين مزدوجتين •

الأولى : تقرير المنزلة العـــالية التى تبوأها يوسف بحسنه الملائكى الذى خرج به عن مراتب البشرية فكأنه أمر غريب وبعيد •

الثانيـــة : ما يلزم هذا من التمـــاس المعـــذرة لهـــا حيث لم تملك الســـيطرة على نفســـها أمام رغبتها الجامحة •

وذهب بعض المفسرين الى أن اســـم الاشـــارة يعـــود على (حب يوسف)فعلى فرض هذا يكون من باب تنزيل المعقول منزلة المحســـوس أيضـــا كمـــا ســـبق •

وكذلك ينزل البعيـــد الذى لا يرى منزلة القريب المرئى كما فى قوله تعـــالى « **هذا وان للطاغين لشر مآب** » فقوله — هـــذا — اســـتعارة لأنه انما يستعمل حقيقة فيما كان قريبـــا مشارا اليه (١) •

---

(٢) حاشية الصبان على الاشمونى ١/١٣٨ •
(١) الطراز ١/٢٥٤ •

أى أن الاشـــارة هنـــا راجعـــة الى ما أعده الله للمتقين من ألوان النعيم والكرامات فى الجنـــة فنزل ذلك منزلة القريب المـــرئى فى كـــونه قطعى الوجود والتحقيق لا شك فيه ولذلك جاءت الصياغة عنه فى مواضع أخرى بلفظ الماضى للتحقيق كمـــا فى قوله تعالى : ((**أعـــدت للمتقـــين**)) وصياغته على هذا الوضـــع تحمل فى طياتها التبشير للمتقـــين والتقـــريع للطـــاغين .

« وقد يجرى المجـــاز فى أســـماء الاشارة كقـــولك أعجبنى هـــذا الرجل وان كان غائبـــا عنك لأن الحقيقة فيه لمن كان حاضرا بقربك »(٢)

وكذلك يستعار اســـم الموصول المؤنث للمـــذكر والعكس فى صـــفة مشتركة بينهمـــا ففى استعارة ــ التى ــ للذى ــ نقول . شـــبه المذكر مطلقا بالمؤنث مطلقـــا بجامع التخنث وعدم الشـــهامة فسرى التشـــبيه من الكليين الى الجزئيين واستعرنا بنـــاء على هذا التشـــبيه الحاصـــل بالسراية اسم الموصول الجزئى الموضوع للمؤنث لاسم الموصول الجزئى الموضـــوع للمذكر .

وكذلك يستعار ضمير المؤنث للمذكر والعكس . فاذا قلت لنسوة ــ انى منتظركم . فقـــد شبهت مطلق مخاطبة فيها عظمة بمطلق مخاطب فيه عظمة بجامع العظمة فى كل فسرى التشبيه من الكليين الى الجزئيـــات فاســـتعير ضـــمير جماعة الذكور من جزئى المشبه به لجـــزئى المشـــبه استعارة تبعيـــة (١) .

ولو قلت لجمـــاعة الذكور ــ انى منتظركن ــ كان على تشبيه مطلق مخاطب فيه تخنث بمطلق مخاطبة فيها تخنث بجامع التخنث فى كل وهـــو الصـــفة المشتركة بينهمـــا فيسرى التشـــبيه من الكليين الى الجزئيـــات فنستعير بنـــاء على هذا التشبيه الحاصـــل بالسراية الضـــمير الجزئى الموضوع للمؤنث للضمير الجزئى الموضوع للمذكر .

ومن استعمال ضمير المذكر فى المؤنث للتعظيم قول الشاعر :

---

(٢) السابق ١/١٠١ .

(١) علم البيان ١٤٦ .

قد يتم ألقلب حتى زاده خبـــلا
من لا يكلم الا وهـــو محجـــوب

فهو يتحدث عن صاحبته التى قاسى فى سبيلها أشد أنواع العـذاب ولكنهـا حجبت عنه فعبر بضـمير المذكر — هو — عن ضمير المؤنثـة — هى — قصدا الى التعظيم فيقـال — شبه مطلق غائبـة بمطلـق غائب فسرى التشبيه من الكليات الى الجزئيات وبنـاء عليه استعير الضـمير المذكر من جزئى المشبه به لجزئى المشبه •

ومن استعمال ضمير الجمع فى المفرد قول الشـاعر :

ونحن لدى أعضـاد خوص مناخه
أصاب عظاما من أخشـتها المبرى

فهو يتحدث عن نفسه حيث ألم به طيف صاحبته وهو يقيم بالقرب من نياقه الغـائرة الأحداق المجهـدة من السـير • فوضع ضمير الجمع — نحن — موضع — أنا — للتعظيم • فنشبه مطلـق فرد متكلم معظم بمطلق جمـاعة متكلمين فى التعظيم فيسرى التشـبيه من الكليـات إلى الجزئيات ونستعير بنـاء على هذا التشبيه الحاصـل بالسراية ضـمير الجمع الجزئى لضمير المفرد الجزئى ••

وقد أشـار العلوى الى مثل ذلك بقـوله : (••• نحن فانه حقيقة فى الجمع وقد يقال للواحد العظيم مجازا)(٢) •

---

(٢) الطراز ١/١٠١ •

استعارة الحروف

عرضنا طرفا من مناقشات البلاغيين فى التعليل لتبعية الاستعارة فى الفعل والمشتقات والحروف وتبين أن الحروف غير مستقلة بالمفهومية لأنها عبارة عن آلات وروابط لا يظهر أثرها الا فى السياق مع غيرها ٠

ويتفق الخطيب والسكاكى فى القول بتبعيتها ولكن لكل وجهة فى تحديد هذه التبعية ٠ فالخطيب يرى أن تبعية الاستعارة فى الحرف انما هى تابعة للتشبيه فى مدخول الحرف أما السكاكى فيرى أن تبعية هذه الاستعارة تابعة للاستعارة فى متعلق معنى الحرف الكلى الذى يرجع اليه معنى الحرف الجزئى (١) ٠

وهذان الرأيان قد صدرا عن أصل واحد وهو تحليلات الزمخشرى فى الكشاف للآيات التى تضمنت هذا النوع من الاستعارة ولذلك قال أستاذنا الدكتور محمد أبو موسى « وقد فكرت كثيرا فى كلام الزمخشرى فى هذا الموضوع لأقف على مراده وأتبين فى أيهما يكون التشبيه والاستعارة فى الحرف أم فى مدخوله وكلما قوى فى نظرى وجه نظرت فوجدت الآخر لا يقل عنه قوة فكلامه صريح فى أن التشبيه والاستعارة يجريان فى مدخول الحرف وكلامه صريح أيضا فى أن اللام مستعارة كاستعارة الأسد للرجل الشجاع وقد بان لى أن كلام الزمخشرى يصح أن يستدل به على الجهتين » (٢) ٠

وأشير كذلك الى أن القول بمجازية الحرف انما هو مساير لمذهب البصريين الذين يرون أن كل حرف وضع لمعنى حقيقى واحد ويمنعون نيابة بعض الحروف عن بعض فاذا انتقل الحرف من معناه الوضعى أولوا ذلك تأويلا يتفق مع مدلول اللفظ أو ضمنوا الفعل معنى فعل آخر ٠

---

(١) ينظر المفتاح ١٨٠ وبغية الايضاح ٣ ٠
(٢) البلاغة القرآنية ٤٢ ٠

ولكن الكـوفيين يرون أن الحرف قد أعطى أكثر من معنى فأجازوا نيابة بعض الحروف عن بعض وكأن الحرف ليس مرتبطا عنـدهم بالدلالة على معنى معين بحيث اذا انتقـل الى معنى آخر يحكم بمجـازيته وانما له من سـعة الاستخدام وكثرة المعانى ما يجعله فى مواطن كثـيرة له فى جميعها سـمة الأصالة التى تطبعـه بطـابع الحقيقة ولذلك قال المرادى (٧٤٩ ت هـ) وما تقدم من نيـابة انبـاء عن غيرها من حروف الجر هـو جار على مذهب الكوفيين ومن وافقهم فى أن حروف الجر قد ينوب بعضها عن بعض ومذهب البصريين ابقـاء الحرف على موضوعه الأول اما بتأويل يقبله اللفظ أو تضـمين الفعل معنى فعل آخر يتعدى بذلك الحرف (١) •

والواقع أن الكوفيين بذلك يهملون شطرا كبيرا من هـذه الصـور التى قامت على أسـاس نقل الحرف من مكانه الموضوع له الى استعماله فى مكـان مجازى جـديد وهى ذات خصـوصية فنيـة وعمق فى الدلالة ولذلك كان المذهب البصرى أقرب الى روح التصوير والبيـان •

ومثالهـا قوله تعـالى : « **أولئك على هدى من ربهم وأولئـك هم المفلحون** » (٢) • والآية تصور حالة التمكن والاستقرار للمتقين الـذين ترقوا فى مراقى الايمـان بالغيب واقامة العبادات وما أنزل على الأنبياء وبيوم القيامة وما فيه حتى أصبحوا على هذه الأرض الصلبة من الهـدى تمسـكا به واستعلاء عليـه وتمكنا منه تمكن الفارس الماهر من فرسـه الجواد الذلول ينطلق برشد ويمشى على بصيرة بلا تعثر ولا كبوة وكانت النتيجة الحتميـة لذلك أنهم هم المفلحون •

وشـاهدنا هو (على هـدى) لأن — على — موضوعة للاستعلاء الحسى ومدخولهـا ليس كذلك فتخرج على المجـاز فيقال • شبه مطلـق الارتباط بين الهدى وهؤلاء بمطلق الارتباط بين مسـتعل ومسـتعل عليه بجامع التمكن والاستقرار فى كل فسرى التشبيه من الكليين الى الجزئيات واستعير بنـاء على هذا التشبيه الحاصل بالسراية لفظ على من جزئى من جزئيات المشبه به لجزئى من جزئيات المشبه •

---

(١) الجنى الدانى فى حروف المعانى ١٠٨/١٠٩ •
(٢) البقرة ٥ •

أو يقال : شبه الهدى بالمستعلى عليه الحسى ثم استعيرت — على — تبعا لهذا التشبيه من جزئى المشبه به لجزئى المشبه ٠

أو يقال استعير المشبه به للمشبه وحذف ورمز اليه بشىء من لوازمل وهو على سبيل الاستعارة المكنية واثبات اللازم تخييل — وهو قرينة المكنية ٠

واذا أخذنا فى الاعتبار أن المركب يمكن أن يدل عليه بلفظ مفرد كما هو مذهب السعد والذى انطلق منه الى تجويز اجتماع التبعية مع التمثيلية كما فى الآية السابقة : « حيث كانت الحروف من حيث الوضع تدل على معانى اضافية تستدعى عدة أمور تكون هيئة وان كان لفظها مفردا مثل — على — فانها تستدعى مستعليا ومستعليا عليه واستعلاء بينهما ولذلك كان المركب عنده على صورتين المركب الذى يقصد فيه الى عدة أشياء مختلفة أو المركب الذى يقصد فيه الى عدة أوصاف لشىء واحد فتنتزع منها هيئة وتجعلها مشبعا أو مشبها به أو وجه شبهة » (١) ٠

هذا وقد جاءت تعليقات الزمخشرى مؤيدة مذهب السعد كما فى قوله : (ومعنى الاستعلاء فى قوله — على هدى — مثل لتمكنهم من الهدى واستقرارهم عليه وتمسكهم به شبهت حالهم بحال من اعتلى الشىء وركبه) (٢) ٠

وذلك بخلاف السيد الذى حبذ أن يكون المركب بالمعنى المشهور ومنع الاجتماع المذكور ٠ وعلى ذلك فقوله (على هدى) يمكن أن تخرج كذلك على التبعية التمثيلية ٠ أما تبعيتها فلكونها واقعة فى الحرف وأما كونها تمثيلية فلأن طرفى التشبيه حالة منتزعة من عدة أوصاف فنقول ٠ شبهت حالهم فى تمكنهم من الهدى واستقرارهم عليه وتمسكهم به بحال من اعتلى الشىء وركبه وتمكن من أزمته ثم استعيرت حالة المشبه به لحالة المشبه ودل عليها بحرف الاستعلاء — على ٠

---

(١) ينظر المطول ٣٢٢ والرسالة البيانية ٤٥٤ وحاشية الانبابى عليها ٠
(٢) الكشاف ١/١٤٢/١٤٣ ٠

وبذلك تكون جملة التخريجات لهذا التركيب وأمثاله على النحو التالى :

١ — على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية كما هو مذهب الجمهور .

٢ — على سبيل الاستعارة المكنية كما هو مذهب ابن يعقوب المغربى .

٣ — على سبيل الاستعارة التبعية التمثيلية كما هو مذهب السعد .

٤ — على سبيل الاستعارة التبعية أو التمثيلية كما هو مذهب السيد .

وعلى نفس المنوال قوله تعالى : **« وانك لعلى خلق عظيم »** والآية ترسم صورة سامقة للأخلاق السامية والشمائل الفاضلة التى تجسدت فى شخص الرسول ﷺ ولذلك صيغت الآية بأكثر من مؤكد وبثت فى تضاعيف الآية بدءا بـ (ان) ووسطا بـ (اللام) وخاتمة بالاستعارة الحرفية فى (على خلق) ووصف الخلق بـ (عظيم) كل ذلك كان بين يديه القسم بالقلم وما يسطره على حصافة عقله وديمومة أجره وكأن كل هذه الخلال سطرتها أقلام الحفظة فى عالم الغيب ويشهدها الناس فى عالم الشهادة .

وتأمل قوله : **« على خلق »** تجد أن الاستعارة قد كشفت الأخلاق وجسدتها وذللتها حتى صارت كالشىء الذى يمتطيه صاحبه وهو متمكن منه . يصرفه كيفما يشاء ولذلك اختار لفظ — الخلق — دون الشمائل أو الفضائل مثلا لأنها يذوب معها كل معنى من معانى التكلف أو الرياء أو التظاهر بالفعل الجميل لأن الخلق هو الكيفية النفسانية التى تصدر عنها الأفعال بسهولة وأريحية وهكذا كان سيدنا محمد ﷺ .

أو على سبيل المجاز المرسل من استعمال المقيد فى المطلق ثم استعماله فى المقيد بيان ذلك أن — هل — لطلب الفهم فاستعملت فى مطلق الطلب ثم استعملت فى طلب حصول الشىء المحبوب (٣) •

أو يقال — شبه مطلق التمنى بمطلق الاستفهام بجامع تخييلى فى المشبه وهو الامكان وعدم الجزم معه بالانتفاء ثم حذف المشبه به ودل عليه بشىء من لوازمه وهو — هل — (٤) • على سبيل الاستعارة المكنية •

ومن الحروف التى تستخدم استخداما مجازيا — يا — التى للنداء • فقد رأى ابن الحاجب أنها حقيقة فى البعيد والقريب لاستخدامها فيهما على السواء الا أن الزمخشرى يرى أنها حقيقة فى البعيد وتستعمل فى القريب مجازا لتنزيله منزلة البعيد (٥) •

فنقول — يا فلان — لمن هو قريب منك • فنشبه القريب بالبعيد لأمر فى المنادى استدعى تبعيده وهو غفلته وعدم تنبهه • فيسرى التشبيه من العام الى الخاص ونستعير — يا — من جزئى المشبه به لجزئى المشبه •

كما ينزل القريب منزلة البعيد للتنبيه على عظم الأمر وعلو شأنه وأن المخاطب مع تهالكه على الامتثال كأنه غافل عنه بعيد منه كما فى قوله تعالى : **« يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك »** •

أو للحرص على اقبال المنادى أى الرضا والرغبة فى ذلك وكأنه أمر بعيد • كما فى قوله تعالى : **« يا موسى أقبل »** •

وأما قولنا — يا رب — وهو أقرب الينا من حبل الوريد • فقد استعمل فيه الحرف الذى ينادى به للبعيد لنداء القريب لأمر يرجع الى المتكلم لا الى المنادى وهو استقصار الداعى نفسه واستبعادها من

---

(٣) شروح التلخيص ٢/٢٤٠ •
(٤) فيض الفتاح على المطول ٣/٢٤٤ •
(٥) ينظر شروح التلخيص ٢/٣٣٤ والمطول ٢٤٤ •

مظان القرب من الله ومقامات الصالحين هضما لنفسه واعترافا بالتفريط فى جنب الله تعالى •

ويتبين مما سبق أن الحروف التى تجرى فيها الاستعارة تشمل حروف الجر ولام التعليل وأدوات الاستفهام و — ياء — النداء •

كما أن دلالة أدوات الاستفهام على المجاز • لم تتفق كلمة البلاغيين على تحديد نوع هذا المجاز هل هو استعارة أو مجاز مرسل أو من مستتبعات التراكيب ؟ •

ولذلك ورد فى المطول (ان هذه الكلمات الاستفهامية كثيرا ما تستعمل فى غير الاستفهام مما يناسب المقام بمعونة القرائن وتحقيق كيفية هذا المجاز وبيان أنه من أى نوع من أنواعه مما لم يحم أحد حوله • وذلك لصعوبة بيان علاقة المجاز وكيفية المناسبة المجوزة له)(٦) •

ويرى الدكتور محمد أبو موسى أن عبد القاهر قد أشار الى ما يمكن أن يكون أصلا لرأى فى باب الاستفهام وهو أنه لم يستعمل فى الانكار ولا فى التقرير ولا فى غيره وانما استعمل فى التنبيه فهو محض معناه كما قال وعلى المخاطب أن يجد فى التقاط المراد من السياق وحسبه هذا التنبيه ويبقى فى المسألة شىء واحد هو بيان وجه استعمال الاستفهام فى محض التنبيه هل هو حقيقة أو مجاز أو كناية ؟ (٧) •

---

(٦) دلالات التراكيب ٢٦٠ •

(٧) ينظر المطول وحاشية السيد عليه ٢٣٥ •

أو على سبيل المجاز المرسل من استعمال المقيد فى المطلق ثم استعماله فى المقيد بيان ذلك أن — هل — لطلب الفهم فاستعملت فى مطلق الطلب ثم استعملت فى طلب حصول الشىء المحبوب (٣) .

أو يقال — شبه مطلق التمنى بمطلق الاستفهام بجامع تخييلى فى المشبه وهو الامكان وعدم الجزم معه بالانتفاء ثم حذف المشبه به ودل عليه بشىء من لوازمه وهو — هل — (٤) . على سبيل الاستعارة المكنية .

ومن الحروف التى تستخدم استخداما مجازيا — يا — التى للنداء . فقد رأى ابن الحاجب أنها حقيقة فى البعيد والقريب لاستخدامها فيهما على السواء الا أن الزمخشرى يرى أنها حقيقة فى البعيد وتستعمل فى القريب مجازا لتنزيله منزلة البعيد (٥) .

فنقول — يا فلان — لمن هو قريب منك . فنشبه القريب بالبعيد لأمر فى المنادى استدعى تبعيده وهو غفلته وعدم تنبهه . فيسرى التشبيه من العام الى الخاص ونستعير — يا — من جزئى المشبه به لجزئى المشبه .

كما ينزل القريب منزلة البعيد للتنبيه على عظم الأمر وعلو شأنه وأن المخاطب مع تهالكه على الامتثال كأنه غافل عنه بعيد منه كما فى قوله تعالى : **« يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك »** .

أو للحرص على اقبال المنادى أى الرضا والرغبة فى ذلك وكأنه أمر بعيد . كما فى قوله تعالى : **« يا موسى أقبل »** .

وأما قولنا — يا رب — وهو أقرب الينا من حبل الوريد . فقد استعمل فيه الحرف الذى ينادى به للبعيد لنداء القريب لأمر يرجع الى المتكلم لا الى المنادى وهو استقصار الداعى نفسه واستبعادها من

---

(٣) شروح التلخيص ٢/٢٤٠ .
(٤) فيض الفتاح على المطول ٣/٢٤٤ .
(٥) ينظر شروح التلخيص ٢/٣٣٤ والمطول ٢٤٤ .

مظـــان القرب من الله ومقـــامات الصـــالحين هضـــما لنفســـه واعترافا بالتفريط فى جنب الله تعـــالى ٠

ويتبين ممـــا ســـبق أن الحروف التى تجرى فيها الاستعارة تشمل حروف الجر ولام التعليل وأدوات الاستفهام و ـــ ياء ـــ النداء ٠

كمـــا أن دلالة أدوات الاســـتفهام على المجـــاز ٠ لم تتفق كلمـــة البلاغيين على تحديد نوع هذا المجـــاز هل هو استعارة أو مجاز مرســـل أو من مستتبعات التراكيب ؟ ٠

ولذلك ورد فى المطول (ان هذه الكلمـــــات الاستفهامية كثـــيرا ما تستعمل فى غير الاستفهام ممـــا ينـــاسب المقـــام بمعـــونة القـــرائن وتحقيق كيفيـــة هذا المجـــاز وبيـــان أنه من أى نوع من أنواعه مما لم يحم أحد حوله ٠ وذلك لصعوبة بيـــان علاقة المجاز وكيفيـــة المناســـبة المجوزة له)(٦) ٠

ويرى الدكتور محمد أبو موسى أن عبد القاهر قد أشار الى ما يمكن أن يكون أصـــلا لرأى فى باب الاستفهام وهو أنه لم يستعمل فى الانكار ولا فى التقرير ولا فى غيره وانمـــا استعمل فى التنبيـــه فهو محض معناه كمـــا قال وعلى المخـــاطب أن يجد فى التقاط المراد من الســـياق وحسبه هذا التنبيـــه ويبقى فى المسألة شىء واحد هـــو بيـــان وجه اســـتعمال الاستفهام فى محض التنبيه هل هو حقيقة أو مجاز أو كناية ؟ (٧) ٠

---

(٦) دلالات التراكيب ٢٦٠ ٠
(٧) ينظر المطول وحاشية السيد عليه ٢٣٥ ٠

الاستعارة بالكناية :

وهذا وجه آخر من أوجه المجـــاز الذى يقوم عليه عمل المبدعين فى صياغة ما يدور فى أحاسيسهم أو يقع تحت بصـــائرهم • فاذا كان المجاز الســـابق فى التصريحية عمـــاده جعل الشىء شيئا آخر كمـــا فى جعـــل الرجل الشجاع أسدا والفتاة الحسناء قمرا والذهاب سنخا والاضطراب موجا وزلزلة والاســـتعلاء المعنـــوى حسيا وما الى ذلك مما مضى •

فان هذا المجاز أساسه أن نجعل للاشياء أشياء ليست لها على طريق التخييل والتوهم وبذلك تبرز ملفعـــة بأثواب غـــيرها حاملة لصـــفات أخرى لا توجد فى بنى جنســـها • فنرى بها الجمـــاد مثـــلا له صـــفات انســـانية من الحس والحياة والحركة والمحادثة وما الى ذلك مما سيظهر عنـــد عرض الأمثلة •

وقد مضى بنـــا حديث عبد القاهر الذى أشـــار فيـــه الى نوعى الاستعارة ــ التصريحية والمكنية ــ وقد بين أن جعل اليد للشـــمال قائم على التخييل والتوهم فى أن الشـــمال فى تصريف الغداة على حكم طبيعتها كالمدبر والمصرف لما فى زمامه بيـــده ومقادته فى كفه وذلك كله لا يتعـــدى التخييل والتوهم والتقدير فى النفس من غير أن يكـــون هناك شىء يحس وذات تتحصل (١) •

وكان عبد القاهر بارعا فى تحليل الاستعارتين تحليلا فنيـــا قائمـــا على النظر الفنى الدقيق الذى ينظر الى الغرض من التركيب من ناحيـــة والى التشبيه الذى يقوم عليه التركيب من ناحية أخرى •

فبالنسبة للتصريحية الغرض منها هو المبالغـــة فى التشبيه (٢) • ويقول أيضـــا : « ومعلوم أنك أفدت بهـــذه الاســـتعارة ما لـــولاها لم يحصل لك وهو المبالغة فى وصـــف المقصود بالشجاعة وايقـــاعك منـــه فى

---

(١) ينظر أسرار البلاغة ١٣٩/١ •

(٢) المرجع السابق ١٣٨/١ •

نفس الســامع صورة الأسد ••• » (٣) •

وبالنسبة للمكنية فالغرض منها هو المبالغة فى تحقيق التشبيه فقــال « وغايتــك التى لا مطمع ورائها أن تقول أراد أن يثبت للشمال فى الغداة تصرفا كتصرف الانسان فى الشيء يقلبه فاستعار لهــا اليــد حتى يبــالغ فى تحقيق التشــبيه » (٤) •

وأما بالنسبة للتشبيه فهــو فى التصريحية واضح جلى وفى المكنيــة دقيق لا يتوصل اليه الا بعــد فكر فقال : « ويفصل بين القسمين أنك اذا رجعت فى القســم الأول الى التشبيه الذى هو المغزى من كل اســتعارة تفيــد وجدته يأتيك عفــوا كقولك فى رأيت أسدا رأيت رجلا كالأســد ورأيت مثل الأســد أو شبيها بالأسد وان رمته فى القسم الثانى وجــدته لا يأتيك تلك المواتاة اذ لا وجه لأن يقول اذ أصبح شيء مثل اليــد للشمال أو حصل شبيه باليــد للشــمال وانمــا يتراءى لك التشــبيه بعــد أن تخرق اليه سترا وتعمل تأملا وفكرا وبعد أن تغير الطريقــة وتخــرج عن الحذو الأول كقولك اذ أصبحت الشمال ولها فى قوة تأثيرها فى الغداة شبه المالك تصريف الشيء بيده) (٥) •

ولعل الخطيب نظر الى هذا التشبيه المستور فجعله هو الاستعارة المكنيــة ولذلك قال : (قد يضمر التشبيه فى النفس فلا يصرح بشيء من أركانه ســوى لفظ المشبه ويدل عليه بأن يثبت للمشــــبه أمــر مختص بالمشبه به من غير أن يكــون هناك أمر ثابت حســا أو عقلا أجرى عليــه اســم ذلك الأمر فيســمى التشبيه استعارة بالكنــاية أو مكنيــا عنهــا واثبات ذلك الأمر للمشبه استعارة تخيلية) •

فالخطيب يرى فى مثل — أظفار المنيــة — أو — يد الشــمال — استعارتين الأولى هى التشبيه المضمر فى النفس وهو ما ســماه استعارة مكنيــة والثانيــة هى اثبات لازم المشبه به للمشــبه وهى الاســتعارة

---

(٣) الســابق ١/١٢٦ •
(٤) السابق ١/١٤٠ •
(٥) أسرار البلاغة ١/١٤٠ •

التخيلية وهمـــا أمران معنـــويان وليس مدلولا عليهما بالألفاظ المجازية التى هى المستعملة فى غـــير ما وضعت له ولذلك نوقش كثـــيرا فى جعله التشبيه المضمر استعارة مكنية وأيسر هذه التوجيهات أنه جعله استعارة لما فيه من الادعاء أى ادعاء دخول المشبه فى جنس المشبه به وهذا عمـــاد الاستعارة وأما جعله مكنيـــا فبالنظر الى أنه تشبيه مضـــمر ومســـتور لا يدل عليه الا لازم المشبه به المثبت للمشبه فتحقق فيـــه معنى الكنـــاية لغـــة وهو الستر والخفاء (٦) •

وأما عبد القاهر فقد رأى فيها استعارة واحـــدة وهى القائمـــة على التخييل والتوهم وبذلك تتلازم المكنيـــة والتخيلية عنـــــد الخطيب لأن التخييلية قرينـــة المكنيـــة ولا توجد استعارة بدون قرينة اذ هى المرشد اليها والدال عليها •

وأما مذهب الجمهور فيراها • لفظ المشبه به المســـتعمل فى المشـــبه المحـــذوف والمرموز اليـــه بشىء من لوازمه أى أنه بعـــد التشبيه المضمر يستعار المشبه به للمشبه ثم يحذف ويدل على هذه الاســـــتعارة بلازم المشبه به المثبت للمشبه (فالمســـألة لا تنتهى عنـــد التشـــبيه المضـــمر كمـــا يقول الخطيب وانمـــا يقرر الجمهور مرحلة أعلى فى الادعاء والدمج من هذه المرحلة هى تناسى التشبيه ودخول المشبه فى جنس المشبه به — الخيـــال هنـــا يصـــعد الى مرحلة أعلى ممـــا هو عنـــد الخطيب) (٧)

ويشير الدســـوقى الى أن المراد بالسلف الكشـــاف ومن قبله ومن بعـــده (٨) •

والســـيد فى حاشيته على المطول يذكر أن كلام الزمخشرى حـــول قوله تعالى : ((**ينقضون عهد الله**)) ما هو الا فهـــم لكـــــلام القـــدماء بعينه (٩) •

---

(٦) ينظر تفصيل هـــــذه التوجيهـــــات فى شروح التلخيص ٤/١٥١ وما بعـــدها •
(٧) التصوير البيانى ٢٥٤ •
(٨) شروح التلخيص ٤/١٥٩ •
(٩) المطول ٣٨٣ •

ولكن أستاذنا الدكتور محمد أبو موسى يرى أن كلام الزمخشرى فى هذا الموضوع ليس مسبوقا به من أحد قبله (ولهذا نرى أن ما سماه المتأخرون رأى الجمهور وقالوا انه مستمد من كلام السلف ليس الا رأى الزمخشرى ولا وجه لهذه التسمية فيه الا أن يكون الجمهور هم أصحاب الحواشى وأكثرهم يختار هذا الرأى فى تحديد المكنية واطلاق الجمهور عليهم ليس صحيحا لأنهم هم أنفسهم الذين يطلقون على هذا الرأى رأى السلف أو رأى الجمهور فلا بد من أن يكون الجمهور غيرهم ثم ان كلام السلف أعنى جماعة المشتغلين بهذه الدراسة قبل عبد القاهر والزمخشرى لم تكن لهم آراء بينة كما أشار عبد القاهر وانما هى اشارات ليس رأى الزمخشرى أولى بها من رأى عبد القاهر لأنها عامة ويمكن أن تكون أساسا لكل هذه الآراء فى هذا الموضوع وان كنت أميل قليلا الى كلام عبد القاهر)(١٠) ٠

وقد أفاد البلاغيون من كلام الزمخشرى حول الآية السابقة أن قرينة المكنية قد تكون استعارة تصريحية ولا يجب أن تكون استعارة تخييلية الا أن يدعى أنها تصريحية باعتبار المعنى المقصود فى الحالة الراهنة وتخييلية باعتبار الاشعار بالأصل (١١) ٠

قال الزمخشرى : (النقض الفسخ وفك التركيب ٠ فان قلت من أين ساغ استعمال النقض فى العهد ؟ قلت من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة لما فيه من اثبات الوصلة بين المتعاهدين ومنه قول ابن التيهان فى بيعة العقبة يا رسول الله ان بيننا وبين القوم حبالا ونحن قاطعوها فنخشى أن الله عز وجل أعزك وأظهرك أن ترجع الى قومك وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشىء المستعار ثم يرمزوا اليه بذكر شىء من روادفه فينبهوا بتلك الرمزة على مكانة ونحوه شجاع يفترس أقرانه وعالم يغترف منه الناس ٠٠)(١٢) ٠

---

(١٠) التصوير البيانى ٢٥٩ ٠
(١١) شروح التلخيص ٤/١٦٠ ٠
(١٢) الكشاف ١ ٠

فالحبل مستعار محذوف للعهد ومرموز اليه بشىء من لوازمه وهو النقض وقد لوحظ أن الزمخشرى يجرى فيه استعارة تصريحية تبعية باستعارته للابطـــال والذى ســـوغ هذه الاستعارة فى القرينـــة هو تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة المكنيـــة فالعلاقة بين العهد والحبل هى التى آنست القـــول باجراء الاســـتعارة فى الرادف ولذلك ترى أن اجراء الاستعارة فى قرينة المكنية ليس على اطلاقه وانما وضع البلاغيـــون لذلك ضـــابطـــا وهو : (ان كان للمشبه فى المكنى عنهـــا لازم يشبه ما يرادف المشبه به كانت تلك القرينة منقولة استعارة تحقيقية كما فى ينقضون عهد الله وشجاع يفترس أقرانه وان لم يكن للمشبه لازم يشبه الرديف كانت القرينـــة تخييلية كمـــا فى أظفار المنية)(١٣) ٠

والأولى أن تبقى هذه الروادف على حقيقتها دون اجراء اســـتعارة فيهـــا حتى تعطى التخييل المطلوب فى الاستعارة المكنية فنتخيل أن العهد فعـــلا حبل له خصائصه من النقض والابرام وأن الشجاع فعـــلا أســـد له خصائصه من الافتراس والفتـــك وبذلك يتحقق الدمج بين الطـــرفين ويظهران بالادعاء شـــيئا واحـــدا أما لو قلنـــا ان المـــراد من الآية — يبطلون عهد الله — وفى المثال — شـــجاع يبطش أقرانه فليس هنـــا ذاك التخييل هناك ومن ثم فلا حاجة الى القول باستعارة مكنية فى العهـــد أو الشجاع لأن الكلام يستقيم بالحمل على الحقيقة ٠

وأما الســـكاكى فيراها لفظ المشبه المستعار للمشبه به دالا على ذلك بنصب قرينـــة تنصبهـــا وهى أن تنسب اليه وتضيف شـــيئا من لـــوازم المشبه به (١٤) ٠

يوضـــح ذلك الدسوقى فيقول : (وتقرير الاســـتعارة بالكناية فى المثال المذكور — أى فى قول أبو ذئيب — واذا المنيـــة أنشبت أظفارها — على مذهب الســـكاكى أن يقال شبهنـــا المنيـــة التى هو الموت المجـــرد عن ادعـــاء السبعيـــة بالســـبع الحقيقى وادعينـــا أنهـــا فرد من أفراده وأنهـــا غير مغـــايرة له وأن للســـبع فردين فرد متعـــارف وفرد غـــير

---

(١٣) شروح التلخيص ٤/١٦٠ ٠
(١٤) مفتاح العلوم ١٧٩ ٠

متعارف وهو الموت الذى ادعيت له السبعية واستعير اسم المشبه وهـو المنية لذلك الفرد الغير المتعارف أعنى المـوت الذى ادعيت له السبعية فصح بذلك أنه قد أطلق اسم المشبه وهو المنية الذى هو أحد الطرفين وأريد به المشبه به الذى هـو السبع فى الجملة وهـو الطرف الآخر) (١٥) •

وكأنه يقيس هذا الاجراء على ما ادعيناه فى التصريحية فى تشبيه الرجل الشجاع بالأسد وادعينا أنه فرد من أفراده وداخل فى جنسه وكأن أفراد الأسد نوعان • نوع متعارف وهو الحيوان المفترس ونوع غير متعارف وهو هذا الرجل الذى برز فى صورة الأسد والذى تعينه القرينة •

والواقع أنه قياس مع الفارق لأن المشبه به فى التصريحية مستعمل فى غير ما وضع له ولكن المنية المستعارة هنا للسبع المفترس فمهما كانت درجة الادعاء فى أنها من أفراد السبع غير المتعارف أو هى السبع الذى فى صورة المنية فانها لم تخرج عن حقيقتها وهذا مما يقطع به السكاكى فقد قال — المراد بالمنية فيما ذكر الموت بادعاء السبعية لها فقد اعترف بأن المراد فى نفس الأمر الموت وأما ما ذكر من ادعاء السبعية لها فلا يخرجها عن معناها الحقيقى اذ الادعاء لا يخرج الأشياء عن حقائقها (١٥) •

وأيضا استعمال المنية المطلقة فى المنية المقيدة يحتمل أن يكون من باب المجاز المرسل الذى علاقته الاطلاق والتقييد والدليل اذا تطرق اليه الاحتمال سقط به الاستدلال كما يقولون • وأما قرينتها عنده • اما أن تكون استعارة تخييلية واما أن تكون استعارة تحقيقية واما أن تكون حقيقة •

وأما الاستعارة التخييلية فهى — أن تسمى باسم صورة متحققة صورة عندك وهمية محضة تقدرها مشابهة لها (١٧) •

---

(١٥) شروح التلخيص ٤/٢٠٥ •
(١٦) شروح التلخيص ٤/١٠٦ وما بعدها •
(١٧) مفتاح العلوم ١٧٨ وحاشية الانبابى ٢٩٨ وما بعدها •

ففى تشبيه المنيـة بالسـبع فى اغتيـال النفوس وانتزاع الأرواح بالقهر والغلبة أخذ الوهم فى تصـويرها بصـورة السبع ويخترع لهـا من الهيئـات والأشـكال ما به يكمل وجه الشبه فتخيـل لهـا أظفـارا واستعار الأظفار المحققة للأظفار المتوهمة •

وفى تشبيه الشـمال بالانسـان يأخذ الوهم فى تصويرها بصـورة الانسـان ويخترع لهـا شيئا شـبيها باليـد فى الانسـان ويطلـق — اليد — المحققة على — اليـد — الوهمية •

ومعتمد هذا الرأى كمـا نرى على ابراز ناحية التشكيل والتخييل فى هذا الضرب وأن الأشياء فيه تتحول الى صورة ينهض الخيال بابداعها وتكاملها واختراع هذه النواحق لهـا فيخترع لليل شيئا يشـبه الكـاهل وللدهر شيئا يشبه الحبائل وللصبا شـيئا يشبه الظهر وهكـذا تجتهـد القـوة المتخيلة وهى قوة لا يحد نشـاطها فى خلق الأشـياء وتصويرها طبقا لضروب الحسن وألوان الشعور) (١٨) •

وهذه الاستعارة التخييلية لا يجب أن تكـون مقارنة للمكنية عنده بل قد تنفك عنهـا كمـا فى قوله • أظفار المنيـة الشبيهة بالسـبع فتكت بفلان ولكن رد عليه بأن الأظفـار من باب ترشـيح التشـبيه وليس فى المثال استعارة لا مكنيـة ولا تخييلية •

وأما كون القرينة استعارة تحقيقية كمـا فى قوله تعالى : **((يا أرض ابلعى ماءك))** على ما ذكره هو من أن البلع استعارة عن غـور المـاء فى الأرض والماء استعارة بالكناية عن الغذاء (١٩) •

فشبه المـاء بالغذاء فى النفع وحفظ الحياة وادعى أنه هـو وليس شيئا غيره واستعير الماء للغذاء على طريق المكنية • كمـا شبه غور الماء فى الأرض بالبلع الذى هو ادخال الغـذاء فى الجـوف فى مطلـق الاخفـاء والتغييب عن الأبصـار وتنوسى التشـبيه وادعى أن المشـبه من جنس

---

(١٨) التصوير البيانى ٢٦٣ •
(١٩) الرسالة البيانية ٢٩٨ •

المشـــبه به واستعير المشبه به للمشبه واشتق من البلـــع بمعنى الغـــور ابلعى بمعنى غـــورى استعارة تحقيقية تبعيـــة •

وأما الحقيقة فكالانبات فى مثل — أنبت الربيع البقل أو الهـــزم فى نحو هزم الأمير الجنـــد وذلك على مذهبه من رد المجاز العقلى للاستعارة المكنيـــة •

وقد أوضحت ســـلفا أن هذه الروادف يجب أن تظل على حقائقهـــا وأن اثباتها للمشبه يكـــون هو المصـــدر لاثارة التخييلات والتشـــكيلات حيث تضفى على المشبه صـــورة المشـــبه به • ولذلك رأى عبد القـــاهر أن جعلها مستعارة لأشياء شبيهة بها من باب الاستحالة • فقـــال فى بيت لبيـــد — انك لا تستطيع أن تزعم أن لفظ — اليد — قد نقل عن شىء الى شىء •••

وانمـــا المعنى على أنه أراد أن يثبت للشمال فى تصريفها الغداة على طبيعتها شبه الانســـان قد أخذ الشىء بيـــده يقلبـــه ويصرفه كيف يريد فلمـــا أثبت لهـــا مثل فعل الانسان باليد استعار لها اليد وكما لا يمكنك تقدير النقل فى لفظ اليـــد كذلك لا يمكنك أن تجعل الاستعارة فيه من صفة اللفظ •

وكذلك فى بيت الحمـــــاسة :

اذا هزه فى عظـــم قـــــرن تهللت

نواجذ أفواه المنـــايا الضـــواحك

فانه لما جعل المنـــايا تضحك جعل لهـــا الأفواه والنواجذ التى يكون الضحك فيها وكبيت المتنبى :

خميس بشرق الأرض والغرب زحفـــه

وفى أذن الجـــوزاء منـــــه زمـــام

لـــا جعل الجوزاء تســـمع على عادتهم فى جعل النجـــوم تعقـــل ووصفهم لهـــا بمـــا يوصف بها الأناسى أثبت لهـــا الأذن التى بها يكون الســـمع من الأناس فأنت الآن لا تستطيع أن تزعم فى بيت الحماسة أنه

استعار لفـــظ النواجذ ولفظ الأفواه لأن ذلك يوجب المحال وهو أن يكون فى المنــايا شىء قد شبهه بالنواجذ وشىء قد شبهه بالأفواه ٠٠٠٠ وكذلك لا تستطيع أن تزعم أن المتنبى قد استعار لفظ الأذن لأنه يوجب أن يكون فى الجوزاء شىء قد أراد تشبيه بالأذن وذلك من شنيع المحال (٢٠) ٠

وأما أمثلة المجــاز العقلى فمجازها فى الاثبات أو النسبة بين الفعل والفاعل والألفـــاظ مستخدمة فى حقائقها وسنتبين خطأ رد المجاز الى غيره فى حديث خاص عن غرض المجــاز وأهميته فى تنــويع التســـمية ٠

وفى مذهب رابع ذهب العصام فى الأطــول الى جعــل الاســـتعارة المكنية من باب التشبيه المقلــوب ولكن لم يســـلم له ذلك ورد بأكثر من وجـــه (٢١) ٠

جمال التصوير بالاستعارة المكنيـــة

يظهر الأثر الفنى لهـــذه الاستعارة فى مجـــال التطبيـــق حيث نرى التخييلات الفنيـــة الرائعة والخيال الحى يسرى فى أوصال الأشياء التى ليست حيـــة فيحيلها الى أجســـام ناميـــة لهـــا وعى وحس وحركة وتأثر مثلمـــا يكون للنفس الانســـانية (وهـــذه الخصـــوصية أعنى اضـــفاء الصفات الانسانية على الأشياء من خصـــائص النفس الانســـانية التى تنزع فى كثير من الحالات الى أن يصير ما حولها داخلا فى جنســـها وكأنها جادة فى أن تحول الأشـــياء كلهـــا الى أناس لتعيش معها فى وئام ولتبثها سرائرها أو لتبــوح لهـــا الأشـــياء بدواخلهـــا ٠ هى تنزع الى اخراج الأشـــياء من حالة الصمت الذى ينطوى على رهبـــة وغمـــوض الى حالة النطق المبـــين) (٢٢) ٠

ومن هذه الصـــور التى تفيض بالعطـــاءات النفســـية والمـــواقف

(٢٠) دلائل الاعجاز ٣٩٤ ، وما بعدها وينظر ص ٤١٣ ٠
(٢١) ينظر الرسالة البيانية ٢٨٤ ٠
(٢٢) التصوير البيانى ٢٧٤ ٠

الشـــاجية صور مخاطبة الجمادات والأشـــياء التى لا يتأتى منها الخطاب كصورة الأطلال فى قول النابغـــة :

وقفت فيهـــا سراة اليـــوم أسألهـــا
عن آل نعم أمـــونا غـــير أسـفار
فاســـتعجمت دار نعـــم ما تكلمنـــا
والـــدار لو كلمتنـــا ذات أخبـــار

وقـــوله :

وقفت بهـــا القلـــوص على اكتئـــاب
وذاك تفـــــارط الشــــوق المعنى
أسائلها وقد سفحت دمـــــــوعى
كأن مغيضـــهن غـــروب شـــن (٢٣)

وقول عنترة (٢٤) :

يا دار عبلـــة بالجـــواء تكلمـــى
وعمى صـــباحا دار عبلة واســـلمى

وقـــال :

وقفت يومـــــا به أســـــائله
والدمـــع منى الحثيث ويســـــتبق
يا ربع أنى تقـــــولهم ســـــلكوا
بأى وجـــه تراهم انصـــــــفقوا

والشعراء بهذه الوقفات التى يقتاتون فيهـــا لوعة الحـــزن ومرارة الفراق يفرغون ما فى حناياهم على هذه الآثار من شوق وحياة واحساس وكأنهم يصيغونها صـــياغة جـــديدة بعيـــونهم الشـــاعرة وبصـــيرتهم الملتاعة حتى تتهيأ هذه الديار لبث الأخبار وأحاديث الصبا لعلهم يتخففون

---

(٢٣) ديوانه ٢٠٢/١٢٥ ٠
(٢٤) شرح القصائد الطوال ص ٢٩٦ ٠

من نكبات الدهر وأثقــال البين • الأطلال هنــا بعــد هــذا الاضــفاء الانســانى صــارت فى أثواب أشخاص تتأتى معها المســائلة ويكــون منها الجواب • ويخاطبهــا الشاعر مخاطبة الانســان للانسان وهذا هو معنى صيرورة المشبه والمشبه به بالدمج والادعاء شيء واحــد فالشــاعر ليس أمامه أطــلال جامدة وانمــا هى آثار تحمل أجمل ذكريات الرتوع واللعب — ولذلك يراها باحســاساته الباطنية وبما اختزن فى مخيلته من شــعور وانفعالات فتخيل وادعى أن فى هذه الأطلال مثل ما فى الانســان من منــازع السؤال والتكلم أو الاستعجام •

وعلى هذا المنوال نسج شوقى فى قصيدته (على سفح الأهــرام) فقــد وقف يناجيها ويناديها ويبثها مشاعره حيث قال :

(قف ناج أهرام الجلال وناد)

وفى قصــيدته (أبو الهول) أخذ ينــاديه وكأنه انســان يخاطبــه ويترجم له عن مشــاعره • قال :

أبا الهــــول أنت نديم الــــزمان
نجى الاخـــــوان سـمير العصر
بســــــطت ذراعيـــــك من آدم
ووليت وجهك شــطر الــــزمر (٢٥)

ويقول حافظ :

سائلوا الليــــل عنهم والنهــــارا
كيف باتت نسائهم والعــــذارى (٢٦)

وساحة السؤال هنــا أوسع من مســاءلة الأطلال اذ أن الأطــلال لا تعنى ســوى الشــاعر المحزون الــواقف بهــا ولكن فى بيت حافــظ كان الحريق مدمرا قد أتى على البلد بأكملها ولذلك فهو يتجــه الى الليــل الذى يحل بكل مكان والى النهار الذى يطلع على كل بلد بالسؤال والخطاب ويســند المســاءلة الى الجمع المبثــوث فى كل مكان وكأن الليل والنهار

---

(٢٥) الشوقيات ١/١٣٢ •
(٢٦) ديوانه ١/٢٥٠ •

أحياء ومن شـــهود عيـــان الحــــادثة فهما جـــديران بأن يخبرا الخبر اليقـــين •

وقال البحترى يخاطب الريح :

ألا ياهبـــوب الريح بلغ رســـــالتى
سليمى وعــــرض بى كأنك مـــازح
وعنى أقرئهـــا السلام وقل لهـــا
زعمـــت بألا يكتـــــم السر بائح
فان ســـــألت عنى سليمى فقل لهـــا
به غبر من دائه وهـــــو صـــالح (٢٧)

انه يشـــخص الريح ويضفى عليه الصـــفات الانســـانية فينـــاديه ليكون ســـفيرا له يحمل رســـالته الى سليمى ويعرض به عنـــدها وكأنه يمزح فى حديثه ويقرؤها الســـلام وأن يجيبهـــا عند سؤلها عنه كل ذلك اضـــفاء لصـــفات الأحياء على هـــذا الريح الأثيرى حتى جعله صـــاحب الســـفارة بينـــه وبين ســـليمى • فهو الانسان المبلغ عنه رســـالته •
وقال بعضهم فى انبرامكة يخاطب الجود والندى :

ســـألت النـــدى و الجود مالى أراكما
تبدلتمــــــا ذلا بعــــــز مـــؤبد
وما بال ركن المجـــد أمسى مهـــدما
فقـــالا أصـــبنا بابن يحى محمـــد
فقلت فهـــلا متمـــــا عنـــد مـــوته
فقد كنتمـــا عبـــديه فى كل مشـــــهد
فقـــالا أقمنا كى نعـــزى بفقـــد
مســـافة يوم ثم نتلـــوه فى غد (٢٨)

فالنـــدى والجود حيان مخزونان لموت سيدهما الذى كانا بســـيران

(٢٧) ديوان البحترى ١ / ٤٦١ •
(٢٨) نقلا عن دلائل الاعجاز ص ٣٠٢ •

فى ركابه . شخصهمـــا الشاعر وتوجه اليهمـــا بالسؤال عن عدم غروبهما عنـــد موته فكان جوابهمـــا جواب انحى الذى فقـــد كل أمل فى الحيـــاة وخبـــا كل بصـــيص فى عينـــه . فهما لا يقيمـــان الا ريثما يتقبـــلان العزاء فيـــه يوما ثم يتبعانه فى غدهم .

وعلى مثال هذه المحـــاورات قال شـــوقى يخـــاطب القلب فى يوم وداع :

ســـألت القلب عن تلك الليـــــــالى
أكن نياليـــــــا أم كن ســـــــــــاعا
فقـــال القلب بل مـــــرت عجـــــالا
كدقاتى لذكـــرها ســـــــــــراعا (٢٩) .

فتصـــور السؤال والقول من القلب على سبيل التخييل والادعاء فى كـــونه انســـان يحادث آخر .

وهكذا تلعب الاستعارة المكنيـــة دورا هاما فى خلق الأشياء خلقـــا فنيـــا جديدا يقـــوم على هذا التخييـــل والتشـــكيل الذى يقـــرب بين المختلفـــات وتتعـــانق فيـــه المتنـــافرات فتبـــدو متحدة متجانســـــة بل ويعلن لازم المشبه به عن هذا الاتحاد ويفصـــح عن هذا التضام بين الطرفين واستعارة المشبه به للمشـــبه وحذفه وذكر خاصة من خواصـــه ليـــؤدى الفرع دور الأصـــل فى الابانة عن الغرض المقصـــود . (وليس فى الشـــعر أحلى ولا أعذب من هـــذه المواقف التى تتحول فيها الأشياء عن طبـــائعها وأوصـــافها المألوفة لتصـــير أشـــياء جديدة بعـــد ما نفثت فيها روح الشعر من فيض حياتها وانمـــا يكون ذلك حـــين يهتز الشـــاعر بالشعور القوى والانفعال الصادق أو قل حين تدور حميا الشعر برأســـه فتتحرك الحياة من حوله حركة ثانية)(٣٠) .

وذلك كان حال الشعراء فى تلك المخاطبات التى اتسعت ما فى الكون من الليل والنهـــار والريح والأطلال وتمـــاثيل الأحجـــار والقلب وكذلك الأشجار كمـــا فى قول ليلى : (أيا شجر الخابور ما لك مورقا ...) .

---

(٢٩) الشوقيات ١/١٥٤ .
(٣٠) التصوير البيانى ٢٧٣ .

فقد استطاع الشعراء أن يحركوا هــذه العناصر من حولهم حركات تؤثر فى النفس وتستولى على الاحســاس • وهذا الذى أثارته هــــذه الاستعارة غفل عنــه ابن الأثير وأبو هــلال حيث اعتبر الأول أن مخاطبة الطلول ومســاءلة الأحجار من باب التوسع كمــا اعتبره الثانى من فاسد التصوير (٣١) • وهذه مجانبة للصواب •

وهناك متصرف آخر فى استخدام هذه الاستعارة وهــو أن يعمــد الشــاعر أو المتكلم الى المعــانى التى لا تدرك الا بالعقــل فيجســدها ويبرزها فى صــورة المحســوسات التى ترى وتحس • أنظر الى قــول المتنبى يصــف قصــائده (٣٢) :

وعنــــدى لك الشرد الســـــائرا
ت لا يختصـــــصن من الأرض دارا
قـــواف اذا سرن عن مقـــــــولى
وثبن الجبـــال وخضن البحـــــارا

فالشــاعر يصــور قصــائده بصــورة الخيول الماهرة أو البعير الشــارد الذى لا يستقر فى مكان أو يختص ببلد دون آخر ولكن سرعان ما تجد فى السير بمجرد خروجهــا عن لســانه وأثبت لهــا وثوب الجبال وخوض البحــار حتى يكــون لهــا من الذيوع والانتشــار ما تبلــغ به الآفاق وذلك يوحى بقــوة شعره وعبقرية شــاعريته وجــزالة ألفــاظه وعميــق معانيه ولذلك كان أهل البــادية بشــعره أعجب •

وكذلك قول جرير :

وجهزت فى الآفـــاق كل قصــــيدة
شرود ورود كل ركب تنـــازع (٣٣)

وكذلك تنــاول الشعراء تصوير الخلافة • فالبحترى يقول (٣٤) :

---

(٣١) ينظر المثال السائر ٢١٩ والصناعتين ٨٦ •
(٣٢) ديوان المتنبى ١٩٨/٢ •
(٣٣) ديوان جرير ٤٥٣ •
(٣٤) نقلا عن الموازنة ٣٣٣/٢ •

سرت تتبغـــاه الخـــلافة رغبـــة
اليــه بأوفى قصـــدها واعتمـــادها
فمــا علقته خبــط عاشـــية الدجى
ولكنهـــا إختـــارته بعـــد ارتيادها

فهو يجعلها تســير رغبة عن قصـــد الى المهـــدى وتختـــاره بعـــد الارتياد عن طوعيـــة لا عن قسر وتخبــط ، وبينمـــا يثبت لهـــا البحترى هذا البحث والاختيـــار يجعلها أبو تمـــام تلوذ بحقـــوى المعتصـــم وقد أحاطت رماحه بخدرها فى قوله :

فلاذت بحقــويه الخـــلافة والتقت
على خدرها أرماحه ومناصـــنه (٣٥)

والآخر يجعلها كالعروس المزدانة بحليهـــا وأثوابها الفضـــفاضة فى قوله :

أتته الخـــلافة منقـــادة
اليه تجـــرر أذيالهـــــا

وهؤلاء الشعراء قد تنـــاولوا الخلافة فى حال عظمتهـــا واقبالهـــا وشبابها ومن ثم كانت الاستعارة تفـــوح بذلك وبخاصة هذه اللوازم التى كانت تضـــاف اليها إذ هى المؤشر الحقيقى لموضـــع البؤرة المعينـــة التى يقصـــد الشـــاعر وضـــع المشبه فيهـــا • ولذلك كان الفـــرق واضـــحا بين التصـــوير السابق وبين قول شوقى فى الخلافة :

كفنت فى ليـــل الـــزفاف بثـــوبه
ودفنت عنـــد تبلج الاصـــباح
شيعت من هلـــــع بعبرة ضـــاحك
فى كل ناحيـــة وسكرة صـــاح
ضجت عليك مـــآذن ومنـــــابر
وبكت ممـــالك ونواح (٣٦)

---

(٣٥) المرجع الســابق ٢/٣٣٢ •
(٣٦) الشوقيات ١/١٠٦ •

ان تصوير شوقى هو تصوير التأبين • تشيع فيه النبرات الحزينة على غروب الخلافة من العالم الاسلامى • فالمشهد هنا مشهد جسم محمول الى مثواه الأخير وقد كفن بليل وشيع فى كل ناحية ودفن فى الاصباح وضجت من أجلها من تربطهم بها وشائج انقربى الاسلامية من الممالك والمنبر والمئذنة •

ويصورون — المجد — بحيوان ذل بعد شموس وسخر بعد اباء كما فى قول البحترى :

علت هاشم من بعد ذلك كله

سنام العلا فوق الذرى والغوارب

لهم ذل صعب المجد يعلون ظهره

ويأبى سواهم أن يذل لراكب (٣٧)

فالعلاله سنام وذرى وغوارب و — المجد — له ظهر وقد ذل لهم بعد المعالجة والترويض حتى علون ظهره وهذه الاستعارة قائمة على تبيخل هذه المعنويات كالحيوانات التى يتوفرون على كيفية قيادتها وسياستها وما أشبهه هذا بقيادة الأمم •

والنابغة يجعل العيش الهزيل قليل الخير بعيرا مهزولا ذهب سنامه وانقطع لشدة هزاله فى قوله :

ونمسك بعده بذناب عيش

أجب الظهر ليس له سنام (٣٨)

والمشبه به عند النابغة بعير أجب الظهر أى لا سنام له كأن سنامه قد قطع مناسب للمشبه الذى هو العيش السىء الذى لا خير فيه بينما عيش البحترى كان رغدا كثير الخير مقبلا عليه ولذلك جعله متبسما ضاحكا فى قوله :

---

(٣٧) ديوان البحترى ١/٢٣٦ •
(٣٨) ديوان النابغة ١٠٦ •

ولرب عيش قد تبســم ضــاحكا

عن طرتى زمن بهن مــــدبج (٣٩)

وعلى طريق انتزاع المشبه به من محيط الحيوان قال أمرؤ القيس :

فصرنا الى الحسنى ورق كلامنـــا

ورضت وذلت صعبة أى اذلال (٤٠)

فهو يصـــور محبوبته فى تأبيها عليــه وتفلتها منه ثم تعطفها عليــه وتمكنه من مقادتها بالحيوان الشرود النافر الذى يلين ويذل بعد الترويض والفتل له فى الذروة والغارب •

وكذك حافظ يقول فى عمريته :

لا تمطتى شهوات النفس جامحـــة

فكسرة الخبز عن حلواك تجزيها (٤١)

فهو يصـــور شهوات النفس بالحيوان الجامح الذى يورد راكبــه موارد الهـــلاك وكذلك الشـــهوات فيها شىء يشـــبه هذا الجموح والبعد عن طريق الجـــادة • فاذا ما سار الانســـان وراءها أوقعته فى مـــوارد الهلاك ولذلك فهو يحذرها من امتطاء مثل هذا الحيوان •

وقد تتفق عدة استعارات فى المشبه وفى المشبه به ه ولكن تكون لكل منهـــا وجهـــة يبرزها لازم المشبه به وينهض بهـــا فى تصـــوير المشـــبه بصورة المشبه به على سبيل الفرض والتقـــدير والادعاء كمـــا فى قـــول البحترى :

بك اشـــتد عظم الملك فيهم فأصبحت

تقر رواسيه وتعلـــو مراتبـــــــه

فانه يصـــور الملك بصـــورة انســـان ولو بحثنا عن عـــلاقة ظاهرة تجمع الطرفين لأعيـــانا ذلك ولكن الشاعر افترض فى الملك صورة الانسان

---

(٣٩) ديوان البحترى ١/٤٠٠ •
(٤٠) شرح القصائد السبع ٣١ •
(٤١) ديوان حافظ •

على سبيل التخييل والادعاء ولأنه يصور عظمة الملك واستقرار رواسيه وعلو شأنه فقد أخذ من الانسان ما يقوم به بدنه ويصلب عوده وتقوى أطرافه وهو العظم فقال — اشتد عظم الملك .

وأما أبو تمام فيقول :

بيمن أبى اسحاق طالت يد الهدى
وقامت قناة الملك واشتد كاهله

ونحو قول البحترى :

أقام قناة الملك بعد اعوجاجها
وأربى على شغب العدو المشاغب (٤٢)

فانهما يتحدثان عن الملك الذى يقيم له دولة ويقضى على المناوئين وأهل الشغب ويضع الأمور فى نصابها فيستقيم الأمر بعد اعوجاج ويهدأ بعد لجاج . فصورة الانسان مفترضة فى الملك على هذه الشاكلة تخييلا وادعاء وكان من المناسب أن يكون اللازم دالا على معنى السيطرة واحكام الأمر وهذه الخصوصية تجدها فى — القناة .

وفى قول آخر لأبى تمام :

ساس الأمور سياسة ابن تجارب
رمقته عين الملك وهو جنين

فصورة الانسان قوى الملاحظة دقيق المراقبة نافذ البصر والبصيرة افترضها الشاعر فى الملك ومن هنا أضاف له عينا للدلالة على هذا المعنى المقصود .

والملاحظ على هذه الاستعارات أنها تتكامل وتتآزر فى رسم صورة الملك من حين نشأته وثبات أمره ووقت سيطرته على من حوله وقضائه على الشغب واستمراره على قيوميته بالملاحظة والمراقبة لما يصلح شأنه ويرفع مكانته ولذلك كان لازم المشبه به المضاف للمشبه فى كل منها له أكبر دلالة على المعنى المقصود من التعبير . فهو فى الأول (عظم الملك) وفى الثانى (قناة الملك) وفى الثالث (عين الملك) .

---

(٤٢) هذه الأبيات من الموازنة ٢/ ٣٤٠ وما بعدها .

وفى صور كثيرة لهذه الاستعارة نجد اللازم لفظ — اليد — وهو يدل على معانى كثيرة مثل • انعبث بالشىء أو الفتك به أو العطاء • وكل هذه المعانى يحددها السياق وتفيض بها الاستعارة • فـ (يد الشمال) تعبث بالقرة و (يد البلى) تعبث فى ديار الأحبة و (يد المنية) تفتك بفلان و (يد الهدى) طالت بالعطاء ••••• وهكذا يفعل اللازم فعله فى توجيه هذه الاستعارة وقد أوضحنا فى دراسة سابقة أثره على الاستعارة من حيث الحسن والقبح وأن كثيرا من استعارات أبى تمام التى عيبت عليه قد بنيت على شبه قريب ولكن لما كانت لوازمها مغربة فى بعدها وليست ملتئمة مع المشبه ردها النقاد (٤٣) •

ولأساسية اللازم فى هذه الاستعارة نرى الشىء الواحد قد يستعار باعتبارين مختلفين تبعا لتعدد لوازمه كما فى قولهم (رفعت عن معارفك قناعا وغلقا) فيمكن أن يقال شبه المعارف بالعرائس المحجة واستعارها لها وحذفها ورمز اليها بشىء من لوازمها وهو القناع ويمكن أن يقال شبه المعارف بالنفائس المخزونة واستعارها لها وحذفها ورمز اليها بشىء من لوازمها وهو الغلق (٤٤) •

أقسام المكنية :

اشتهر على الألسنة تقسيم الاستعارة التصريحية الى أصلية وتبعية حتى ظن أن هذا التقسيم خاص بالتصريحية ولكن المتتبع لتصرفات الاستعارة المكنية وكذلك التخاريج التى تبرز من خلالها وبخاصة فى رحاب التبعية يجد أن التقسيم الى الأصالة والتبعية يجرى فيها كذلك •

فأما المكنية الأصلية • ففى الأمثلة الكثيرة التى عرضنا لها بالتحليل حيث كان اللفظ المشبه اسما كما فى (المنية والأطلال والمنايا والجوزاء والقصائد والريح والقلب والملك ••••) •

---

(٤٣) التصوير البيانى •
(٤٤) الرسالة البيانية •

وأما المكنية التبعية • فقد مثل لهـا الفزى بمثال مصـنوع وهـو أعجبنى اراقة الضـارب دم زيد حيث شـبه الضرب الشـديد بالقتـل بجامع شـدة الايلام فى كل واستعير القتل الضرب الشديد واشـتق من القتل بمعنى الضرب قاتل بمعنى ضارب ثم حـذفه ورمز اليـه بشىء من لوازمه وهو الاراقة •

وعلق عليه بقوله (ونعلهم لم يتعرضوا لها لعدم وجـدانهم اياها فى كلام البلغـاء — وقال الانبابى تعليقـا على قوله — لعـدم وجـدانهم اياها — أى عى وجه التعيين أو انتبادر فيها فلا يقـال انها متحققـة فى أبلغ كلام على تقرير المكنيـة فى مدخول اللام فى قوله تعالى : « **ليكـون لهم عدوا وحزنا** » وجعل اللام قرينة لهـا كمـا هو مختار السكاكى(٤٥) أى أننـا لو أخذنا بمذهب السـكاكى فى رد التبعية الى المكنية فى هـذه الآية لأمكننـا الحصول على استعارة مكنية تبعية لكون (عـدوا وحزنا) مشتقين والموجود فى الكلام المشبه وأما المشبه به فمحذوف ومرموز اليـه بشىء من لوازمه وهو (اللام) •

وكما سبق فى الحديث عن الاستعارة التبعية فى زمن الفعل وبخاصة تلك الأفعال التى جاءت على غير مجيئها المعهود فى حيز أدوات الشرط مثل — إذا — و — لو — فقـد خرجنـا بعض الأمثلة على الاستعارة المكنية التبعيـة فى زمن الفعل حيث حذف الفعل الأصلى ورمز اليـه بشىء من لوازمه وهو الأداة •

---

(٤٥) حاشية الانبابى على الرسالة البيانية ٤٠٨ •

الأغراض هى الحاكمة بنوع المجاز

من المعلوم أن لكل تركيب غرضا خاصا يقصده المتكلم ولكل عبارة مدلولها الذى يفضى اليه السياق • فاذا أردنا أن نتعرف على ما يتضمنه الكلام من مجاز وما يحتويه من استعارة فان المرشد السليم الى هذا هو الاجتهاد فى التعرف على الغرض المقصود فى ضوء دلالات التركيب وسياق الكلام •

فقد تتشابه ظواهر الكلام ويظن للنظرة الأولى أن الغاية من نصبة الكلام واحدة وأن الأغراض متحدة أو متقاربة ولكن بالتنقيب فى سياق الكلام وأعطافه ومراميه ندرك أن الأغراض متباينة وأن المقاصد مختلفة • وقد نبه عبد القاهر على أن تفسير الصور على غير مراد الشاعر أو المتكلم يفسدها ويخرج بنا الى حديث تعافه النفس ويمجه الذوق ، وذلك فى تعليقه على بيت زهير الذى يعتبر العلم فى الاستعارة المكنية :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله
وعرى أفراس الصبا ورواحله

فهو يرفض أن تكون الأفراس والرواحل مستعارة على حد استعارة الأسد للرجل الشجاع أى على سبيل التصريحية الأصلية فليس هناك ذوات أو شبه ذوات حتى تستعار لها الأفراس والرواحل • والتفسير الصحيح لهذه الصورة لا يكون الا على سبيل المكنية أى — أنك أردت أن الصبا قد ترك وأهمل وفقد نزاع النفس اليه وبطل فصار كالأمر ينصرف عنه فتعطل آلاته وتطرح أدواته وكالجهة من جهات السير نحو الحج أو الغزو أو التجارة يقضى منها الوطر فتحط عن الخيل التى كانت تركب اليها لبودها وتلقى عن الابل التى كانت تحمل لها

قتودها) (١) •

ووصف التفسير الآخر وهو كـون الأفراس والـرواحل مسـتعار لدواعى النفوس وشهواتها أو للأسباب المتآخذة فى الحمل على الصـبا كالمـال والاخوان بالتكلف • ومن لم ينعم انظر فى الغرض من المتأخرين حملها على جهتى التخييل أو التحقيق •

ونحن لو نظـرنا الى تلك الثروة الضـخمة من الأمثلة التى استعرضناها فى المواقع المختلفة لوجدنا أن موطن المجاز يكمن فى المنطقـة التى أراد المتكلم أن يكشـف عنهـا اللثـام ويفـوح منهـا الغـرض التام • ففى قوله تعالى : « **يخرجهم من الظلمـات الى النور » نجد أن** نقطـة الاهتمام لا تتعلق بالحيز الـذى يبدأ منـه الاخـراج وينتهى اليه أى من الضلال الى الايمان فهذه هى الدائرة المعنيـة والتى تركز عليهـا الآية اذ هى المقصـودة من التشريع لتنقل الانسان من ضلاله الى الايمـان الذى يصير به شـيئا آخر • فهنـا يستحيل نقل المجـاز الى موطن آخر •

وكذلك الأمر فى قوله تعالى : **وآية لهم الليل نسلخ منه النهـار »** فان الآية التى تتعلق بهـا الموعظة الدالة والعبرة الهادية ليست فى هـذا الزمن الموسوم بالنهـار أو الليل وانمـا تتركز فى كيفية اخراج هـذا من ذاك اخراجا تدريجيـا لا يحس به أحـد أو يسـمع له ركزا ولذلك تركز المجـاز فى الفعـل (نسـلخ) دون غـيره من لبنـات التركيب فلو نقلنـاه الى الليل أو النهـار لفات الغرض المقصود ولخرجنـا الى شىء لا قيمـة فى تصـويره اذ لا معنى لتصـوير النيـل أو النهـار بحيوان يسـلخ • وبذلك يتأكد أن مجـازها تبعى فى الفعـل • ولا يمكن رده الى غيره •

وفى قوله تعالى — **بل نقـذف الحق على الباطل فيدمغه — نجد أن** الغرض الأصلى من الآية هو بيـان اذهاب الحق للباطل أى أن المجـاز تبعى فى الفعلين • وأما جعل الحـق كالقذيفـة التى يرمى بهـا البـاطل

---

(١) أسرار البلاغة ١/١٤١ •

فيمحقه وجعل الباطل كالشيء الهش الذى لا ثبات ولا بقاء أمام قذائف الحق المتوانية وصيحاته العالية فهو كالظل الذى يتبع المجاز الأساسى فى الآية حيث تترشح هذه المعانى الجانبية على الغرض الأساسى من القذف والدمغ وهذا شيء يفيض به جمال الاستعارة التبعية .

وفى قول الرسول ﷺ (كلما سمع هيعة طار اليها) نجد أن التصوير ينصب على الحالة التى يكون عليها المجاهد المخلص عندما يسمع نداء الحرب فلا يتثاقل الى الأرض وانما يخف عاديا اليها ولذلك كان الأنسب بالمقام جعل المجاز فى الفعل على سبيل الاستعارة التبعية وكون عدوه طيرانا هو الغرض الأساسى من التركيب وأما كونه كالطائر فشيء يتبع الغرض الأصلى وليس مقصودا لذاته حتى يكون من باب الاستعارة المكنية .

وأما فى قوله تعالى : **« ينقضون عهد الله » نجد أن الآية مسوقة** لبيان الأسباب الواصلة بين الله والناس والعهود الحافظة لهم من التبعثر فى أودية الهلاك أو التردى فى مجاهيل الهوى وانضلالات . فالغرض ينصب أساسا على هذا العهد الذى يجمع الناس على طريق الحق ويردهم الى الميثاق الأول الذى ألزموا به أنفسهم يوم أن قال لهم — **ألست بربكم قالوا بلى** — وكأن الآية تصور مدى الجرم الذى ارتكبه هؤلاء عندما لم يحفظوا أمانتهم وخانوا عهدهم الذى قطعوه على أنفسهم فالتفسير الأنسب والأنيق يستقيم مع الغرض المقصود بجعل موطن المجاز هو — العهد — على سبيل المكنية وجعل النقض قرينتها . والآية على هذا الوضع تجسد هذه العهود وتجعلها فى صورة المحسوسات المرئية بجعلها كالحبال التى تقع تحت بصر الانسان فى كل مكان . ويستخدمها فى جمع حاجاته وحفظها من التفرق أو الضياع ويستغنها فى صعوده وهبوطه حماية من الهلاك . كل هذه الأمور تنخلع على هذه العهود المعنوية التى تمنعه من التشتت فى الحال أو المآل وتمنعه من ضلال الدنيا وهلاك الآخرة .

وأما صرف المجاز من المفعول الى الفعل (ينقضون) فليس فيه هذا التخييل والتجسيم الذى أشاعته الاستعارة المكنية لأن الأمر

حينئــذ لا يعدو أن يكون المراد — يبطلون عهد الله — وهو أمر معنــوى بحت ٠

وكذلك الحال فى قوله ﷺ (ما تجرع عبــد جرعة أفضل عنــد الله عز وجل من جرعة غيظ يكظمها ابتغاء وجه الله تعالى) فقوله — جرعة غيظ — فيه تصــوير الغيظ بشراب مكروه المذاق لحرارته ولكنه حلــو المغبــة وكذلك المغتــاظ تتوالى عليه الكربات ومع ذلك يتقبلهــا بنفس راضــية وبقلب صابر فيجزى بغير حســاب ٠ فالمناسب جعل المجاز فى — غيظ — على سبيل المكنيــة ٠

ومثله قول الشــاعر :

شربنــا الغيــظ لو ســـقينا
دمــاء بنى أمية ما روينـــــا

وأما الشعر فمنه قول البحترى :

أتاك الربيع الطلق يختــال ضــاحكا
من الحســـن حتى كاد أن يتكلمـــا
وقد نبه النــيروز فى غســـق الدجى
أوائل ورد كن بالأمــــس نومـــا
يفتقها برد النـــدى فكــــأنه
يبث حديثا كان قبـــل مكتمــا (٢)

فالشــاعر يصــور الربيع وقد أقبل على الدنيــا ببروده الخضراء وحلله الســندسية وقد كســا الأشجار وفتق الأزهار وتعطر الــوجود بشــذاه حتى كاد حســنه يبين عن زمنه فى خيــلاء ٠ فالورود تعود الى نضرتها بعــد اليبس وكأنهــا تصحو من سبات وتتفتح أكمامها وكأنهــا تذيع حديثا بعــد كتمــان ٠ فعين الشــاعر هنــا تنصــب على الربيــع وما يحدثه فى عالم النبــات فصــوره بصــورة الانسان الذى يقبــل فى خيــلاء على سبيل الاستعارة المكنيــة ٠

---

(٢) ديوان البحترى ٤/٢٠٩٠ ٠

ولكن ابن جنى يصـور البهجة التى يحدثها والحسـن الذى ينشره فيجعنه ضحكا وبذلك يتجاوز الزمن (الربيع) الى أثره (الحسن) وذلك فى قوله :

رأيت محـاسن ضـحك الربيـع
أطـال عليهـا بكـاء السماء(٣)

وأبو تمـام تتركز عينه على الفاعل دون الفعل فى قوله :

ويضـحك الدهر منهـم عن غطارفة
كأن أيامهـم من حسـنها جمـع

فيشـبه الدهر بالانسان ويسـتعيره له ويحذفه ويرمز اليه بشىء من لوازمه وهو الضـحك فتفسر على سبيل المكنية .

ويرتد المجاز مرة أخرى الى الفعل دون الفاعل فى قول الشـاعر :

وقد ضـحك الشـيب فى لمتـى
فلم لا أبكى ربيـع الشـباب

فموطن المجاز هو الفعل (ضـحك) اسـتعارة لظهـور الشـيب وانتشـاره فهو الغرض من التعبير لأن المقصـود أن يصـور الحـدث أما فاعله فلا معنى لتصـويره بصورة الانسـان وبذلك تفسر الصـورة على سبيل التصريحية التبعيـة .

بل ان الغرض وسـياق الكلام ليوجهان الفعل الواحـد الى دلالات مجازية متعـددة وهنـا تكمن الدقة الفنيـة والأسرار البلاغيـة فى تلك المواد المتحـدة فى الوضـع والمختلفة فى دلالة المجاز . وقد تعرفنـا على شىء من ذلك فيمـا سـبق ونضرب هنـا مثلا واحدا نتبيان أثر الغرض لا فى تنـوع المجـاز فحسب بل وفى تنـوع الـدلالة المجـازية داخل دائرة الفعل الواحد .

ففى قوله تعـالى : **« أو من كان ميتافأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى النـاس »** نجـد أن الآية مسوقة لبيـان أثر التشريع الحكيـم فى

(٣) مقدمة ديوان المتنبى ٨٦ .

نقل الانســـان من جهله وضلاله الى الهـــداية والعلم فعبـــر عن الحـــالة الأولى — الضــــلال — بالموت وعن الحالة الثانية — الهداية — بالحياة • فالفعل — أحيـــا — تحدد المراد من مجازه فى ضوء الغـــرض المقصـــود من الآية •

وفى قوله تعـــــالى : « **فأحيينـــا به الأرض ...** » **نجـــد** أن الآية مســـوقة لبيـــان أثر المطر على الأرض فعبر عن حال الخصوبة والانبات بالحيـــاة فالفعل — أحيـــا — مستعار لهـــذه الخاصية •

ولكن عندما يتحدث الشـــاعر عن أطلال محبوبته فيقول :

وتحى الروامس ربعهـــا فتجـــــده
بعد البلى وتميته الأمطـــــــــــار

نجد أنه استعار الفعل — تحى — لحالة الكشـــف والظهور لهـــــذه الأطلال • كمـــا استعار الفعل — تميت — لحـــــالة الطمس والعفـــــاء فالغرض حدد المجاز المراد من الفعلين •

وفى قـــول البارودى :

ونادى المنادى للصـــلاة بســـــحرة
فأحيـــا الورى من بعد طى ونشر(٤)

نجد أنه يتحدث عن نداء للصـــلاة فى الســـحر والنـــاس نيـــام فيســـتعير الفعل — أحيـــا — لحالة الاستيقاظ والقيـــام من النوم لتلبية المنـــادى وبذلك حدد المقـــام المجاز الذى ينصرف اليه الفعل •

وفى مقام آخر يتحدث عن دعائم دوام الملك واستقراره فيقول :

هيهـــات يحيا الملك دون مشـــــورة
ويعز ركن المجـــد ما لم يعمـــد(٥)

فاستعار الفعل — يحيـــا — لحالة الاســـتقرار والـــدوام فحـــدد الغرض الدلالة التى ينصرف اليها مجاز الفعل •

---

(٤) ديوانه ٢/٧ •
(٥) ديوانه ١/١٨٣ •

وهكذا تتحد مادة الفعل ويتنوع مجازه تبعا للأغراض المسوقة لهـا الكلام • كمـا رأينـا فى الفعل — أحيـا — فقد دل فى ظـلال هـذه الأغراض على هذه المعـانى المجـازية الخمسـة وهى هداية الانسـان وانبات الأرض وكشـف الطلل واستيقاظ النائم واسـتقرار الملك • ولو تتبعنـا مسيرته فى التراث لاحتاج الى بحث مستقل •

وبذلك يظهر لنـا أهمية التعرف على الغرض من سـياق الكـلام • فهو الذى يحكم على المجاز بأنه من باب الاستعارة التصريحية أو المكنية أو من المجاز العقلى ونقدم ذلك بين يدى بحث الاسـتعارة لنرد ما ذهب اليه السـكاكى من رد الاستعارة التبعية الى المكنية حيث قال (ولو أنهم جعلوا قسـم الاستعارة التبعية من قسم الاستعارة المكنيـة بأن قلبـوا فجعلوا فى قولهم نطقت الحال بكذا — الحال التى ذكرها عندهم قرينـة الاستعارة بالتصريح استعارة بالكنـاية عن المتكلم بوساطة المبالغـة فى التشبيه على مقتضى المقـام وجعلوا نسبة النطق اليه قرينة الاسـتعارة كمـا نراهم فى قوله — واذا المنيـة أنشبت أظفـارها — يجعلون المنيـة استعارة بالكنـاية عن السبع ويجعلون اثبـات الأظفـار لهـا قرينـة الاستعارة •••) (٦) •

ولكن الملاحظ أن الفعل — نطقت — الذى يجعله قرينـة للاستعارة المكنيـة سـيكون مجازا لأنه يرى أن الاستعارة التخييلية • يستعار فيها الأمر المحقق وهو هنـا النطق للأمر المتوهم على سـبيل التصريحيـة وهى لا تكون فى الفعل الا تبعية • وبذلك يتحتم تقسيم الاسـتعارة الى تبعيـة ومكنيـة •

ولذلك لم يسـلم مذهبه من الاعتراضات عليه فقد قال الخطيب عن كلامه السـابق (وفيه نظر لأن التبعية التى يجعلها قرينة لقرينتهـا التى جعلها استعارة بالكنـاية كنطقت فى قولنـا نطقت الحال بكذا لا يجـوز أن يقدرها حقيقة حينئذ لأنه لو قدرها حقيقة لم تكن اسـتعارة تخييلية لأن الاستعارة التخييلية عنـده مجاز ••••) (٧) •

---

(٦) مفتاح العلوم ص ١٨١ •
(٧) بغية الايضاح ٣/١٦٦ •

فسواء نظرنا الى مذهبه من حيث القرينة اللفظية أو القرينة الحالية أو اعتبار الحال والمقام فان ما ذهب اليه مردود رداً قطعيا ولذلك قال صاحب الكشف : (قد يكون تشبيه المصدر هو المقصود الأصلي والواضح الجلي ويكون ذكر المتعلقات تابعا ومقصود بالعرض فالاستعارة تبعية كما في قوله :

تقرى الرياح رياض الحزن مزهرة
اذا سرى النوم في الأجفان ايقاظا

فان التشبيه هنا انما يحسن أصالة بين هبوب الرياح عليها وبين القرى ولا يحسن التشبيه ابتداء بين الرياح والمضيف ولا بين الرياض والضيف ولا بين الايقاظ والطعام • نعم يلاحظ التشبيه بين هذه الأمور تبعا لذلك التشبيه ولا يصح أن يعكس فيجعل التشبيه بين الهبوب والقرى تبعا لشيء من هذه التشبيهات فلا يصح هنا رد التبعية الى المكنية عند من له ذوق سليم • وقد يكون التشبيه في المتعلق غرضا أصليا وأمرا جنيا ويكون ذكر الفعل واعتبار التشبيه فيه تبعا فحينئذ يحمل على الاستعارة بالكناية كقوله تعالى : « ينقضون عهد الله » فان تشبيه العهد بالحبل مستفيض مشهور وقد يكون التشبيه في مصدر الفعل وفي متعلقه على السوية فحينئذ جاز أن يجعل استعارة وأن يجعل استعارة مكنية كما في قولك نطقت الحال فان كلا من تشبيه الدلالة بالنطق وتشبيه الحال بالمتكلم إبتداء مستحسن • فظهر أن ما اختاره السكاكي من الرد مطلقا مردود)(٨) •

فاعتبار الحال والمقام من أقوى الردود على السكاكي ولذلك قال أستاذنا الدكتور محمد أبو موسى (ومن المناسب كما قلنا أن نفسر كل صورة بما يناسبها أو بما هو الأظهر فيها من طرق البيان فلا تلوى أعناق صور المجاز العقلي لتدخلها في باب الاستعارة المكنية كما لا تلوى أعناق التبعية لتدخلها أيضا في هذا الباب وانما تجتهد في أن تتعرف على شيات الصور وأوصافها ليسهل عليك تفسيرها بما هو الأليق بها •••) (٩) •

---

(٨) حاشية السيد على المطول ٤٠٢ •
(٩) التصوير البياني ٣٠٣ •

الاستعارة بين الترشيح والتجريد

تلعب بعض الأوصـــاف التى تقارن الاستعارة دورا هاما فى حسنها بما تضـــفيه على الصـــورة من تخييل يزيد من قوتهـــا عن طريق اخفـــاء التشبيه الذى بنيت عنيه وتنـــاسيه استكمالا للعناصر المكونة والخطــوط التى تستوفى بها الصـــور شياتها الحسنة ومعالمهـــا الفنية الدقيقة .

وقد نظر البلاغيون الى الاستعارة من هذا المنظور الوصـــفى الذى يأتى بعد اســـتيفاء الاستعارة أجزاءها الأصلية كالمستعار له أو المستعار منه والقرينـــة . فكانت كالآتى :

١ — الاســـتعارة المرشـــحة :

تدل مادة الفعل (رشـــح) على خروج الشىء كالندى والعرق وعلى التغذية والتقـــوية والتقدمة ومنه قولهم : (ورشحت الأم ولـــدها باللبن القليل اذا جعلته فى فيه شيئا بعد شىء حتى يقـــوى على المص ورشحت الناقة ولدها اذا دفعتـــه أمامهـــا . وعنى التربية والتهيئة للشىء ورشح للأمر ربى له وأهل ورشح للخلافة اذا جعل ولى عهـــد وفـــلان يرشـــح للوزارة أى يربى ويؤهل لها) (١) .

فهذا المدلول اللغـــوى له اتصـــال وثيق بالمعنى الاصطلاحى الذى يعنى اقتران الاستعارة بمـــا يلائم المشبه به فهذه الملائمات تغذى المجاز وتقـــويه حتى كأن لم يكن فى الكـــلام ســـوى المشـــبه به . فاذا كانت الاستعارة مبنيـــة على تناسى التشبيه فان الترشـــيح مبنـــاه على تناسى الاستعارة ووضع الكلام على صياغته الحقيقية (وكأن حديث الاستعارة والقياس لم يجر منهم على بال ولم يروه ولا طيف خيال)(٢) .

---

(١) اللسان مادة رشح .
(٢) أسرار البلاغة ٢/١٦٤ .

ويعلو قدر المجاز اذا قرى الحسن من ناحيتين • الترشيح واخفاء التشبيه وكلاهما مرتبط بالأصل الذى يقوم عليه الاستعارة وهو تناسى التشبيه قال عبد القاهر (واعلم أن من شأن الاستعارة أنك كلما زدت ارادتك التشبيه خفاء ازدادت الاستعارة حسنا حتى انك تراها أغرب ما تكون اذا كان الكلام قد ألف تأليفا ان أردت أن تفصح فيه بالتشبيه خرجت الى شىء تعافه النفس ويلفظه السمع) (٣) •

وقد بحث عبد القاهر موضوع الترشيح تحت ما سماه التخييل غير المعلل ووضع الزمخشرى مصطلح الترشيح أو المجاز وهو يعرض لقوله تعالى : « **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين** » فالاستعارة فى الفعل — اشتروا — شبه استبدل الحق بالباطل واختياره عليه بالشراء الذى هو استبدال مال بآخر بجامع ترك مرغوب عنه الى مرغوب فيه وعقب ذلك بذكر الربح والتجارة وعدم الاهتداء الى طرقها وهذا من ملائمات المستعار منه فهو من باب الترشيح قال الزمخشرى (فما معنى ذكر الربح والتجارة كأن ثم مبايعة على الحقيقة ؟

قلت : هذا من الصنعة البديعية التى تبلغ بالمجاز الذروة العليا وهو أن تساق كلمة مساق المجاز ثم تقفى بأشكال لها وأخوات اذا تلاحقن لم تر كلاما أحسن منه ديباجة وأكثر ماء ورونقا وهو المجاز المرشح ونحو •

ولما رأيت النسر عز ابن دؤية وعشش فى وكريه جاش له صدرى

لما شبه الشيب بالنسر والشعر الفاحم بالغراب أتبعه ذكر التعشيش والوكر (٤) •

وأما قوله : « **وما كانوا مهتدين** » فليس معناه عدم اهتدائهم فى اندين فيكون تكرارا لما سبق بل لما وصفوا بالخسارة فى هذه التجارة

---

(٣) دلائل الاعجاز ٤٠٤ •
(٤) الكشاف ١/١٩٣ •

أشير الى عدم اهتدائهم لطرق التجارة كما يهتدى اليه التجار البصراء بالأمور التى يربح فيها ويخسر فهذا راجع الى الترشيح (٥) .

ولذلك كان قول الطيبى : (انه اجتمع فى هذه الآية الكريمة الترشيح والتجريد فى قوله « اشتروا » فالترشيح فى قوله تعالى : تعالى : « وما كانوا مهتدين » (٦) . فيه صواب من وجه ومخالفة للصواب من وجه آخر . أما الصواب فهو الترشيح الذى ذكر أولا مناسبا للاشتراء وهو الربح والتجارة وأما المخالفة فهى اعتبار كون عجز الآية تجريدا وهو ما يلزم عليه التكرير لوصف سابق دون مقتضى وهو الضلال عن الدين قد فهم أولا من اختيارهم الضلال وتركهم الحق وهذا التكرير الذى لا يترتب عليه فائدة يتنزه عنه الكتاب المعجز فيحمل عجز الآية : « وما كانوا مهتدين » الى طرق التجارة كما قال السيد تحقيقا لكمال خسارتهم حيث فقدوا رأس المال والربح والطرق الصحيحة الموصلة اليه .

والترشيح كما يكون بالتفريع كما فى الآية السابقة يكون كذلك بالوصف كما فى قولك رأيت أسدا ذا لبد يرمى . والفرق بين الصفة والتفريع أن الملائم ان كان من بقية الكلام الذى فيه الاستعارة فهو صفة وان كان كلاما مستقلا جئ به بعد ذلك الكلام الذى فيه الاستعارة مبنيا عليه ... فهو تفريع(٧) . والمراد بالوصف الوصف المعنوى لا النعت النحوى فالفعل فى قوله تعالى : « واخفض جناحك للمؤمنين » يعتبر من باب الوصف . والجناح مستعار للجانب ورشح بوصف الخفض . فهو من ملائمات الجناح . ومنه قوله تعالى : « وقيل يا أرض ابلعى ماءك .. » فقد شبه الأرض بمن يعقل وحذف المشبه به ورمز اليه بشئ من لوازمه وهو النداء على سبيل المكنية ورشحها بذكر ابلعى ماءك .

وقد يكون الترشيح باثبات التعجب أو نفيه وقد ذكره عبد القاهر فى مبحث التخييل وهو يقوم على ايهام أن لا مجاز فى الكلام وأن

---

(٥) حاشية السيد على الكشاف السابق .
(٦) شروح التلخيص ٤/١٣١ .
(٧) شروح التلخيص ٤/١٢٧ .

الأسلوب يجرى على الحقيقة ويصـــاغ الكلام صياغة تؤكد هذا التناسى للمجاز وهنـــاك تبرز الأمور اللطيفـــة التى تزداد بهـــا الصـــورة دقة وجمـــالا •

ومنه قول الشاعر :

قامت تظللنى من الشـــمس
نفس أعـــز على من نفسى
قامت تظللنـــى ومن عجب
شمس تظللنى من الشـــمس

فقد استعار الشمس لمن يظلله من الشـــمس الحقيقيـــة وتنـــاسى التشبيه الذى بنيت عليه الاستعارة بل تناسى الاستعارة نفســـها وأوهم نفســـه أنه يتكلم عن شموس حقيقية ولذلك تعجب من أن يظلل بعضـــها بعضا لأن الاشراق مانع من الظل ولولا أنه أنسى نفسه أنه يتحـــدث عن شموس مجازية ما كان لهذا التعجب معنى لأنه لا يبعد أن يظلل انســـان حسن الوجه انســـانا آخر من وهج الشمس •

وقال عبد القاهر : (واعلم أن فى هذا النوع مذهبا هـــو كأنه عكس مذهب التعجب ونقيضه وهو لطيف جدا وذلك أن تنظر الى خاصية ومعنى دقيق يكـــون فى المشبه به ثم تثبت تلك الخاصـــية وذلك المعنى للمشـــبه وتتوصل بذلك الى ايهام أن التشبيه قد خرج من البين وزال عن الـــوهم والعين أحسن توصل وألطفه تبطـــل على نفســـك ما له وضـــع البيت من الاحتجاج على وجوب البلى فى الغلالة والمنـــع من العجب فيه بتقـــرير الدلالة) (٨) •

وقد يكون الترشيح بالقسم والاستفهام كمـــا فى قول المتنبى :

عمرك الله هـــل رأيت بدورا
طلعت فى براقع وعقـــود (٩)

---

(٨) المرجع السابق ٢/١٦٧ •
(٩) ديوان المتنبى ٢/٣٩ •

فقد شبه النســـاء بالبدور واستعارها لهن ولكنه تناسى التشـــبيه وتناسى المجاز ووضـــع الكلام وضـــع من يعتقد أن البدور الحقيقية هى التى ظهرت فى براقع وعقود ولذلك كان قسمه واستفهامه عن هـــذا المنظر العجيب .

وعلى طريق الترشـــيح قال أبو تمام :

فردت علينـــا الشمس والليـــل راغم
بشـــمس لهم من جانب الخدر تطلع

نضا ضوؤها صبغ الدجنة وانطـــوى
لبهجتهـــا ثوب الظـــلام المجـــزع

فـــوالله ما أدرى أأحـــلام نائم
ألمت بنـــا أم كان فى الركب يوشـــع

يقـــول : لقـــد ردت علينـــا الشمس الحقيقية فى صـــورة هـــذه الشمس التى طلعت من جانب الخدر فانضمر الدجى وانطوى ثوب الظلام حتى انتابه التشكيك فى هذا المنظر العجيب فتساءل . هـــل هـــو يعيش حلمـــا ؟ أم كان يوشـــع فى الراكب حتى اســـتوقف شـــمس الســـماء ؟ فاعتقاده أنها شمس حقيقية هو الذى دعـــاه الى هـــذا الاســـتفهام . وما أروع تلك التســـمية التى يقولها البلاغيون على مثل هذه الصـــورة وهى (تجاهل العـــارف) فالشـــاعر يتجاهل أمر المجـــاز ويبنى الكـــلام على أسلوب الحقيقة .

وكذلك يكون الترشيح بعقد التثنية بين المشبه والمشبه به فى كلمـــة واحدة كمـــا فى قول الفرزدق .

أبى أحمد الغيثين صعصـــعة الذى
متى تخلف الجوزاء والدلو يمطـــر

فقد استعار لأبيه الغيث وادعى أنه هو بالفعل وعقـــد التثنيـــة بين اسم أبيه الذى جعله غيثا والغيث الحقيقى وكأنهمـــا حقيقيان .

ومنه قول البحترى :

طلعت لهم وقت الشروق فعاينـــوا
سنا الشمس من أفق ووجهك من أفق

وما عاينـــوا شمســـين قبلهما التقى
ضياؤهما وفقا من الغـــرب والشرق

فقد استعار الشمس للمتوكل وتناسى أنه يتكلم عن شـــمس مجازية واقتنع بهذا فكـــان هذا المشـــهد العجيب وهو رؤية شـــمس حقيقيـــة تشرق من الشرق وأخرى حقيقيـــة كذلك على ســـبيل التخييـــل والادعاء تشرق من الغرب • ولذا قال عبد القـــاهر « معلوم أن القصد أن يخـــرج الســـامعين الى التعجب لرؤية ما لم يروه قـــط ولم تجر العـــادة به ولن يتم للتعجب معنـــاه الذى عنـــاه ولا تظهر صـــورته على وضعها الخاص حتى يجترىء على الدعوى جراءة من لا يتـــوقف ولا يخشى انكـــار منكر ولا يحفل بتكذيب الظاهر له ويسوم النفس — ساعت أمأبت تصور شمس ثابتة طلعت من حيث تغرب الشمس فالتقتا معا وصار غرب تلك القديمـــة لهذه المتجددة شرقا) (١٠) •

ومنه قول المتنبى :

كبرت حـــول ديارهم لـــا بدت
منها الشـــموس وليس فيهـــا المشرق

فقد استعار الشموس للقوم وأنسى نفســـه أن فى الكـــلام مجازا ولذلك كان منه التكبير الذى هو داعيـــة التعجب لأنه رأى أن الذى يخرج من الديار هى الشموس الحقيقية فعلا •

وقوله :

ولم أر قبلى من مشى البدر نحـــوه
ولا رجلا قامت تعـــانقه الأســـد

فقد بنى كلامه على أن لا مجاز فى البين وأنه يتحدث عن بدر حقيقى

---

(١٠) أسرار البلاغة ٢/١٦٦ •

وأسد حقيقي وإلا ما كان للنفي معنى فليس هناك انسان يقصده البـــدر أو تعانقه الأســـد • فكان انعجب أن يقع هذا •

وأما النهي عن التعجب فمثاله :

لا تعجبـــوا من بلى غلالتـــــــه

قـــد زر أزراره على القمـــــــر

فكون القمر الحقيقي هـــو الذي يبلى الغـــلالة في معتقـــدهم أمرا لا يتعجب منه وانمـــا الذي يدعو الى ذلك كون البلى يقع من الانســـان فلولا أنه جعله قمرا حقيقيـــا لا ينظر فيه الى أصل التشبيه ما نهاهم عن التعجب •

ومن ثم ســـاغ له أن يثنيهما لأن التثنية لا تكون الا بين اســـمين متفقين في النـــوع كالمحمدين مثلا • وكأنه لا مجاز في أحدهما ولذلك قال عبد القـــاهر (أفلا تراه كيف ادعى لأبيـــه اسم الغيث ادعاء من سلم له ذلك ومن لا يخطر ببـــاله أنه مجـــاز فيـــه ومتنـــاول له من طريق التشبيه ••••

وإن أردت أن تعرف مقدار ما له من قـــوة في هذا التخييـــل وأن مصـــدره مصدر الشيء المتعارف الذي لا حاجة به الى مقدمة يبنى عليها نحو أن تبدأ فتقـــول أبى نظير الغيث وثان له وغيث ثان ثم تقول وهـــو خير الغيثين لأنه لا يخلف اذا أخلف الأنواء فانظر الى مـــوقع الاســـــم فانك تراه واقعـــا موقعـــا لا سبيل لك فيه الى حل عقد التثنية وتفـــريق المذكورين بالاســـم) (١١) •

ويكون الترشيح بالظرف كمـــا في قوله تعالى « **فقـــدموا بين يدى نجواكم صـــدقة** » على تخريجها على الاستعارة المكنية بتشبيه النجوى بالانسان المحذوف والمرموز اليه بشيء من لوازمه وهو اليدان — و بين — ترشـــيح (٢) •

وكذلك يكون الترشيح بحرف التعدية • فاذا كانت تعدية الفعـــل

---

(١١) أسرار البلاغة ٢/١٧٨ •

(١٢) حاشية الشهاب ٨/١٧٢ •

المستعار باعتبار المعنى المجــازى كان ذلك من باب الترشـــيح وان كانت باعتبار المعنى الحقيقى كان ذلك من باب التجريد والكثـــير الأول وهـــو الترشيح وقد أشار الشهاب الى جانب الكثرة بقوله (لأن المجاز قد يعتبر أصله فى تعديته كنطقت الحال بكذا اذ لم يقل على كذا وهو كثير)(١٣) • فلو لوحظ المعنى الحقيقى للنطق وهو الدلالة لعدى الفعـــل بـــ (على) لكن المعنى المجازى هو الملحوظ فكـــانت تعديتـــه بـــ (البـــاء) من باب الترشـــيح •

ويتلخص ممـــا سبق أن الترشيح يكون :

١ — بالوصف أو تفريع الكلام •

٢ — بالتعجب والنهى عن التعجب سواء كان ملفوظا به أو مضـــمنا فى الكـــلام •

٣ — بالقســـم والاســـتفهام •

٤ — بعقد التثنية بين اسمين اتفقـــا فى النوع إدعاء •

٥ — بتعدية الفعل المستعار بحرف يتفق مع المدلول المجازى •

٦ — الظرف •

٢ — الاستعارة المطلقة :

وهى التى أطلقت عن التقييـــد بوصف أو تفريع يلائم المستعار له أو المستعار منه حقيقة بأن لا تذكر الملائمـــات أصـــلا أو حكمـــا بأن ذكر ما يلائم الطرفين على طريقة قولهم (تساويا تساقطا) • كما فى قـــولك عنـــدى أســـد عظيم اللبد شاكى السلاح وفكرة التساقط عنـــد تعارض الترشيح والتجريد — من اضافات المتأخرين أما عبد القاهر والزمخشرى فكانا ينظران الى أثر الوصـــف أو التفريع من غير اشارة الى أن ما بعده يسقطه أو يبقيه) (١٤) •

والباحثون يذهبون الى أن مصطلح (الاســـتعارة المطلقـــة) من اضافات المتأخرين • وأنهم نظروا فوجدوا نمطـــا من الأسلوب ليس من

(١٣) حاشية الشهاب ٤١٨/٦ والاشارات والتنبيهات ٢٢٢ •
(١٤) التصوير البيانى ٣١٨ •

باب الترشيح ولا من باب التجريد وانما هو واقع فى مرتبة وسطى بينهما فأطلقوا عليه هذا الاسم « المطلقة » .

ولكنى أرى أن فى تعليقات عبد القاهر ما يعتبر كالرمز المشير الى هذه التسمية . فقد كان يقارن بين صورتين من التشبيه احداهما مرشحة أى مقيدة بوصف والأخرى مطلقة عن التقييد بوصف ومعلوم أن التشبيه كالاستعارة فى الترشيح وعدمه . وبخاصة التشبيه المحذوف الأداة لأنه يضارع الاستعارة .

فأما صورة التشبيه المرشح فهى :

هى الشمس مسكنها فى السماء
فعز الفؤاد عزاء جميلا
فلن تستطيع اليها الصعود
ولن تستطيع اليك النزولا

فقد جعل كونها شمسا حقيقة أمرا لا جدال فيه ولا يحتاج الى دليل بل هو الصحة والصدق بحيث تصحح به دعوة ثابتة . فجعل كونها الشمس حجة على نفسه يصرفها عن رجاء الوصول اليها .

وأما الصورة الأخرى فهى :

فقلت لأصحابى هى الشمس ضوءها
قريب ولكن فى تناولها بعد

ثم قال (وتتأمل أمر التشبيه فيه فانك تجده على خلاف ما وصفت لك وذلك أنه لم يجعل كونها الشمس حجة على ما ذكر بعد من قرب شخصها ومثالها فى العين مع بعد منالها بل قال — هى الشمس كذا قولا مرسلا يومىء فيه بل يفصح بالتشبيه ..)(١٥) .

فالتشبيه فى الصورة الأولى كأنه لم يجر فى خلده وأنه معه لأن الصورة مقيدة بالترشيح فى البيت الثانى . ولكن التشبيه فى الصورة الثانية ظاهر لأنها كما قال (مرسلة) ومن معانى الارسال الاطلاق

---

(١٥) أسرار البلاغة ٢/١٦٩ .

والاهمــال • والاطلاق والاهمال هنا يعنى عدم التقييــد بوصف ملائم كمــا فى الصــورة الأولى • فمــا طبقه عبد القاهر هنــا على التشــبيه طبقه المتأخرون على الاستعارة • أى أنهم انطلقــوا من الأســاس الذى أرســاه عبد القاهر •

وعلى ذلك فالترشيح والاطلاق لهمــا أصول فى حديث عبد القــاهر فقــد ذكر الأول تحت دائرة التخييل وذكر الثانى باسم الارسال •

ومن المطلقة على احتمال قوله تعــالى :« **واعتصــموا بحبــل الله جميعا** » فالحبل مستعار للعهد والاعتصام اما أن يكون مســتعارا كذلك للاستمساك فتكــون الاستعارة مطلقة واما أن يكـــون الاعتصام على حقيقته فتكون الاستعارة مرشحة واما أن يؤخذ التركيب بأكمله فيكــون من باب التمثيلية المطلقة •

ومن المكنيــة المطلقة قول لبيــد الســابق :

« اذا أصبحت بيد الشــمال زمامها »

فالشــمال مشبه بالانســان المنصرف وليس بعد القرينــة وهى — اليــد — شىء يلائم المستعار له أو المســتعار منه ولذلك كانت مطلقــة

٣ — الاستعارة المجرد : وهى التى تقرن بما يلائم المســتعار له • وهو عكس مذهب الترشيح وكأنه رجوع بالكــلام الى الحقيقــة • وقد أشــار اليهــا الزمخشرى فى قوله تعالى : « **فأذاقها الله لباس الجــوع والخــوف** » • وقال : (فان قلت الاذاقة واللباس استعارتان فمــا وجه صحتهما والاذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار فما وجه صــحة ايقاعها عليــه قلت : أما الاذاقة فقد جرت عنــدهم مجــرى الحقيقــة لشيوعها فى البلايا والشــدائد وما يمس الناس منهــا فيقولون ذاق فلان البــؤس والضر وأذاقه العذاب • شــبه ما يدرك من أثر الضرر والألم بمــا يدرك من طعم المر البشــع وأما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللابس ما غشى الانســان والتبس به من بعض الحوادث) •

وأما ايقــاع الاذاقة على لبــاس الجوع والخــوف فلأنه لما وقع عبــارة عمــا يغشى منهمــا ويلابس فكأنه قيل فأذاقهم ما غشــيهم من

الجوع والخوف ولهم فى نحو هـــذا طريقـــان لا بد من الاحاطة بهما فان الاستنكار لا يقع الا لمن فقدهما •

أحدهمـــا : أن ينظروا فيه الى المستعار له كمـــا نظر اليـــه ههنـــا ونحوه •

قول كثير :

غمـــــر الرداء اذا تبســـم ضـــاحكا

غلقت لضــــحكته رقاب المـــــــال

استعار الرداء للمعروف لأنه يصون عرض صـــاحبه صـــون الرداء لمـــا يلقى عليه ووصـــفه بالغمر الذى هو وصف المعروف والنوال لا صفة الرداء نظرا الى المستعار له •

والثانى : أن ينظروا فيه الى المستعار كقوله :

ينـــــازعنى ردائى عبـــد عمـــــرو

رويدك يا أخـــا عمـــــرو بن بكـــــر

لــى الشـــطر الـــــذى ملكت يمينى

ودونك فاعتجـــر منـــــه بشـــــطر

أراد بردائه ســـيفه ثم قال • فاعتجر منه بشطر فنظر الى المستعار فى لفظ الاعتجـــار ولو نظر اليه فيمـــا نحن فيه لقيل فكســـاهم لبـــاس الجوع والخوف ولقال كثير ضافى الرداء اذا تبسم ضاحكا (١٦) •

فهذه الاشـــارات الضافية الى ملائم المستعار له لم يزد أحد عليها شيئا سوى التســـمية « التجريد » الذى وضعه الرازى (١٧) •

وفى الآية الســـابقة : شبه ما غشيهم من أثر الضرر والألم ســـواء كان باطنـــا أو ظاهرا كهزال الجسم واصفراره باللباس بجامع الشمول فى كل واستعار المشبه به للمشبه على طريق التصريحية ولفـــظ — الاذاقة — تجريد • وقد بنى هذا التجريد على ما اشـــتهر فى اســـتعمال الاذاقة فى

---

(١٦) الكشاف ٢/٤٣٢ •

(١٧) ينظر ذلك ٩٢ •

الشـــدائد والبلايا حتى جرت مجرى الحقيقة • وهى فى الأصل لادراك الطعم باللســان فى الأشياء ثم استعيرت للاصابة بالأحداث بجامع مطلق الادراك والاحساس فى كل ثم اشتهر هــذا المجــاز حتى كاد أن يلحــق بالحقائق • فكانت الاذاقة التى تعنى الاصابة من ملائمــات المشــبه فى الآية •

(الترشيح والتجريد بين الحقيقــة والمجــاز)

مع وضــوح كلام الزمخشرى الســابق فى اســتعمال الاذاقة فى اصــابة العــذاب وأن ذلك جرى مجرى الحقيقــة فقــد ذهب بعض المتأخرين الى تفسير هذا النوع بوقوع الاستعارة فى التجريد والترشيح فقال ابن السبكى « وحاصلة أن تجريد الاستعمارة ههنــا احتـــاج الى ايضـــاح لأن الاذاقة لا تلائم المستعار له وهو انزال العذاب اذ الــذوق حقيقة فى الطعــوم فلذلك احتاج الى أن يجعل الذوق استعارة عن اصابة العذاب ثم أوقع على اللباس فصــار اللباس استعارة تجــريدية لأنهــا وان كانت ما قرنت به لا يلائم المســتعار له على ســبيل الحقيقــة فانه يلائمه على سبيل الاستعارة فعلم بذلك أن قولنا فى الاستعارة التجريدية والترشــيحية الاقتران بمــا يناسب المستعار أو المستعار منه انما نريد ما يلائمه ســواء أكانت ملائمته له حقيقة أم مجــازا ونظير الآية الكريمة فى أن تجريد الاستعارة وقع بمــا يلائمها مجازا بيت كثير الســابق فان الغمر حقيقــة فى المــاء الكثير فاطلاقه على الكثير من المعروف وتجريده لاستعارة الرداء للمعروف تجــريد بمــا يلائم المســتعار له مجـــازا لا حقيقة » (١٨) •

وفرع على نظرته الى الوصف المذكور مــع الاســـتعارة ســبع صور(١٩) • تتنوع من حيث وجود الوصف على الحقيقــة أو المجــاز أو خلوه عنهمــا • وهى تشقيقــات لا داعى لذكرها لأن الأجــدر بعمليــة التخييل وتناسى التشـــبيه أن تظل هذه الأوصاف على حقيقتها كما قلنــا فى روادف الاستعارة المكنيــة •

---

(١٨) شروح التلخيص ٤/١٣٠/١٣١ •
(١٩) المرجع الســابق •

وعلى شاكلة ابن السبكى فى التجريد ذهب ابن يعقوب فى الترشيح وأنه من قبيل المجـاز فقـال : « ثم ان الربح المنفى عنهـم ينبغى أن يعلم أنه استعير للثواب والانتفاع الأخروى وأن التجـارة اسـتعيرت لاتخاذهم ارتكـاب الضـلالة بدلا عن الهـدى دأبا فكونهما ترشـيحا انمـا هـو باعتبـار أصـل اطلاقهمـا لا باعتبـار المعنى المـراد فى التركيب (٢٠) .

— ومما أغرى المتأخرين بذلك أنهم رأوا أنه من الممكن أن تجـد فى المشبه مقابلا للربح والتجـارة فاجتهـدوا فى تلفيـق ذلك على طريقـة السـكاكى فى قرينـة المكنيـة وكان فى طباعهم شىء من التعمـق تأباه طبـاع هذا العلم ويفسـد به مسلك البحث فيه أحيانا (٢١) .

ومن تجريد المكنية :

نقريهم لهذميـات تقـد بهـا
ما كان خاط عليهـم كل زراد

فاللهذم هو القـاطع من الأسنة شبههـا بمـا يقدم للضيفـان من الطعـوم وحذف المشبه به ورمز اليه بشىء من لوازمه وهو القـرى ثم ذكر وصـفا من ملائمـات المشبه وهو انقد أى القطـع فهو وصـف السـيف .

وقد يجتمع التجريد والترشيح كمـا فى قول زهير :

لدى أسـد شـاكى السلاح مقـذف
له لبـد أظفـاره لـم تقلم

فالأسـد مستعار للرجل الشجاع و — لدى — قرينة الاسـتعارة و — شاكى السلاح — أى تامه وصـف يلائم المشـبه فهو تجـريد و — له لبـد — وصف يلائم المشبه فهو ترشيح وأما قوله (مقـذف)

(٢٠) المرجع السابق .
(٢١) التصوير البيانى ٣١٦ .

فيحتمل أن يكــون المراد قذف به ورمى به فى الوقائع والحروب وهذا من ملائمـــات المشبه فيكون تجريدا ويحتمل أن يراد قذف به رمى باللحم • جعل لتراكب اللحم بعضـــه فوق بعض كأنه مقــذوف به فيكون مشتركا بين المشبه والمشبه به •

وأما قوله — أظفاره لم تقلم — فيحتمل أن المراد ليس ذلك الأسد من الجنس الذى تقلم أظفـــــاره فيكون ترشيحا لأن الأسد الحقيقى هو الذى ليس من شأنه تقنيم الأظفار ويحتمل نفى المبالغة فى تقليم الأظفار وهذا مناسب للرجل الشجاع فيكون تجريدا أو المبالغة فى النفى أى انتفى تقليم أظفـــاره انتفاء مبالغـــا فيه وهذا مناسب للاســـد الحقيقى فيكون ترشيحا كالاحتمال الأول •

فهذا البيت ان اعتبرت أن الوصـــفين فى الشـــــطر الأول وهمـــا : (شـــاكى السلاح — ومقذف) من باب التجريد والوصـــفين فى الشـــطر الثانى وهمـــا (له لبـــد وأظفـــاره لم تقلم) من باب الترشـــــيح كانت الاستعارة مطلقة حكمـــا •

وان اعتبرت أن قوله — مقذف — من باب الاشتراك على التفســـير الثانى أى لا ترشـــيحا ولا تجريدا وغلبت الوصـــفين الأخيرين فى الشطر الثانى كانت الاستعارة مرشحة •

وان اعتبرت أن قوله — أظفاره لم تقلم — من باب التجـــريد على التفسير الثانى وضممته الى وصـــفى التجريد فى الشـــــطر الأول كانت الاستعارة مجردة لتغليب أوصـــاف التجريد الثلاثة على الوصف الواحد للترشيح وهو — (له لبـــد) •

فهى صالحة للانواع الثلاثة بهذا الاعتبـــار • وهذا معنى قـــــول الصـــبان : (وقد يجتمع الترشـــيح والتجريد فتكون فى مرتبة الاطلاق الا اذا كان أحدهما زائدا كمـــا أو كيفا فيرجح جانبه)(٢٢) •

وقد حاول بعضهم جعل اجتمـــاع التجـــريد والترشـــيح قســـما

---

(٢٢) الرسالة البيانية ٤٣٠ •

رابعـــا بعــد الترشيح والتجريد والاطلاق (٢٣) ولكن ذلك غـــير مسلم لأن اجتماعهما يعود بالاستعارة إلى الاطـــلاق الحكمى . كمـــا فى قـــول زهير الســـابق .

وفى قول البحترى :

فلم أر ضرغامـــين أصـــدق منكمـــا

عـــراكا اذا الهيـــــابة النكس كذبا

ففيه ترشـــيح بالتثنيـــة — ضرغامين — وتجريد — اذا الهيــــابة النكس أى الجبـــان انرزل — وبهذا التصـــادم بين الترشيح والتجـــريد يقف الأســـلوب فى دائرة الاطـــلاق . ولا يقـــال انه من باب التجريد المرشـــح .

أى الطرق أبلغ ؟

وقد ذكر البلاغيون أن طريق انترشـــيح أبلغ هذه الطرق الثـــلاثة فهو يدعم عملية التخييل فى المجاز فيقـــويه بل ويتناســـاه وكأن الكـــلام موضوع على الحقيقة وليس معنـــا سوى المشبه به فتذكر لوازمه .

ويليه الاطـــلاق لأنه الطريق المعتـــاد الذى تســـلكه الاســـتعارة بمبالغتهـــا انتى تقوم على تناسى التشبيه . فليس فيه جنـــوح الترشيح الذى تعلو مبالغتـــه علوا ينسى المجاز نفسه وليس فيه ضـــآلة التخييـــل وضـــمور المبـــالغة برد الكلام الى الواقع وسحب دعوى الاتحـــاد التى تقوم عليهـــا الاستعارة كمـــا فى طريق التجريد .

ولا شك أن هذه تقويمـــات ذاتية بالنظر الى دلالة هـــذه الطـــرق ومدى اصابتها فى تصوير المعـــانى فحسب دون الارتباط بالحال والمقام . اذ هو الفيصل فى تحديد منبـــع الأبلغيـــة فالتجـــريد فى مقـــامه أبلغ من الترشيح والاطلاق وكذلك همـــا فى مقامهما أبلغ من غيرهما .

ولو كان انترشيح أبلغ دائما ما وجدنا المطلقة أو المجردة فى الكتاب المعجز ولكن بكل جاء القرآن الكريم . وحســـبنا تدليـــلا على أن المجردة

---

(٢٣) ينظر ابن السبكى شروح التلخيص ٤/١٣٢ .

أبلغ من المرشحة فى مكانها قوله تعالى فى الآية السابقة **فأذاقهـا الله لباس الجوع والخوف »** • فالغرض منها لا يتحقق الا بمجيئهـا هكـذا مجردة لأنها تهـدف الى شـيئين وهما شدة الاصابة وشمولها وعمومها ولو جعلت مرشحة فقيـل فكساها لبـاس الجوع لأفاد الشـمول دون الشـدة لأن اللبـاس يلامس الجسـد فقط فالاحسـاس به عن طريق اللمس ضـعيف ولكن الاحساس بالاذاقة أقـوى لأن الادراك بالذوق يستلزم الادراك باللمس من غير عكس ولو قال : فأذاقها طعم الجـوع لكانت مرشحة أيضـا ولكنهـا تفيـد الشـدة ولا تفيد الشمول المفـاد من لفظ اللباس • وبذلك يكون الغرض والسـياق هـو الذى يحـدد الأبلغيـة • أما ارسـال الحكم بالأبلغية هكذا مطلقا فمردود •

ومن هنـا أرى أن ما ذهب اليه بعضهم (٢٤) من اعتبار الترشـيح سببا من أسباب حسن الاستعارة دون الاطـلاق والتجريد فيه مجانبـة للصواب لأن الترشـيح قد يكون سببا مباشرا لفسـاد الاستعارة كما فى قول أبى تمـام :

لم تسـق بعد الهوى ماء أقل قـذى
من مـاء قافيـة يسـقيكه فهم

قال الآمدى (فجعل للقافيـة ماء على الاستعارة فلو أراد الرونق نصـلح ولكنـه قال يسـقيه فـفسـد معنى الرونق لأنك اذا قلت هـذا الثوب له ماء لم تجعل الماء مشروبا فتقول ما شربت ماء أعذب من ماء ثوب شربته عنـد فلان وكذلك لا تقول ما شربت ماء أعذب من ماء قفانبك لأن للاستعارة حدا تصلح فيه فاذا تجاوزته فسـدت وقبحت •••)(٢٥) •

فاستعارة الماء للرونق استعارة صـالحة ولكنهـا توغلت فى باب الابهام بترشـيحها بالسقى ففسـدت •

وقد يكون الترشيح سببا من أسـباب رفع الغمـوض والابهـام فيقرب الاستعارة من الصواب كمـا فى قول أبى تمام :

---

(٢٤) ينظر شروح التلخيص ٤/٢٢٨ •
(٢٥) الموازنة ٢٢١ •

فضربت الشـــــتاء فى أخذعيـــه
ضربة غادرته قـــودا ركـــوبا

قال الآمدى : (فان ذكر الأخدعين على قبحهما أســوغ لأنه قال — ضربة غادرته قودا ركوبا — وذلك أن العــود المسن من الابل يضرب على صفحتى عنقه فيذل فقربت الاستعارة ههنا من الصواب قليلا ٠٠ (٢٦) ٠

فان أبا تمام يصور الشتاء بوعوثة ثلوجة بعيرا نافرا وكأن الممدوح سدد اليه ضربة قضت على نفــوره وشموسه وجعلته سهل القياد ذلولا وحذف المشبه به ورمز اليه بشىء من لوازمه وهو الأخـــدعان — عرقان فى صفحتى العنق — وعلى الرغم من قبـــح هذا اللازم فى اثبـــاته للشـــتاء الأنه استطاع أن يقرب الاســـتعارة من الصـــحة بذكر أوصـــاف ملائمة للمشبه به وهى انضرب ومغـــادرته قودا — ذلولا — ركـــوبا — فقربت المســـافة بين المشبه والمشبه به فساغ له اثبات الأخدعين للمشبه وبذلك يتضـــح لنـــا أن الترشيح اما أن يجعل الاســـتعارة تصـــعد على سلم الحسن درجات عاليـــة اذا كان المقـــام يقتضـــيه واما أن يجعلها تهبـــط الى المستوى الغث اذا أخذ بيـــدها الى دائرة الغمـــوض واما أن يجعلها تقف على أول درجات الصـــحة ٠

(٢٦) المرجع الســابق ٢١٨ ٠

الاستعارة التمثيلية

وأما المجـاز المركب فهو • اللفظ المركب المستعمل فيما شبه بمعناه الأصـلى تشبيه تمثيل للمبالغة فى التشبيه • أى تشبيه احدى صـورتين منتزعتين من أمرين أو أمور بالأخرى ثم تدخل المشبهة فى جنس المشـبه بها مبالغة فى التشـبيه (١) •

و قد حمى وطيس المعركة بين العلمـاء حول كلمة (تشبيه وتمثيل) الواردة فى تعريف المجـاز المركب • لأن التمثيل ما كان وجهه منتزعا من متعـدد • وهذا الوجه الذى هو هيئـة مركبة يأتى من المفردين مثـل — وسقط كعين الديك — كمـا يأتى من المركبين مثل — وكأن مثار النقع فوق رؤوسـنا — ومن المختلفين بالأفراد والتركيب فلو استعيرت الهيئـة المركبة لمثلها فلا جدال فى ذلك وانمـا الجدؤال فيما لو اسـتعير المشـبه به المفرد الذى يشـع هيئة فى الوجه لمثله • هل يعتبر من باب الاستعارة التمثيلية أم من باب المجـاز المفرد ؟ •

فالسـعد يرى أن المراد بالتركيب أن يقصد الى عدة أشياء مختلفة أو الى عـدة أوصـاف لشىء واحد فتنتزع منها هيئة وتجعلها مشـبها أو مشبها به أو وجه تشبيه (٢) •

فنراه أشـار الى وجهى التركيب وهمـا المركب الذى تكـون من عدة أشـياء مختلفـة معزول بعضـها عن بعض ثم تتضـام وتتمـازج ويتكون منها هيئة واحدة والمركب الاعتبارى أو المعنوى الذى يتكون من الأوصـاف المتعددة للفظ المفرد •

---

(١) بغيـة الايضاح ١٤٦/٣ •
(٢) ينظر الرسالة البيانية وحاشية امبابى ج ٤٥٥ •

وعلى هذا يمكن أن يعبر عن تلك الهيئة المنتزعة بعد انتزاعها بلفظ مفرد يدل عليها اجمالا اما بالوضع أو أكثر الاستعمال أو قرينة الحال فلا يجب أن يكون اللفظ المستعار من أحد الطرفين للآخر مركبا بالمعنى المشهور للمركب وهذا مائل الى مذهب العلامة التفتازانى حيث جوز أن يكون اللفظ المستعار فى التمثيلية مفردا وفرع على هذا التجويز جواز اجتماع التبعية والتمثيلية بخلاف السيد فانه أوجب أن يكون اللفظ المستعار مركبا بالمعنى المشهور ومنع الاجتماع المذكور • وقال — كون الاستعارة تبعية يقتضى كون كل من طرفى التشبيه معنى مفردا وكونها تمثيلية يستدعى انتزاع كل من طرفيه من أمور متعددة وهو يستلزم التركيب فلا يجمعان)(٣) •

فالسيد يرى أن الاستعارة التمثيلية لا تبنى الا على التشبيه المركب ولكن السعد يرى أن الاستعارة التمثيلية تبنى على التشبيه وهو أعم من أن يكون مركبا أو غير مركب • ومن هذا المنطلق جوز السعد اجتماع التبعية والتمثيلية ومنع ذلك السيد •

وقد جاءت تعليقات الزمخشرى مؤيدة مذهب السعد حيث قال : (ومعنى الاستعلاء فى قوله (على هدى) مثل لتمكنهم من الهدى واستقرارهم عليه وتمسكهم به شبهت حالهم بحال من اعتلى الشىء وركبه ••)(٣) •

ولكن السيد يفسر كلام الزمخشرى بما يتفق ومذهبه فيقول : (قوله ومعنى الاستعلاء يريد أن كلمة على هذه استعارة تبعية شبه تمسك المتقين بالهدى باستعلاء الراكب على مركوبه فى التمكن والاستقرار فاستعير له الحرف الموضوع للاستعلاء كما شبه استعلاء المطلوب على الجذع باستقرار المظروف فى الظرف بجامع الثبات فاستعير له الحرف الموضوع للظرفية فى قوله تعالى : « **ولأصلبنكم فى جذوع النخل** » وانما قال ومعنى الاستعلاء دون معنى على لأن الاستعارة فى الحرف تقع أولا فى متعلق معناها كالاستعلاء والظرفية والابتداء مثلا ثم يسرى اليها

(٣،٤) الكشاف وحاشية السيد عليه ١/١٤٢ •

بتبعيته كمـــا حقق فى موضعه وقوله مثل أى تصوير • فان المقصـــود من الاستعارة تصوير المشبه بصـــورة المشبه به ابرازا لوجه الشبه فى جانب المشبه بصورته فى جانب المشبه به مبالغة فى شأنه كأنه هو ....
وزعم بعض النـــاس أن الاستعارة هنـــا تبعية تمثيلية • قال : أما كونها تبعية لجريانها أولا فى متعلق معنى الحرف وتبعيتها فى الحرف وأما كونها تمثيلية فلكون كل من طرفى التشبيه حالة منتزعة من عدة أمور ....
وقد تمـــادى فى ذلك من ادعى تكرره فى الكشـــاب وهو برىء منه (٤) •

فهو يرى فى قوله تعالى (على هـــدى) احتمالات ثلاثة :

الأول : أن يشبه الهدى بالمركوب الموصـــل الى المقصـــد فيثبت له بعض لوازمه وهو الاعتلاء على طريقة الاستعارة المكنية •

الثانى : أن يشبه تمسـك المتقـــين بالهـــدى باعتـــلاء الراكب فى التمكن والاستقرار على سبيل الاستعارة التبعية فى الحرف — على •

الثالث : أن يشبه هيئة مركبة من المتقى والهدى وتمسكه به ثابتـــا مستقرا عليه بهيئة مركبة من الراكب والمركوب واعتلائه عليه متمكنا منـــه على سبيل الاستعارة التمثيلية قال — وعلى هذا ينبغى أن يذكر جميـــع الألفـــاظ الدالة على الهيئة الثانيـــة ويراد بهـــا الأولى فكون مجمـــوع تلك الألفاظ استعارة تمثيلية كل واحد من طرفيها منتزع من أمور متعددة فلا يكون فى شىء من مفردات تلك الألفاظ تصرف بحسب هذه الاستعارة بل هى على حالهـــا قبل الاستعارة فلا يكون هنـــاك حينئذ اســـتعارة تبعية فى كلمة — على — كمـــا لا استعارة تبعية فى الفعل فى قولك تقـــدم رجلا وتؤخر أخرى الا أنه اقتصر فى الذكر من تلك الألفـــاظ على كلمـــة — على — لأن الاعتلاء هو العمـــدة فى تلك الهيئة اذ بعـــد ملاحظتـــــه يقرب الذهن الى ملاحظة الهيئة واعتبارها فجعل كلمة — على — بمعـــونة قرائن الأحوال قرينـــة دالة على أن الألفـــاظ الآخر الدالة على ســـائر أجزاء تلك الهيئـــة مقدرة فى الادارة قد دل بها على سائر الأجزاء قصدا كمـــا قصـــد الاعتلاء بكلمة — على — (٥) •

---

(٥) حاشية الســـيد على المطول ٣٩٥ •

أى أنه يرى فى (على هدى) استعارة مكنية أو تبعية فقط أو تمثيلية فقط ولا بد من أن تكون الألفاظ الدالة على الهيئة الثانية مقدرة أو منوية فى الادارة ولكن السعد لا يرى تقدير ألفاظ أو نيتها اذ أن المقدر الملاحظ كالمذكور بل ان اللفظ المفرد الذى تكون له أوصاف متعددة يكفى فى اعتبار الهيئة • فبالنظر اليه مفردا يكون استعارة تبعية وذلك لأنه لما شبه كمال تمسكهم بالهدى باعتلاء الراكب فحصلت التبعية ثم نعتبر الهيئة المنتزعة من المتقى والهدى وتمسكه به مشبهة بهيئة منتزعة من الراكب والمركوب واعتلائه عليه وهذه الهيئة الثانية لفهوم بعضها بالمطابقة كالاعتلاء والبعض الآخر بالالتزام هى المعتبرة فى الاستعارة التمثيلية الحاصلة بلا تركيب فى اللفظ المستعار •

وفى قوله تعالى : « **والله محيط بالكافرين** » قال الزمخشرى : (واحاطة الله بالكافرين مجاز والمعنى أنهم لا يفوتونه كما لا يفوت المحاط به المحيط حقيقة) •

علق عليه السيد بقوله (فان شبه شمول قدرته تعالى اياهم باحاطته المحيط بما أحاط به فى امتناع الفوات كان هناك استعارة تبعية فى الصفة سارية اليها من مصدرها وان شبه حاله تعالى معهم بحال المحيط مع المحاط أى شبه هيئة منتزعة من عدة أمور بأخرى مثلها كان هناك استعارة تمثيلية لا تصرف فى شىء من ألفاظ مفرداتها الا أنه لم يصرح ههنا الا بلفظ ما هو العمدة فى الهيئة المشبه بها أعنى الاحاطة والبواقى من الألفاظ منوية •

وحسبى تلك الاشارة الى جانب من جوانب هذه المعركة التى عقدت لها المجالس وصنفت فيها الرسائل فهى أكبر من أن يضمها هذا البحث المتنوع الأطراف •

ومما تجب ملاحظته أن الخلاف السابق فيما اذا عبر عن الهيئة بلفظ مفرد وأما اذا عبر عنها بتركيب كما فى قوله تعالى : « **والسموات مطويات بيمينه** » وقولهم (أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى) فان المفردات لا توصف بحقيقة ولا مجاز « لأن المفردات تصبح كأنها

حروف فى الكلمة المفـــــردة وهذا أثر من آثار المزج بين المفـــــردات فى الاستعارة المركبة فلا ينظر فيها الى المفردات الا من جهة مشـــاركتها فى تكوين الصورة » (٦) •

ومن هذه التراكيب قوله تعالى : « **وكنتم على شفا حفرة من النــــار فأنقذكم منهـــا** » فانه يصور حال هؤلاء الأقوام الذين كانوا على غــــير الهدى ويكاد يقذف بهم فى عذاب الله لو ماتوا على هذا الحال بحال الكائن على طرف حفرة من جهنم اذ لم يكن بينه وبينهـــا الا المـــوت واســـتعار الحالة الثانيـــة للأولى على سبيل التمثيلية •

ومنه قوله تعالى : « **أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم** •• •

فقد جوزوا أن تكون الجملة الأولى تمثيل لحال من أخلص لله وعمـــل الأعمـــال الصـــالحة التى تنجيـــه من عذاب الله تعالى بحال من بنى بناء محكما قويا يستوطنه ويتحصن به فى دنياه واستعيرت الهيئـــة الثانيـــــة للأولى •

وتكون الجملة الثانية تمثيلا كذلك بتشـــــبيه حال من لم يخلص لله وفرط فى جنبه وصيرورته لا محالة لعذابه بحال من بنى بناء هشا ضـــعيفا على طرف بئر متصـــدع الأركان لا يأمن من القيام فيه بل يكون ســـببا فى هلاكه •

ويجوز أن يشبه انباطل والنفاق بشفا جرف هار فى قلة الثبـــات على سبيل التصريحية (*) •

ومن التمثيلية على احتمال قوله تعالى : « **واعتصموا بحبـــل الله جميعا** » فقد شبه حال المسلم الذى يستظهر بالله ويلوذ بحمـــاه ويأمن فى ركنه الحصـــين بحال المتدلى من مكان مرتفع المستمسك بحبل وثيق يأمن انقطاعه واستعار الحالة الثانية للأولى •

---

(٦) البلاغة القرآنية ٤٤١ •

(*) ينظر روح المعانى ٢٢/١١ •

وأن يكون استعارة الحبل لعهده والاعتصام لوثوقه بالعهــــد أو ترشيحا لاستعارة الحبل (٧) •

وفى قوله تعالى : ((**وضربت عليهم الذلة والمســكنة وباؤا بغضب من الله**)) شبه حال اليهود فى لزوم الذلة والمسكنة لهم بحال من ضربت عليه قبة فهى محيطة به ومشتملة عليه فى الاحاطة والمــلازمة • واســتعيرت الحالة الثانية للأولى •

أو تشبه الذلة والمسكنة بالقبة أو بالطين الذى يلصق على الحــائط ويحذف المشبه به ويرمز اليه بشىء من لوازمه وهو الضرب • فقد ورد فى اللغة ضرب القبة والخيمة اذا أقامها لتحيــط بمن فيها • وضرب الطــين على الحائط اذا ألصــقه بها • وذلك على سبيل المكنية •

ويمكن أن تجرى استعارة تصريحية تبعية فى انفعــل (ضربت) • لمعنى الاحاطة واللزوم (وعلى كلا الوجهين فالكلام كناية عن كونهم أذلاء صـــاغرين) (٨) •

وهذا الثراء المجازى للآيات القرآنية سر من أسرار روعتها وجمالها فحيثمـــا تناولتها جملة بهرتك بألوانها المختلفة وظلالها المتنوعة فتتضـــام أشـــعتها وتتمازج لبنـــاتها لتكشـــف عن الغرض المنشود وحيث تناولت مفرداتها بهرتك بألوان طيفها وقادتك الى الموطن المقصود أو الجانب المثير من جوانب التعبير وكأنك فى كلتـــا الحالتين حاصل على الغنيمة المطلوبة •

وقد ضرب عبد القاهر أمثلة لها بقول داود بن على (شكر شكرا انا والله ما خرجنـــا لنحفر فيكم نهرا ولا لنبنى فيكم قصرا أظن عـــدو الله أن لن نظفر به ؟ أرخى له فى زمامه حتى عثر فى فضل خطـــامه • فالآن عاد الأمر فى نصـــابه وطلعت الشمس من مطلعها والآن قد أخذ القوس باريها وعاد النبل الى النزعة ورجـــع الأمر الى مســـــتقره فى أهل بيت الرأفة والرحمة) (٩) •

---

(٧) الكشـــاف ١/٤٥٠ •
(٨) روح المعانى ١/٢٧٦ •
(٩) أسرار البلاغة ٢/١١١ •

فقوله (أرخى له فى زمامه حتى عثر فى فضل خطامه) يشـبه حال العدو الذى يترك سادرا فى غيه مائلا فى جنـوحه مغرورا بتمـرده حتى يسـقط فى هنكته بحال البعير الذى يغـريه ارخاء الزمـام على الشرود والجنـوح حتى يسـقط ويعثر فى فضل خطامه .

وقوله (طلعت الشمس من مطلعها) يشبه عودة الخـلافة الى أهل بيت الرأفة والرحمة بحال طلوع الشمس من مشرقها أى بعـودة الأشياء الى طبيعتها وحلول الأمر فى مكانه الطبيعى .

وقوله (والآن قد أخذ القوس باريها) يشبه حال رجوع الخـلافة الى مستحقيها والمرشحين لهـا والعارفين بأصـول الامـامة فى الحفظ وسياسة الخلق بحال آخذ البارى لقوسه فهو أعرف بخيرها وشرها وكيفية تسويتها ووضـع سهامها فى الموضع الذى يصيب به شاكله الأمر .

هذا وان كان يمكن أن تجرى اسـتعارات مفردة فى ظـلال هـذه التراكيب فيشبه العدو مثلا بالبعير على طريق المكنيـة ويستعار القوس للخلافة والبارى لمن يستحقها على طريق التصريحيـة الا أن ذلك يذهب بروعة الصور المركبة ويطفىء جريان الاحساس الثورى والانفعال المتدفق الجارى فى معانيها ومبانيها (الفرق فى الحقيقة فرق جوهرى لأنك حـين تعتبرها تمثيلية انمـا تتناول حالة بكل أطرافهـا وأحـداثها ومقدماتهـا ونتائجها . تعتبر قصة كاملة فتدمجها فى مثلها وتذكر قصة أو حالة لتـدل بهـا على قصـة أو حالة . أنت هنـا لا تحرك الكلمـات من مواقعها كما كنت تفعل هنـاك ولكنك تحرك شـيئا أوسع تحرك أحـداثا مترابطـة وأحوالا متماسـكة تندمجها فى مثلهـا .. (١٠) .

ولذلك انبرى عبد القـاهر يوضـح الطريق الرشـيد فى تفسـير الشـعر وتذوقه بالحاسـة المهيئة لمعرفة طعمه وأنه لا ينبغى أن يؤخـذ أخذا اجمـاليا لأن فى ذلك اهـدارا لمعـانيه المتوارية فى أعطافه ومطاويه وبخاصـة اذا كانت هذه المعـانى لا تؤخذ من مفردات وانمـا من أشياء مضموم بعضها الى بعض . وعدم معرفة هذه الفروق الدقيقة يؤدى الى بتر الصـور وضـياع المعـانى .

---

(١٠) التصوير البيانى ٢٢٩ .

ويضرب لذلك مثلا بقولهم • اليد مجاز عن القدرة واليمـــين فى قوله تعالى : **(والسموات مطويات بيمينه) بمعنى القدرة وفى قول الشماخ :**

اذا ما راية رفعت لمجـــــــد

تلقـــاها عـــرابة باليمـــين

بمعنى القوة • وهكذا نظروا الى المعـــانى المفـــادة من الكلمـــات المفردة فجنوا على شـــطر كبير من المعـــانى المتـــولدة فى الحقيقـــة من الهيئات المتكاملة كأبى العباس المبرد • ولذلك قال عبد القـــاهر (وهـــذا منهم تفسير على الجملة وقصـــد الى نفى الجارحة بسرعة خـــوفا على الســـامع من خطرات تقع للجهال وأهل التشبيه جل الله وتعالى عن شـــبه المخلوقين ولم يقصـــدوا الى بيان الطريقة والجهة التى منها يحصل على القدرة والقـــوة واذا تأملت علمت أنه على طريقة المثل) (١١) •

لأنك لا تكاد تجدها تراد معها القدرة الا والكلام مثل صريح ومعنى القدرة منتزع من اليـــد مع غيرها أو هنـــاك تنويح بالمثل) (١٢) •

فكمـــا رفض عبد القاهر قول سيبويه ان التقـــديم يكون للعنـــاية والاهتمـــام وحبـــذ الكشف عن الكيفية من أين كانت هـــذه العناية ولم كان هذا الاهتمـــام نراه هنـــا لا يقتنع بقول المبرد عن أصحاب المعـــانى ان اليـــد مجاز عن القـــوة دون أن يبينـــوا الطريقة والجهة التى جاء منها هذا المعنى • ولو خطوا تلك الخطـــوة التى يوجه عبد القاهر نظر الدارس اليهـــا لأدركوا أن المعنى المراد ليس وليـــد كلمة بعينها وانمـــا هو نسيج لصورة متكاملة مأخوذة من اليد بضميمة شىء آخر اليهـــا •

ويبين الوجه الصحيح فى قوله تعالى : **(والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه)** •

فقـــد شبه أولا : حال الأرض فى تصرفها تحت قدرة الله وأنه لا يشذ شىء منهـــا عن ســـلطانه تعالى بحال الشىء الذى يكون فى قبضـــة الآخذ له منـــا والجامع يده عليه واستعيرت الحالة الثانية للأولى •

(١١،١٢) اسرار البلاغة ٢/٢٢٤/٢٢٦ •

وشبه ثانيـا : حال السموات فى اذعانها وطاعتها لقدرة الله تعـالى لا يشـذ شىء منها عن أمره وسـلطانه بحال الشىء يكون فى يمين الآخذ له المتمكن منـه •

وفى قول الشـماخ نجده يصف (عرابة) بالنهوض للمكرمات بجد واهتمام واحتفال وهذا لا يؤدى الا بمجموع انتلقى واليمـين • فيقال • شبه حال عرابة فى حرصه على فعل المحامد وشريف الفضائل بأريحيـة ونشاط بحال من يتلقى الشىء بيمينه وكان عبد القـاهر ذا قدرة فنيـة فى سبر دلالة الكلمة ومعرفة أثرها فى التصوير • فقارن بين البيت على نظمه السـابق وبينه لو وضعت فيه كلمة — التنـاول — فقيل •

اذا ما راية رفعت لمجـد

تنـاولها عرابة باليمـين

فانه يذهب منه الكثير من معانى الحرص والاهتمام والأريحية التى تفيض بهـا كلمة — التلقى — ويبقى المعنى فاترا ضعيفا لا طعم له كمـا قال •

أقسـامها :

أشـار الصبان الى أن الاستعارة التمثيلية تتنـوع الى تحقيقيـة وعقلية وتخييلية بالنظر الى الهيئة المستعار منها •

فالتحقيقية : ما كانت مكونة من أمور موجودة فى الخـارج كقولهم للمتردد انى أراك تقـدم رجلا وتؤخر أخرى •

والعقلية : ما كانت مكونة من أمور موجودة فى الذهن كقولك لجاهل صـادف صحة البيع • أراك تعلم شرائط البيع الشرعية •

والتخييلية : ما كانت مكونة من أمور متخيلة لا تحقق لها فى الخارج ولا فى الذهن كقولك لمن عرض نفسـه لنهلاك • أراك تدخل بيت الغول •

فالتخييلية عند البيانين تطلق على هذه وعلى قرينة المكنية وكأن التخييلية نوعان ، مفردة وهى قرينة المكنية ، ومركبة وهى التمثيلية المكونة من أمور متخيلة .

وكذلك الحال بالنسبة للتبعية ، نوعان ، مفردة وهى ما كانت فى المجاز المفرد ومركبة وهى التبعية التمثيلية كما وضحت عند السعد .

قرينة الاستعارة :

وضح ممـا سبق أن الاستعارة مجاز ولا بد فى كل مجاز من قرينة فهى — الأمر الذى ينصبه المتكلم دليلا على أنه لم يرد باللفظ المسـتعار حقيقة ما وضـع له أو هى الذى يفصـح عن المراد من غـير أن يستعمل فيه وهذا الأمر قد يكون لفظـا وقد لا يكون وتتحقق القرينـة اللفظيـة بلفظ يذكر فى الكلام يصرف المسـتعار عن معنـاه الحقيقى الى المعنى المجـازى • وهذه القرينة من ملائمـات المشبه فى الاستعارة التصريحية ومن ملائمـات المشبه به فى الاستعارة المكنية (١) •

القرينـة الحالية : هى الدلالة العقلية التى تصرف اللفظ المسـتعار الى المعنى المجازى مثل قول الشاعر :

ماذا تقول لأفراخ بذى مـرخ
زغب الحواصل لا ماء ولا شجـر

فالحطيئة استعار الأفراخ لأولاده الصـغار استعارة تصريحيـة أصلية وليس هنـاك لفظ يصرف اللفظ عن معنـاه الحقيقى سوى الدلالة الحالية • فقـد كان يستعطف عمر ليطلق سراحه ويعود الى صغاره فهم محتاجون اليه عاجزون عن القيام بشئونهم •

ومنه قوله تعالى : **« أو من كان ميتا فأحييناه » أى ضالا فهـدناه** • وقد سبق بيانها •

والقرينة اللفظية : تتنوع فى التصريحية الأصلية والتبعية فى الأفعال والمشتقات والحروف وفى المكنيـة •

---

(١) البيان بين عبد القاهر والسـكاكى ١٨٩ •

فالقرينة فى التصريحية :

١ — قد تكون أمرا واحد كمـا فى قولك — رأيت أسـدا يرمى • فالرمى قرينة صـارفة عن المعنى الحقيقى للاسـد الى المعنى المجـازى المراد وهو الرجل الشجاع •

٢ — وقد تكون أكثر من أمر واحد كالأمرين فى قول الشاعر :

فان تعـافوا العـدال والايمـانا
فان فى أيمـاننا نـيرانا

والمعنى : ان كرهتم العدل والايمـان بالله ورسوله نحـاربكم بالسـيوف ونلجئكم الى الطاعة فان فى أيدينا سيوفا تلمع كالنيران •

فاستعار — النيران — للسـيوف • استعارة تصريحيـة أصليـة والقرينـة المانعـة من ارادة النار الحقيقية — تعلق الفعل — تعافوا — بكل من العدل والايمـان وجعل الأمرين معـا قرينـة لتوقف الابانة عن غرض الشـاعر عليهمـا فهمـا بمنزلة الشرط فى حسن الاستعارة ولـو انفرد أحدهما عن الآخر لصحت الاستعارة •

(وهذا مبنى على جواز تعـدد القرينة وهو الحـق وقال بعضـهم لا يجوز تعـدد قرينة الاسـتعارة لأنه ان كان الصرف عن ارادة المعنى الحقيقى بجميع تلك الأمور فلا نسـلم تعدد القرينة وان كان بكـل واحد فلا حاجة لمـا عدا الأول وحينئذ فيجعل ترشيحا أو تجريدا) (٢) •

فالعلامة الدسـوقى يشـير الى جواز تعـدد القرينـة من منطلق هذه الشواهد ويذكر أن البعض يرى أن المعنى المجـازى اذا كان لا يظهر الا بمجموع هذه القرائن فالكل قرينـة واحدة • وان كان يظهر باحداها فالأول هو القرينـة والباقى يعتبر من باب الترشيح أو التجريد • وعليه فالمثـال المشـهور فى التجريد وهو — غمر الرداء اذا تبسم ضاحكا تعتبر كلمة — غمر — قرينـة الاستعارة وقوله — اذا تبسم ضاحكا — تجريدا وهـذا خلاف المشهور عند البلاغيين •

(٢) شروح التلخيص ٤/٧٢ •

وأرى أن تعلق — تعافوا — بكل من العدل والايمان لا ينهض أن يكون قرينة على أن المراد بالنار السيوف اذ لا مانع من أن يقول الانسان فى مقام التخويف والوعيد مثلا — ان تكرهوا العدل والايمان فانا قد أعددنا لكم النيران أى لاحراقكم فيها • وعلى هذا يكون المراد بالنيران النار الحقيقية • ولكن الذى دل على المعنى المجازى هو مجموع تعلق الفعل بالعدل والنيران مع قوله فى أيماننا لأن الذين يكون فى الايمان أى اليد المعلومة هو السيف • يقول ابن السبكى (والذى يظهر فى البيت أن القرينة مجموع فان تعافوا مع قوله أيماننا جمع يمين لأن الأول دل على العقوبة والثانى دل على عدم ارادة النار الحقيقية فان الذى هو فى الأيمان السلاح لا النار فان الغالب أنها تأجج ولا يطول مكثها فى الأيدى)(٣) •

كما فى قول الشاعر :

وصاعقة من نصله تنكى بها

على أرؤس الأقران خمس سحائب

يصف ممدوحه بالشجاعة والكرم على طريق الاستتباع •

ويستعير — السحائب — لأنامل الممدوح أو أصابعه على الحقيقة أو المجاز يعنى أن المقصود بالأنامل اما حقيقتها للمبالغة فى شجاعته وأنه لا كلفة عليه ولا مشقة فى تقليب السيف على الأعداء واما أنه أطلق الأنامل وأراد الأصابع على المجاز المرسل •

وجعل القرينة المانعة من ارادة السحب الحقيقية جميع ما تقدم فى البيت أى من ذكر الصاعقة وكونها من حد سيفه على التجريد أو الاستعارة ومن انقلابها على أرؤس الأقران ومن كون المنقلب بها خمسا • فمجموع هذه الأمور الأربعة تدل على المبالغة الواضحة التى يريدها الشاعر • والا فمن الممكن أن يقوم بعضها فى تعيين المراد ولكن تفوت الدلالة الواضحة البالغة فى الوضوح •

---

(٣) شروح التلخيص ٤/٧٣ •

قرينـــة التبعية فى الأفعال والمشـــتقات والحروف :

وأساس القرينة فى هذه الأنواع الثلاثة ارتباطها بغـــير الملائم حقيقة فتحتاج التراكيب للبحث عن دلالة يســـتقيم المعنى عليهـــا وهـــذا المعنى هو المعنى المجازى والمرشد اليه قد يكون :

١ ــ **الفاعل :** كمـــا فى قولك • نطقت الحال بكـــذا فانه يســـتحيل تعلق النطق الحقيقى بالحال فدل ذلك على أن المراد بالنطق ليس معنـــاه الحقيقى وانما المراد به الدلالة • فهى التى تتفق مع الحال ــ فاستعـــير النطق للدلالة على سبيل الاستعارة التصريحية التبعيـــة •

٢ ــ المفعول كمـــا فى قول ابن المعتز :

جمـــع الحـــــق لنـــا فى امـــام
قتل البخـــل وأحيـــا الســـماحا

فالقتل والاحياء يتعلقـــان بالأجســـام الحية والبخل والسماح من المعنويات فكان تعلق الفعلين ــ قتل و ــ أحيـــا ــ بالمفعولين ــ البخل ــ والسماح تعلقـــا غير حقيقى ــ فالمراد اذن منهمـــا هو المعنى المجازى ــ فيقال فى الأول شبه الازالة بالقتـــل فى الاعدام لما يتعلق بهمـــا واستعير القتل للازالة وأشتق منـــه قتل بمعنى أزال • وفى الثـــانى شـــبه كثرة الســـماح بالاحياء بجامع ظهور المتعلق فى كل واســـتعير الاحيـــاء للكثرة واشتق منه بهـــذا المعنى أحيا بمعنى أكثر •

٣ ــ المفعول الثانى • كمـــا فى قول الشاعر :

نقريهم لهذميـــات نقـــد بها
ما كان خاط عليهم كـــل زراد

فالقرى هو تقديم الطعام للضـــيف • ولكنه هنـــا تعلق بالهذميات وهى الأسنة القاطعة فدل ذلك على أن المراد بالقـــرى غـــير معنـــاه الحقيقى • وهو تقديم الطعنـــات فشبهها بتقديم الطعام بجامع التقديم فى كل واستعير القرى لتقديم الطعنات واشتق منه بهذا المعنى نقريهـــم بمعنى نطعنهم على سبيل التبعية •

٣ — المفعول الأول والثانى كمـا فى قول الشاعر :

وأقـــرى المســامع اما نطقت

بيانا يقــود الحرون الشــموسا

فتعلق القرى بكل من المســامع والبيــان دل على أن المراد به غــير معنــاه الحقيقى الســابق وأن المعنى المجــازى هو المــراد أى تقــديم عــذب الحديث .

٥ — المجرور كمـا فى قوله تعالى : ((**فبشرهم بعــذاب أليــم**)) فالتبشير الاخبار بمـا يسر فيدل تعلقه بالعذاب على أن المراد به ضــده وهــو الانذار بما يسىء . فشبه التبشير بالانذار بتنزيل انتضــاد بينهما منزلة التناسب تهكما واستعير التبشير للانذار واشــتق منــه بمعنى الانذار بشر بمعنى أنذر . على سبيل التبعية التهكمية .

٦ — أن تكون جميع ما تقــدم كمـا قال الســكاكى فى قــول الشــاعر :

تقرى الرياح رياض الحزن مزهرة

اذا سرى النوم فى الأجفان ايقاظا

فالقرى الحقيقى لا يصدر من الفــاعل — الرياح — ولا يقــع على المفعول الأول — الرياض — ولا على المفعول الثــانى — الايقـــاظ — ولا يتعلق بالجار والمجرور — فى الأجفان — وقيل ان المجرور متعلـــق بالفعل — سرى — وعليه فهو غير داخل فى القرينة .

٧ — المجرور فى الاستعارة بالحرف لأن مدخول الحــرف اذا كان صــالحا لتعلق معنى الحرف الحقيقى به كالظرفيــة بالنسبة للحــرف — فى — كان حقيقة مثل — زيد فى المسجد ومحمــد فى البيت وان كان غــير صالح لتعلق معنى الحرف به دل على أن تعلقه به مجازا كقولنــا — هو فى نعمة أو فى ضــلال وكالاستعلاء بالنسبة للحرف — على — نقول : محمد على الفرس وعلى الجبل فيكون حقيقة ولو قلنــا محمد على الهدى أو على الحق كان مجازا — قال السيوطى — ان قرن الحرف بما يلائمه كان حقيقة

وان قرن بغير الملائم كان مجازا فى التركيب) (٤) •

٨ — ارتباط أدوات الشرط بأفعال ذات صبغة زمنية معينـــة كتلك الأدوات التى استعرضنا مدلولاتها وأوضـــاعها مع أفعالها فى الاستعارة الزمنيـــة • فارتباط — اذا — مثلا بالمضـــارع دل على أن الماضى الـــذى يأتى بعدها على سبيل المجاز وارتباط — لو — بالماضى دل على أن ما يأتى بعدها من المضـــارع على سبيل المجاز — كمـــا أنه عندما تجرى استعارة مكنية فى مدخولها تكـــون هذه الأداة نفســـها هى قرينة الاستعارة •

قرينـــة المكنيـــة :

مضى الحديث عن الاستعارة المكنية وقرينتهـــا فهى اثبـــات لازم المشبه به للمشبه وهذا الاثبات استعارة تخييليـــــة • وفى رد التبعيـــة للمكنية على مذهب الســـكاكى فى الاستعارة بالحرف يكون مدخول الحرف هو المشبه والحرف هو اللازم المثبت له على طريق التخييل قرينة •

---

(٤) المزهر ١/٢١٠ •

الاستعارة بين الحسن والقبح

طرق البلاغيـون المتأخرون هذا الموضـوع من الوجهة التقنينيـة المعيـارية انطلاقا من رغبتهم فى التقسـيم والتحديد ووضعوا لحسـن الاستعارة شروطا اذا روعيت فى بنـاء الكلام حسـنت الاسـتعارة والا قبحت • ومن هذه الشروط •

١ — **رعاية جهات حسن التشبيه** : وهـذا الشرط من منطق أن التشبيه أصل للاستعارة فاذا حسن الأصل حسـن الفرع المتـولد منـه وحسنه من كون الوجه شـاملا للطرفين وغريبا غير مبتذل وكون التشبيه وافيـا بالغرض المقصـود (١) •

مناقشـة هذه الشروط :

بالنسبة لمحـاولة وضع شروط لحسن الاستعارة فيها مجانبة كبيرة للصـواب لأن وضع شروط معينة يمكن أن تأتى الثمرة المرجوة منها فى أى علم ما عـدا علم البلاغـة الذى يقـوم فى جانبـه الأكبر على التـذوق واستشفاف الجمـال من دلالات التعبير وأعطـاف الكـلام ومقضـيات الأحوال وهذه الأمور لا تخضـع لقاعدة محددة لأنها تنطلـق من النفس المتذوقة والاحسـاس المطبـوع ولا يمكن حصرهمـا فى مسارب محددة فالنفـوس والأطبـاع لا تلتقى على حذو واحد ولكنهـا متباينـة تباين الأشـكال التى تبدو فى ظلالهـا • ولذلك يكـون من الصـعوبة بمكان وضـع أطر معينـة لمسـار الاسـتعارات الحسـنة • ولكن من الممكن تصور مبادىء عامة يمكن النظر من خلالها الى الاستعارات المستحسنة • وسـنذكر شـيئا فى ذلك •

وأما كون حسن الاستعارة مربوطا بحسن التشبيه فهذا لا يستقيم على اطلاقه لأنه يؤدى الى أن التشبيه الحسن يمكن نقله الى اسـتعارة

---

(١) ينظر فى ذلك شروح التلخيص ٤/٢٢١ •

حسنة وأن التشبيه القبيح يؤدى الى استعارة قبيحة • وليس الأمر كذلك • فهناك من التشبيهات الرائعة ما لو نقلت الى الاستعارة لفقدت جمالها ودخلت فى باب الخفاء • ومنه قوله ﷺ — الناس كابل مائة لا تجد فيها راحلة — يصور فكرة ندرة وجود الكامل مع كثرة أفراد جنسه • فهذا الشبه الخفى اقتضى أن يظل الحديث على وضعه هكذا كامل الأركان فلو حذف أحد أركانه أو نقل الى الاستعارة لفات الغرض المقصود • فلو قلنا : الناس كالابل لم يعلم الوجه المقصود وتوهم أنهم كالابل فى كثرة الأكل أو كبر الأعضاء أو فى التحمل والجلد • وكذلك لو نقل الى الاستعارة فقيل — رأيت ابلا مائة لا تجد فيها راحلة — تريد الناس — كان تعمية والغازا — ويلاحظ أن الرسول الكريم اختار الابل لأنها تتكاثر فى مرأى العين حسن شياتها وأشكالها الملبسة والموهمة بعتقها وكرمها وهذا هو الذى تراه فى الناس حين ترى الكثير يرتدون مسوح الراشدين ويتحدثون بلسان الصديقين ولكن الخبر يمزق كل هذه الأقنعة ويكشف قلوب الشياطين وراء وجوه الملائكة • الشبه الذى أوضحه هذا التشبيه شبه خفى ولولا التشبيه بكامل أركانه ووضوح أدواته لما استطاع ابرازه)(٢) •

وكذلك قوله ﷺ : (مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الريح تصرمها مرة وتعدلها أخرى حتى يأتيه أجله ومثل الكافر كمثل الأرزة المجذبة على أصلها لا يصيبها شىء حتى يكون انجعافها مرة واحدة) •

يصور رحلة المؤمن فى الحياة وأنه فيها بين سرور وبكاء ويسر وعسر وضيق وسعة يتقلب بين الشكر والصبر وبين الخوف والرجاء حتى يأتيه أجله فينقلب الى حياة لا كدر فيها ولا شقاء • ويختار له (الخامة من الزرع) هذا العنصر الغض اللين الهين الذى تحركه الريح فهو دائما بين اعوجاج واستقامة يؤدى مهمته فى الحياة حتى يزول وهكذا المؤمن السارب فى الحياة عرضة لبلائها ومنغصاتها وتكشيرها فى

---

(٢) التصوير البيانى ٣٢٥ •

وجهه ولكنه يصبر ويصـــابر ويتحمل ويغالب حتى يأتيه اليقين . فيحظى بالرضـــا والقبول انها مواساة للمؤمنين فى هذه الحياة .

وعلى الطرف المقـــابل . نجد الطغاة المتكبرين الذين لا تهز قلوبهم آية ولا يقنعهم دليل فيظلوا على عتوهم وجبروتهم عاكفين حتى يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ولذلك يختار الرســـول لهـــم — شــــجرة الأرز —

وهنـــا تكمن الدقة البيانية النبـــوية فى التعبير بهـــذا العنصر . فالأرز — تدور مادته حول الثبات والتقبض والتجمـــع والبخل كمـــا أن شجرة الأرز وهى الصنوبر كمـــا ورد فى اللســـان ليس لها ثمرة ســـوى الزفت الذى يستخرج من عصارتها وأعتقـــد أن كل هذه المعـــانى مرادة فى تشبيههم بها وأنهـــا تظل كذلك حتى يكون قطعها مرة واحدة .

وكذلك فى تصويره ﷺ المؤمن بالنخلة فى كثرة النفـــع واســـتمرار العطاء وأن ذلك ليس مقصورا على المســـالمين بل يتعداه أيضا الى المؤذين فالنخلة تقـــذف بالحجارة فتسقط رطبا جنيا .

فلو أخرجنـــا هذه الأحاديث مخرج الاستعارة لغامت هذه المعانى المقصـــودة وكان تكثيفـــا بعلم الغيب كمـــا يقولون . وقال عبـــد القاهر (ليس كل شىء يجىء فيه التشبيه الصريح بذكر الكاف ونحوها يستقيم نقل الكلام فيه الى طريقة الاستعارة واســـقاط ذكـــر المشـــبه جملة والاقتصار على المشبه به) (٣) .

وضرب لذلك أمثلة بالأحاديث السابقة وبقول النابغة :

فانك كالليل الذى هو مـــدركى
وان خلت أن المنتأى عنك واسع

فالشاعر تتسلط عليه رهبة الخوف ويحيط به اليأس حيث أن سطوة النعمـــان نازلة به لا محالة وان أوهم نفسه بامكان الافلات فشبهه بالليل الذى يمثل الخوف وتراكم الهمـــوم وانقطـــاع الأنيس والاحاطة من كل

---

(٣) أسرار البلاغة ٢/ ١٠١ .

مكـــان • فكان وضــع التشبيه أن يظهر على وضعه هكـــذا • حتى يبــين عن مقصود الشاعر •

ومثله قول أبي تمـــام :

وكأن المطل في بدء وعـــــود

دخـــــانا للصنيعـــة وهي نار

قد شبه المطل بالدخان والصنيعة بالنــار ولكنه صرح بذكر المشـــبه وأوقع المشبه به خبرا عنه وهو كلام مســتقيم ولــو سلكت به طريقـــة ما يسقط فيه ذكر المشبه فقلت مثلا أقبستني نارا لها دخان — كان ساقطا ولو قلت • أقبستني نورا أضاء أفقي به • تريد علمـــا كان حسنا حســـنه اذا قلت • علمك نور في أفقي • والســـبب في ذلك أن اطراح ذكر المشــبه والاقتصــار على الاسم المشبه به وتنزيله منزلته واعطائه الخـــلافة على المقصـــود • انمـــا يصح اذا تقرر الشبه بين المقصود وبين ما نســـتعير اسمه له وتستبينه في الدلالة وقد تقرر الشبه بين المرأة والظبيـــة وبينهـــا وبين الشمس ولم يتقرر في العرف شبه بين الصنيعة والنار وانمـــا هـــو شيء يضعه الآن أبو تمـــام ويتمحله ويعمل على تصويره فلا بد له من ذكر المشبه والمشبه به جميعـــا حتى يعقل عنه ما يريده ويبـــين الغرض الذي يقصـــده والا كان بمنزلة من يريد اعلام الســـامع أن عنـــده رجلا هـــو مثل زيد في العلم مثلا فيقول له — عنـــدي زيد •

ويسومه أن يعقل عن كلامه أنه أراد أن يقـــول عنـــدي رجل مثـــل زيد أو غيره من المعاني وذلك تكليف علم الغيب)(٤) •

وأما كون الوجه شـــاملا للطرفين فمعلوم أنه لا يصـــح تشـــــبيه ولا استعارة الا اذا كان بين الطرفين وان تباعـــدا جامع اذ هـــو الوصف الذي قصـــد اشتراك الطرفين فيه حقيقة أو تخييلا • فهذا الشرط يعتبر شرط صحة لا استحسان •

وأما كون وجه الشبه بعيـــدا فقد وضح البلاغيـــون أنه ليس المراد بالبعد البعـــد الذي يصل الى حد التعمية والالغـــاز كمـــا أن ليس المراد

---

(٤) أسرار البلاغة ٢/١٩٤ •

بالقرب الذى يصير جلاؤه الى ابتذال — ومن هنا فليس هناك تناف بين اشتراط البعد فى التشبيه واشتراط القرب والجلاء فى الاستعارة — لأن المراد بالقرب فى الاستعارة أن يكون الشبه قويا واضحا وان كان بين طرفين متباعدين وهذا نفسه هو شرط الحسن فى التشبيه لأن تباعد الطرفين لا يحقق بلاغة التشبيه الا اذا قوى الشبه بين هذين المتباعدين حتى يكون مقدار قربها فى انقلب على مقدار بعدهما فى الحس) (٥) •

وأما كون التشبيه وافيا بالغرض المقصود فليس حسنه هذا شافعا لامكانية نقله الى الاستعارة وقد بينت طرفا من الأحاديث النبوية والشواهد الشعرية التى جاءت على أسلوب التشبيه ولا يمكن نقلها الى الاستعارة اذ لم تجر تشبيهاتها على أوجه متعارفة مشهورة • وأبعد من هذه التشبيهات فى النقل الى الاستعارة تلك التشبيهات التى فقدت الدلالة على الغرض المقصود منها كهذا التشبيه الذى شبه صاحبه نفسه بالحمار فى الصحة فقال :

بل لو رأتنى أخت جيراننا
اذ أنا فى الدار كأنى حمار

فدلالة هذا التشبيه على الصحة من أبعد ما يكون والمتبادر منه هو الغباء والبلادة • فهذا التشبيه الفاسد أو البعيد كما سماه المبرد لا يمكن نقله الى الاستعارة بنفس الغرض المقصود وهو الصحة •

وقد وضح عبد القاهر أن الفرق بين التشبيه الذى يظل فى دائرة التشبيه وبين التشبيه الذى ينقل الى الاستعارة من المواطن الغامضة ويصعب وضع قاعدة معينة أو قول قاطع فى ذلك وغاية ما يمكن الاعتماد عليه هو : (أن الشبه اذا كان وصفا معروفا فى الشىء قد جرى العرف بأن يشبه من أجله به وتعورف كونه أصلا فيه يقاس عليه كالنور والحسن فى الشمس أو الاشتهار والظهور وأنها لا تخفى فيها أيضا وكالطيب فى المسك والحلاة فى العسل والمرارة فى الصاب والشجاعة فى الأسد والفيض فى البحر والغيث والمضاء والقطع والحدة فى السيف

---

(٥) التصوير البيانى ٣٢٣ •

والنفاذ فى السنان وسرعة المرور فى السهم وسرعة الحركة فى شعلة النار وما شاكل ذلك من الأوصاف التى لكل وصف منها جنس هو أصل فيه ومقدم فى معانيه — فاستعارة الاسم للشىء على معنى ذلك الشبه تجىء سهلة منقادة) (٦) .

فيستخلص مما تقدم . أن التشبيه الذى تقوى فيه المشابهة ويجرى به العرف وتعتبر أصالته فيما يدل عليه كالحسن فى الشمس والحلاوة فى العسل والشجاعة فى الأسد وغير ذلك يمكن نقله الى الاستعارة اذا أريد المبالغة فى التشبيه .

وأن التشبيه الذى تخفى وجه المشابهة فيه وتدق ولا يكون المقصود منه ما هو متبادر ومعروف ولكنه يهدف الى خصوصية معينة لو برزت فى معرض غير التشبيه لتوهم غيرها ولضاعت الفائدة منه فهذا لا يمكن نقله الى الاستعارة .

وأن التشبيه الذى فسد ببعده عن غرضه أولى من السابق فى عدم امكان نقله الى الاستعارة .

٢ — أن لا يشم رائحة التشبيه لفظا . وانما قيدوا عدم الاشمام باللفظ دون المعنى لأن الاستعارة مبنية على التشبيه وهو يشم منها بوساطة القرينة فلا يمكن نفيه قطعا من جهة اللفظ والمعنى معا وقد أشرت فى مبحث الفرق بين التشبيه والاستعارة الى الاعتبارات التى تجذب التركيب الى دائرة التشبيه كبيان المشبه بعد ذكر المشبه به أو ذكر وجه الشبه أو ذكر أوصاف تلائم كون المشبه به مستخدما فى معناه الحقيقى فلا داعى لاعادته هنا .

وانما نقول فقط اذا ورد شىء من هذه الأمور فى التراكيب فانها لا تنفى الحسن فحسب وانما تنفى الاستعارة نفسها اذ يبقى الأسلوب فى قالب التشبيه .

---

(٦) أسرار البلاغة ٢/١٠٤ .

وأما لو ذكر المشبه على وجه لا ينبىء عن التشبيه كمـا فى قـوله — قد زر أزراره على القمر — حيث عاد الضمير فى — أزراره — على المشبه ولكن ليس على وجه ينبىء على التشبيه فان الأسلوب يظل استعارة ولكن ينفى حسـنها • أى أن الأمور الثلاثة الأولى تكـون مبطلة للاسـتعارة والأمر الرابع يكون مبطلا لحسنها •

وكان اشـمام رائحة التشبيه منافيـا للاستعارة لأنه مبطل للغرض منهـا وهو المبالغـة القائمة على دعوى الاتحاد ودخول المشبه فى جنس المشـبه به •

ومعلوم أن هنـاك اعتبارات أخرى تؤثر فى حسن الاستعارة يمكن استقاؤها من تلحيلات عبد القـاهر وتعليقـات النقاد على كثير من صور الشعراء • ومن هذه الاعتبارات •

٣ — دقة التصوير فى اخراج صورة الاستعارة : وهـذا المقيـاس وضحه عبد القاهر فى عرضه لكثير من صور الاستعارة حيث لم ينظر اليها فى ذاتها وانمـا نظر اليها من خلال النظم • الذى تظهر به دقة التصـوير وجمال التعبير • وقد أشرت الى شىء من ذلك فى مقـدمة هـذا البحث فى الحديث عن النظم وأثره فى صور المجاز والكنـاية • فقـد كان حـديث عبد القـاهر يتجاوز الكلمة المفردة الى الكلمـات التى تتضام وتتشـاكل فى اللفظ على نمط تشاكلها فى النفس وانبعاثها من القلب فيحدث الشـاعر خيوطا متشابكة حول المجاز حتى تقوى أواصره وتشتد بنيته ويصير لحمه لا تنفصل عن بقيـة اللبنـات الأخرى كمـا فى قول الشاعر :

« وسالت بأعنـاق المطى الأباطح »

فلم يبرز المجـاز اللغوى منفردا عن بقيـة التعبير والا كان عاريا من الحسن بل نبه الى أن هذا المجاز أسـند الى المحل وهو — الأباطح — اشـارة الى الكثرة البالغة التى تتدفق من هنـا وهناك حتى يخيل لك أنك لا ترى ابلا تسير وانمـا أباطح تسيل • وعدى الفعـل — سال — ببـاء الملابسة الى الأعنـاق فأدخلها فى السير من حيث كونه دالة على السرعة اذ بوساطتها تفهم السرعة والبطء وبقية الأعضاء تابعـة لهـا • فهـذه

الاستعارة — وهى استعارة السيل لسير الابل — قد شفعت بمجازين عقليين أحدهما لفظى فى اسناد الفعل — سال — الى الأباطح والآخر تقديرى وهو اسناده الى الأعناق •

وقول الآخر :

وجعلت كورى فوق ناجية
يقتات شحم سنامها الرحل

فقد استعار الاقتيات لاذهاب شحم السنام فحسنت هذه الاستاعرة بهذا اللفظ المصور والمعبر عن الاذهاب شيئا فشيئا لأن إقتيات الزاد ينقصه تدريجيا ثم ان الفعل — يقتات — أسند الى — الرحل — وهو الذى يلازم سنام الناقة طول الرحلة فكأنه هو الذى يأكل الشحم وبخاصة أن الشحم مما يقتات • وهكذا تتعانق صور المجاز مشيرة الى حسن الاستعارة وجمالها •

وان تعجب فعجب قولهم • مثل هذا لا يفيد شيئا كثيرا (٧) فما الذى يروع ويعجب ان لم يكن مثل هذا •

وقول الشاعر :

وليل كموج البحر أرخى سدوله
على بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه
وأردف أعجازا وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا
انجلى بصبح وما الاصباح فيك بأمثل

يصف امرؤ القيس فى هذه الصورة طول الليل وثقله على نفسه فبدأ بهذا التشبيه (وليل كموج البحر) الذى يوحى بالرهبة والخوف والتدافع الى ما لا نهاية وان كانت له نهاية فنهايته ارخاء هذه السدول عليه بأنواع الهموم التى تؤرقه وتقض مضجعه فيشتد انفعاله وتقوى

(٧) الصورة الأدبية ١٤٩ •

زفراته ازاء ثقل الليل وطوله فيخطو خطوة أخرى أعمق نحو التشخيص والتجسيم بالاستعارة فى البيت الثانى فيصور الليل بصورة الحيوان الذى يتمطى • وهذه الكلمة — يتمطى — لهـا دلالتها المصورة والمعبرة لأن الحيوان يظهر طوله بخاصة عند التمطى • ورمز الى هذا الطول بكلمة — الصلب وبترادف أعجازه الى بطئه وتتابعه وكأنه لا آخر له وبنوء كلكله الى ثقله • وناهيك عن هذه المخاطبة — فقلت له وكأنه أصبح يرى الليل رؤية جديدة فليس هو هذا الليل الصامت ولكنه الليل الذى اقترب منه الشاعر واندمج فيه وبثه همومه وأعلمه ما يتمناه — ألا انجلى •

ونلاحظ أنه سلك طريق التدرج من الأدنى الى الأعلى فى بناء هذه الصورة وذلك تبعا لتوهج احساسه وقوة انفعاله فبدأ بالتشبيه الذى يثبت به المعنى ثبوتا أوليا وانتقل الى الاستعارة التى يثبت بها المعنى بطريق القطع والوجوب فهى أبلغ واكد • وهذا التدرج فى اثبات المعانى مرآة لتكاثف الهموم على نفسه التى ألم بها من طول ليله ولذلك كان دائم التنبيه لليل بكلمة — ألا — التى تمثل صرخة الشاعر بهذا المقطع الصوتى الممتد •

واذا كان المراد بالأمر فى — انجلى — هو التمنى فان — طبيعة المعنى فى باب التمنى ما يجعله من الأساليب ذات الوقع والتأثير لأنك فى مواقعه تجد نفسا ظمئة الى شىء ثم ان ظمأها ظمأ لا يروى أو يستبعد ريه)(٨) ولعل هذا الاستبعاد طاف بخيال الشاعر فقال — وما الاصباح فيك بأمثل •

يقول عبد القاهر — ومما هو أصل فى شرف الاستعارة أن ترى الشاعر قد جمع بين عدة استعارات قصدا الى أن يلحق الشكل بالشكل وأن يتم المعنى والشبه فيما يريد مثال قولك امرىء القيس فقلت له ••••••

لما جعل لليل صلبا قد تمطى به ثنى ذلك فجعل له أعجازا قد أردف بها الصلب وثلث فجعل له كلكلا قد ناء به فاستوفى له جملة أركان

---

(٨) دلالات التراكيب ٢٠٤ •

الشخص وراعى ما يراه الناظر من ســواده اذا نظر قدامه واذا نظر الى خلفه واذا رفع البصر ومده فى عرض الجو (٩) ٠

٤ ــ اخفــاء التشبيه الذى بنيت عليه الاستعارة :

وهذا المقيــاس أشــار اليه عبد القاهر بقوله ــ واعلم أن من شأن الاستعارة أنك كلمــا زدت ارادتك التشبيه خفــاء إزدادت الاســتعارة حســنا حتى انك تراها أغرب ما تكون اذا كان الكلام قد ألف تأليفــا ان أردت أن تفصــح فيه بالتشبيه خرجت الى شىء تعــافه النفس ويلفظــه السمع ومثال ذلك قول ابن المعتز :

أثمرت أغصــان راحتــــه

بجنــان الحسن عنـــــابا

ألا ترى أنك لو حملت نفســك على أن تظهر التشــبيه وتفصــح به احتجت الى أن تقول • أثمرت أصابع يده التى هى كالأغصــان لطــالبى الحسن شبيه العناب من أطرافها المخضوبة وهذا ما لا تخفى غثاثتــه من أجل ذلك كان موقع العنــاب فى هذا البيت أحسن منه فى قوله ــ وعضت على العنــاب بالبرد ــ وذاك لأن اظهار التشبيه فيه لا يقبح هذا القبح المفرط لأنك لو قلت وعضت على أطــراف أصــابع كالعنــاب بثغر كالبرد كان شيئا يتكلم بمثله وان كان مرذولا وهذا موضــع لا يتبين سره الا من كان ملتهب الطبــع حاد القريحة (١٠) ٠

فاذا كان مبنى الاستعارة على تناسى التشــبيه فان حصــول هــذا التناسى حصولا أوليــا يحقق المرتبة الأولى من مراتب قبول الاســتعارة ثم تخطو بعد ذلك فى مراتب الاحسان فكلمــا زاد خفاء التشــبيه وتناسى المجاز بوســائل الترشيح مثلا ازدادت الاســتعارة حســنا (وكأنهم يشترطون وضــوح هذا التشبيه أو تقرره فى خيال النــاس قبل أن يغروا الأديب والشــاعر بأن يجتهد فى اخفــائه واطراحه وتناسيه بكل ما اديه

---

(٩) دلائل الاعجاز ١١٦ ٠

(١٠) دلائل الاعجاز ٤٠٤ ٠

من وسائل بيانية وهذا ضرورى والا كان الكام ضربا من التعمية)(١١) •

٥ — قرب اللازم من المألوف فى الاستعارة المكنية :

تقوم الاستعارة المكنيــة على جعــل الشىء للشىء ليس له وهــذا الشىء المجعول هو اللازم ومن هنــا فانه يلعب دورا هــاما فى حســن الاستعارة وقبحها • فاذا كان اللازم قد بنى على خيال معــروف أو على مجاز مألوف حسنت به الاستعارة وهذا واضح فى قول زهير — وعــرى أفراس الصبا ورواحله •

يقول الآمدى (لما كان من شأن ذى الصبا أن يوصف أبدا بأن يقــال ركب هواه وجرى فى ميدانه وجمح فى عنــانه ونحو هذا حسن أن يستعار للصبا اسم الأفراس وأن يجعل النزوع أن تعرى أفراسه ورواحله وكانت هذه الاستعارة أيضا من أليق شىء بما استعيرت له) (١٢) •

فكأن ركوب الهوى والجرى فى ميدانه والجمــوح فى عنــانه آفاقا مألوفة هيأت للشــاعر أن يجرى على ســـنن قريب بجعله الأفــراس والرواحل للصبا • لوازما دالة على الاستعارة •

والاستعارات المكنية التى عرضناها تجرى على هذا النسق •

وكمــا فى جعلهم الدهر يضحك فى قول أبى تمام — ويضحك الدهر وجعلهم له فمــا فى قول المتنبى — كأنك فى فم الدهر ابتسام — وساعدا فى قول ابن الرمينة — هم ساعد الدهر الذى يتقى به — وجعلهم القصائد من الشرد السائرات — وعندى لك الشرد الســائرات — وغــير ذلك من الاستعارات الحسنة لكون اللازم على وفق ما هو معهــود ومــألوف فى الخيال والمجاز وهذا هو المنهج اذى رضيه النقاد قال الآمدى : (وانمــا استعارت العرب المعنى لما ليس له اذ كان يقاربه أو يدانيه أو يشــبهه فى بعض أحواله أو كان سببا من أسبابه فتكون اللفظة المســتعارة حينئــذ

(١١) التصوير البيانى ٣٢٨ •
(١٢) الموازنة ٢١٤ •

لائقة بالشيء الذى استعيرت له وملائمة لمعنـــاه) (١٣) .

ولذلك رفضـــوا كثيرا من الاستعارات التى جانبت هـــذا المنهـــج ووصفوها بالرداءة كمـــا فى قول أبى تمام :

لهـــــا بين أبواب الملــــوك مـــزامر
من الذكر لم تنفــــــخ ولا هى تزمر
* * *
وما ذكر الـــــــدهر العبـــوس بأنه
له ابن كيـــوم السبت الا تبســــما
* * *
به أسلم المعروف بالشـــام بعـــــد ما
ثوى منذ أودى خالد وهــــــو مرتد
* * *
يا دهر قـــوم من أخدعيـــك فقـــــد
أضججت هذا الأنام من خرقك (١٤)
* * *

وغير ذلك من الاستعارات التى ذكرها الآمدى والجـــرجانى لأبى تمام وغيره ثم قال (فاسدد مسامعك واستغش ثيابك وإياك والاصـــغاء اليه واحذر الالتفـــات نحوه فانه مما يصـــدىء القلب ويعميـــه ويطمس البصيرة ويكد القريحة) (١٥) .

كمـــا أنكرها الآمدى لأنه ذكر أن للدهر أخدعا وابنـــا كيوم السبت وللقصائد مزامر وطبـــول وجعل المعـــروف مســـلما تارة ومرتدا أخـــرى فالاستعارة هنـــا خرجت عن المألوف وبعـــدت عنـــه وجاءت بتشـــكيلات مبعـــدة فى الغرابة من غير أن تكون هناك ضرورة تلجىء الى ذلك والآفاق الجـــديدة فى المجـــاز ليست مردودة ولا معيبة بل انهـــا تحسب للشعراء وقد رأينـــاهم يثبتون بهـــا الفضيلة ويرفعون بها الطبقـــة فقد ذكروا فى

---

(١٣) الموازنة ٢١٤ .
(١٤) نقلا عن الموازنة ٢٠٨ .
(١٥) الوساطة ٤١ .

فضـــائل امرىء القيس أنه أول من قيــد الأوابد وأول من شبه الثغر فى لونه بشوك السيال ٠٠٠٠٠٠) (١٦) ٠

فاذا كان تصوير الدهر بصـــورة الانسان فى حالتى الوفاء والغـــدر مما جرى به المجـــاز فان منطلق الاســـتحسان كان من أجل أن اللـــوازم التى أخذت من المشبه به وأثبتت للمشـــبه كانت دالة دلالة واضـــحة على المراد بخـــلاف اللوازم التى استهجنت من أجلها الاستعارات الرديئة فقد كانت مبعـــدة فى الغرابة ولم تهيأ النفس لقبولها ٠

وان كنت أرى قوله ـــ يا دهر قوم من أخدعيك ٠٠٠٠٠٠ استعارة حسنة لأن أبا تمـــام يصف داهرا معوجا فيه اباء وكبرياء اتسعت مساحته حتى ضـــج منه الأنام ٠ فهو دهر عصى فيه شراســـة وشـــموس ولذلك اتجهت عينـــه الشـــاعرة الى أبرز شىء فى الانســـان يظهـــر به عجبـــه وكبرياؤه وهو الأخـــدع فالأخدعان ٠ عرقان فى جانبى العنـــق ٠ وتدور المـــادة ـــ خدع ـــ حول الدهاء والمكر وقلة المطر ٠ فقالوا ٠ خدع الزمان أى قل مطره وســـنين خداعة أى ناقصـــة الزكاة قليلة المطر ورجل شديد الأخدع أى ممتنع أبى ولين الأخـــدع بخـــلاف ذلك ٠ فبعـــد أن صـــور الشـــاعر الدهر بصـــورة الانسان المختال بقوته والذى لا يرفق بغيره ٠ اقترب منه أكثر وناداه نداء من يعقـــل ـــ يا دهر وأثبت اللوازم التى تبين مراده تمام الابانة فذكر الأخدعين وهمـــا من أوضح ما يكون فى الانسان المصعر خده ثم ذكر بعـــد ذلك الضجيج بلفظ فيه ثقـــل الحروف ليكـــون مرآة لثقل المعنى المراد تصـــويره وناهيك عن كلمة ـــ خـــرق ـــ فهى تدل على الشـــدة فقد ورد فى اللســـان الخرق نقيض الرفق وقالوا الرفق يمن والخرق شـــؤم ويطلق أيضـــا على الجهل والحمق ٠ فالصورة بحروفها ومكوناتها من الاستعارة ولواحقها متناسقة ٠ ودالة على الغرض المقصود ولا بنو ولا نشـــاز فيها ٠

يضـــاف الى ذلك ما ذكره صاحب الوســـاطة على هذا البيت (فانما يريد اعدل ولا تجر وأنصف ولا تحف لكنـــه لما رآهم قد اســـتجازوا أن ينســـبوا اليه الجور والميـــل وأن يقـــذفوه بالعســـف والظلم والخـــرق

(١٦) التصوير البيانى ٣٣١ ٠

والعنف وقالوا قد أعرض عنـا وأقبل على فلان وقد جفانا وواصل غيرنا وكان الميل والاعراض إنمـا وقـع بانحراف الأخـدع وازورار المنكب استحسن أن يجعل له أخدعا وأن يأمر بتقويمه (١٧) •

٦ — أن تثير الاستعارة فى النفس معانى الاعجاب والاجلال :

وقد سردنا كثيرا من الاستعارة التصريحية وبينا ما فيها من جمـال معجب وتصوير خلاب وصل الى مرتبة الاعجاز فى القرآن الكريم وكذلك الحال فى الاستعارة المكنية والتمثيلية فنيراجع فى مواطنه •

وقد أشار أسـتاذنا الدكتور محمـد أبو مـوسى الى أن فسـاد الاستعارة يمكن أن يكون مرجعه (الى أن الشكل أو الصورة التى تشكلت من المشبه ولاحقة من لواحق المشبه به صورة نافرة تثير معنى الاستخفاف

والهزء أكثر مما تثير الاعجاب والاجلال كمـا فى صورة — لهـا بين أبواب الملوك مزامر وكمـا فيما رواه الأخفش عن ثعلب يذم رجلا :

ما زال مـذموما على است الـدهر

ذا حسـد ينمى وعقـل يحرى

أراد بالشطر الثـانى أن حسـده يزيد وعقله ينقص والصـورة فى الشطر الأول كريهة جدا وليس لأنه شبه الدهر بانسان كمـا قلنـا ولكن لأن جعل له م اجعل •

وقد يكون ذلك راجعـا أيضـا انى المبالغـات التى لا تجـد لهـا رصـيدا نفسـيا وانمـا هى مبالغـات لفظية فحسب كمـا فى قـول المتنبى :

تجمعت فى فـؤاده همـم

ملء فؤاد الـزمان احـداها

وربمـا كان هذا سببا للقبح وراء كل سبب لأن العبارة التى تصف الحسن وصفا دقيقـا وصـادقا تراها خانيـة من مثل هذه الأكدار واذا

---

(١٧) الوساطة ٤٣٢ •

نظرت فى هذه الاستعارات الرديئة أحسست أن العبـــارة فيها تنفصل عن الحس وأن الخيال ينهض وحده من غير أن يكـــون محمـــولا على قوة من الفكر وطاقة من الشعور) (١٨) ٠

وكذلك الحال فى الاستعارة التصريحية كمـــا فى قول أبى تمام :

ملطومة بالورد أطلـــق دونهـــــــا
فى الخلق فهو مع المنـــون محكـــــم

فاللطم هو الضرب وهو يعنى التتـــابع والقوة والتمكن وليس هناك حاجة الى هذه المعـــانى فى وضع الأصباغ على الخدود وانمـــا يكفى أن تمـــد الأنامل الناعمة إلى هذه الوجنـــات الناضرة لتضفى عليها مسحة من الجمال فهـــذه الصورة الرقيقة تحتـــاج الى أدوات أرق فاستعارة اللطم اهـــا ذوب جمـــالها وأزال حسنها ٠

وهذا بخلاف قول ابن المعتز ٠

ما زال يلطم خد الأرض وابلهـــــــا
حتى وقت خدها الغـــدران والخضر

فانه يصوز تتابع الغيث وتســـاقطه على وجه الأرض فاســـتعار له اللطم الذى يوحى بقـــوة التتابع وما يكتنفه من الصوت الراعب والتأثير الواضح فى الأرض ٠ فتعانق اللفظ والحس فى تصـــوير المعنى وزاد من حسنها الترشيح بلفظ ــ الخـــد ٠

وأخيرا نقول كمـــا قلنـــا أولا بأن الحكم بالحسن والقبح مرده الى الذوق و (أنه يميز بقبول النفس ونفورها وينتقد بســـكون القلب ونبوه وربما تمكنت الحجج من اظهار بعضه واهتدت الى الكشـــف عن صـــوابه أو غلطه)(١٩) ٠

---

(١٨) التصوير البيانى ٣٣٦ ٠
(١٩) الوساطة ٤٢٩ ٠

تقسيمات المتأخرين فى الميزان

بعد هذه الرحلة المتواضعة مع الاستعارة بكافة أنواعها وعرضها وتحليلها وموازنتها على وفق منهج عبد القادر ننظر فى تقسيمات المتأخرين لنتعرف على مدى اصابتهم فيها •

أولا : قد قسموا الاستعارة باعتبار الجامع إلى قسمين أحدهما ما يكون داخلا فى مفهوم الطرفين كاستعارة الطيران للعدو والثانى ما يكون الجامع فيه غير داخل فى مفهوم الطرفين • كقولك رأيت شمسا وتريد انسانا يتهلل وجهه فالجامع بينهما التلألؤ وهو غير داخل فى مفهومهما) (١) •

كما قسموا إنقسم الثانى الى ثلاثة أقسام لأن الجامع اما أن يكون خارجا عن الطرفين معا واما خارجا عن المشبه فقط أو المشبه به فقط (٢) •

وقد استشعر سعد الدين التفتازانى ما يبدو أنه يتعارض مع أصل الاستعارة التى تعنى أن الجامع فى المستعار منه يجب أن يكون أقوى وأشد لتكون الاستعارة مفيدة وكون الجامع داخلا فى مفهوم الطرفين يقتضى المساواة • فقد تقرر فى غير هذا الفن أن جزء الماهية لا يختلف بالشدة والضعف فكيف يكون الجامع داخلا فى مفهوم الطرفين ؟(٣)•

ويعلق الدسوقى قائلا (فالدخول فى مفهوم الطرفين يقتضى عدم التفاوت وكونه جامعا يقتضى التفاوت وهل هذا الا جمع بين متناقضين والجمع بينهما باطل فما أدى الى ذلك وهو كون الجامع داخلا فى مفهوم الطرفين باطل (٤) •

---

(١) ينظر الايضاح ٣/١٢٣ •
(٢) شروح التلخيص ٤/٨٥ •
(٣) المطول ٣٦٦ •
(٤) شروح التلخيص ٤/٨٣ •

ويجيب سعد الدين قائلا — امتنـاع الاختلاف انمـا هو فى الماهية الحقيقية ألا يرى أن السواد جزء من المجموع المركب من السواد والمحل مع اختلافه بالشـدة والضعف ووجه الشبه انمـا جعل داخلا فى مفهوم الطرفين لا فى الماهية الحقيقية للطرفين والمفهوم قد يكون ماهية حقيقيـة وقد يكون أمرا مركبا من أمور بعضها قابل للشدة والضـعف فيصح كون الجامع داخلا فى المفهوم مع كونه فى أحد المفهومين أشد وأقوى وفى كون استعارة الطيران للعدو من هذا القبيل نظرا لأن الطيران هو قطع المسافة بالجنـاح وليس السرعة داخلة فيه بل هى لازمة له فى الأكثر كالجـرءة للاسد والأولى أن يمثل باستعارة التقطيع الموضوع لازالة الاتصـال بين الأجسام الملتزقة بعضها ببعض لتفريق الجماعة ...) (٥) .

وأعتقـد أنه لا مكان للقول بالماهية ولا بجزء الماهية . لا الحقيقية ولا الاعتبارية فى مسـائل البلاغة وانمـا مكانها المنطق والجدل الفلسفى أما البلاغة فترتبط باللغة المصـورة والاسلوب المعبر طبقـا لمقتضـيات الأحوال . فلا فرق بين استعارة الطيران للعـدو واسـتعارة التقطيـع لتفريق الأجسـام المتصلة فلكل مقامه واعتباره . أما كـون الجـامع فى الأول لازم الماهية وفى الثانى داخل فى مفهومها . فطريقـة عبـد القاهر لا تفرق بين الجامعين بل تجعلهما من واد واحد كما سبق ذكر .

ثم ان الجامع لا يخضـع لهذه التحديدات المنطقيـة . لأنها تتطلب أن يكون محددا لا يتسع لغيره من المعـانى أن تدخل فيه فيكون جامعـا مانعـا وهذا يفقـد الاستعارات كثيرا من روائها واثارتها التى تنبعث من المعانى والخطرات النفسـية المتطفلة على جوانب المعانى الأصلية . وقد أشرت فى تحليل كثير من صور الاستعارة الى اتساع رقعـة المعانى التى تشـير اليهـا وأن الجامع لا يمكن أن يكون مقصـورا فيها على معـانى محددة وانمـا هو شىء يضيق ويتسع حسب اسـتعداد الملكة المتـذوقة القـادرة على اثارة المعانى من مكامنهـا فقد نبهت الى أشياء فى استعارة السـلخ لاذهاب النهـار والى أشياء فى استعارة الصدع للجهر وكلهـا معانى تكون الجامع مع طول التأمل وتقليب النظر . فليس الأمر محـددا بكون الجامع فى الأول الزوال وفى الثانى الابانة لأنه يعنى ثباتها عند حد

---

(٥) المطول ٣٦٦ .

معين وبطول الثبات والالف تفقد جدتها وجلالها ٠ وتكون فى حكم المرفوض ٠ فالأولى أن يترك الجامع فضفاضـا غير محـدد فهـو طريق التـذوق والابتكار والاضـافات الجديدة الى رصيد الاسـتعارة ٠ لأن طـرفى الاستعارة من المشبه والمشبه به لا يمكن تناولهما بالتغيير فالصدع مثـلا مستعار للجهر فهـذا شىء ثابت ولكن الجامع بينهمـا هـو المتراحب ٠ يتزايد كلمـا تعمقنـا الدلالات اللغوية والمواقف التاريخية والصعوبات التى واجهت الداعية الأول محمـد ﷺ حين نزل عليه هـذا الأمر وكذلك الصعوبات المعاصرة التى تحيط بدعوة الاسلام كل هذا لا يوقف الجامع عند حد الابانة فحسب وانمـا يتناول ما تشير اليه كلمة — الصـدع — فيما قدمنـاه وما خفى فيها فهو أكثر ٠ وكذلك سـائر الجـوامع ٠ فهى مثار فرسان البلاغة ٠ بل لو أخـذت مثـالا من أكثر الامثلة دورانا على الألسـنة وهو — رأيت أسدا — للرجل الشجاع لوجدت أن الجـامع مع التدقيق لا يقف عند حد الشجاعة بل يتناول أيضـا كل معـانى العـزة والفتك والهيبة والاجلال التى يتمتع بهـا الأسـد والتى تنخلع بدورها على الرجل الشـجاع ٠

فمحاولة تحـديد الجامع ومعـرفة دخوله فى الطـرفين أو خروجه عنهمـا لا جدوى منه فى صـنيع المتأخرين ٠ وتقسـيم الاسـتعارة من هذه الوجهة لا فائدة منه ٠

ثانيـا : قسـموا الاستعارة باعتبار الجـامع أيضـا الى عاميـة وخاصية فالعامية المبتذلة لظهور الجامع فيها كقولك ٠ رأيت أسدا ووردت بحرا — والخاصية الغريبة التى لا يظفر بها الا من ارتفـع عن طبقـة العامة ٠٠٠٠٠ (٦) ٠

والواقع أنى أرى أن الموقف وحده هو الكفيل بتنـويع الجامع الى ظاهر وخفى وأن الخفاء والظهور رهن باقتضاء المقـام ٠ فاذا كان المقام يتطلب ظهور الوجه بأن كان الكلام موجها الى من لا يفهم الا بالوضـوح والجلاء فان البلاغة تقتضى أن يكون الجامع كذلك واذا كان المقام يتطلب

---

(٦) بغية الايضاح ٣/١٢٦ ٠

خفـــاء الوجه بأن كان الكلام موجها الى ذكى فان البلاغة تقتضى أن يكون الجامع كذلك ووضع أحدهما موضع الآخر مخل بالبلاغة •

وعلى هذا فقد يكون الوضـــوح هو المقصد الرئيسى من الاستعارة كمـــا فى قولنـــا للعامى — رأيت أسد ووردت بحرا — فهذه الاســـتعارة من أخص الاستعارات التى يمكن أن توجه الى مثله • ولو قلنـــا له شيئا أدق من هذا لوقع فى انتعمية والالبـــاس ولكلفنـــاه علم الغيب •

ولو دققنـــا النظر فى استعارات القرآن الكـــريم لوجـــدناها تروى غلة العوام والمتخصصين على السواء فهى دقيقة فى تصـــويرها وبنائهـــا ومحكمة فى نسجها وصياغتها وواضـــحة فى معناها ودلالتهـــا • ومبنيـــة من عناصر مبثوثة فى الكون وواقعة تحت الحواس وفى مطارح الأبصار • كالحبل المستعار للعهد والقبض باليـــد أو الطى باليمين أو التأسيس على شـــفا جرف هار — أو القيام على شـــفا حفرة من النـــار — وغـــير ذلك والاستعارات التى تجرى فى الأفعال مثل — قطع — صـــدع — سلخ — تنفس — فكل هذه الاستعارات تجرى على نهج واضح وقد بلغت مرتبة الاعجاز • فوضـــوح الاستعارة وجلاؤها شىء وكونها عامية مبتذلة شىء آخـــر •

ثم ان الجامع كما قلنـــا غير محدد أو ينبغى ألا يحدد فثماره متعددة ينـــال منهـــا كل انســـان بقدر استشراقه وطموح نفســـه • فقد يكون بعضها واضـــحا وبعضها عزيزا محجبـــا لا ينـــال الا بعد شق الأصداف اليه •

فتقســـيم الاستعارة الى عامية وخاصية مبنى على أساس غير سليم لأنه يفترض تحديد الجامع وأنه اما ظاهر واما خفى • والمبنى على أساس غير سليم كالمبنى على شفا جرف هار •

والأمثلة التى ذكروها للاستعارة الخاصية قد عرضنا لأكثرها فى بيان دقة تصويرها وروعة نسجها وأنها كانت من الاستعارات المستحسنة • •

ثالثا : وقسموا الاستعارة باعتبار الطرفين والجامع الى ستة أقسام استعارة محسوس لمحســـوس بوجه حسى أو بوجه عقلى أو بما بعضه

حسى وبعضه عقلى واستعارة معقول لمعقول واستعارة محسوس لمعقول واستعارة معقول لمحسوس • كل ذلك بوجه عقلى (٧) •

وهذه التقسيمات كانت من منطلق منهجهم القائم على النظر العقلى والتحديد المنطقى والأوجه فى دراسة الاستعارة هو متابعة أقسامها كما — وردت فى كلام العرب والتعرف على شتيات مجازاتهم وما تختلف به صوره على وفق ما تختلج به صدورهم فالصور وان كان يجمعها منوال عام أو خطوط عامة تمثل اطارا واحد كالتشبيه أو الاستعارة الا أنهم فى الدائرة الواحدة يتصرفون ويشكلون صورا متعددة وعبدالقاهر يدرس هذه الصور ويصنفها ويجمعها فى أطر تحددها والمتأخرون لم يكونوا كذلك) (٨) •

فهذه التقسيمات أو — الاكليشهات — التى حاول المتأخرون أن يطبعوا الاستعارة بها بعيدة عن دراسة الاساليب والتعرف على روح المعانى التى تجرى فى أوصال الكلام ومفاصل التراكيب ولذلك آثرنا طريقة عبد القاهر فى العرض والتحليل • ومن الميسور أن تتعرف على الأطراف الحسية والعقلية فيما سردناه من صور الاستعارة المختلفة •

رابعا : وقسموا الاستعارة مرة أخرى باعتبار الطرفين الى وفاقية وعنادية فالوفاقية • هى ما يمكن اجتماع طرفيها فى شىء كاستعارة الحياة للهداية كما فى قوله تعالى : « أو من كان ميتا فأحييناه » •

والعنادية • ما لا يمكن اجتماع طرفيها كاستعارة الموت للضلال فى الآية السابقة • أو استعارة الوجود للعدم أو العدم للوجود (٩) •

ومن الميسور أن نرجع بهذا المثال الى موطنه فى حديث عبد القاهر عن الاستعارة وبخاصة تلك التى تبنى على التمثيل فقد ذكر أصولا ثلاثة

الأول : أن يؤخذ الشبه من الأشياء المشاهدة والمدركة بالحواس على الجملة للمعانى المعقولة •

---

(٧) بغية الايضاح ٣/١٣٠ •
(٨) التصوير البيانى ١٩٨ •
(٩) بغية الايضاح ٣/١٢١ •

الثانى : أن يؤخذ الشبه من الأشياء المحسوسة لمثلها الا أن الشبه مع ذلك عقلى •

الثالث : أن يؤخذ الشبه من المعقول للمعقول (١٠) •

وبعد أن ضرب الأمثلة للأصل الأول والثانى قال عن الأصل الثالث — وأول ذلك وأعمه تشبيه الوجود من الشىء مرة بالعدم والعدم مرة بالوجود — ومن هنا أخذ المتأخرون تقسيمهم السابق وساقوا — الآية نفسها شاهدا على ما ذهبوا اليه • بعد أن بتروا كلام عبد القاهر فى هذا الموضوع ويقول أستاذنا الدكتور محمد أبو موسى — وهذا التقسيم عندنا لا جدوى منه لأنه يأتى ضمن شواهد الاستعارة التى تنتقل فيها الكلمة الى غير جنسها فان ذلك أعم من أن يمكن اجتماعهما أو لا يمكن وليس هناك داع لمتابعة الاحوال العقلية لذكر مزيد من الأقسام ثم ان هذا التقسيم أغراهم بذكر ضرب من الاستعارة يتفرع على العنادية ذلك هو الاستعارة التهكمية أو الضدية وهى ما يستعار فيها الشىء لما يناقضه على سبيل التهكم والسخرية أو التلميح كما فى قول تعالى « **فبشرهم بعذاب أليم** » وقوله : « **انك لأنت الحليم الرشيد** » الى آخر هذه الصور وكل هذه التقسيمات والاصطلاحات من وضع العلامة ابن الخطيب الرازى فى تلخيصه لكتابى عبد القاهر وكانت امامته رحمه الله فى غير هذا الباب • والمهم أن هذه الاستعارة التهكمية أو التمليحية لم أجد أحدا من المتقدمين أشار اليها اشارة قريبة ولا بعيدة بل رأينا الزمخشرى يذكر صورها ويجعلها من العكس فى الكلام (١١) •

ومن العلماء من حمل مثل هذه الاستعارات التهكمية على المجاز المرسل التهكى (١٢) •

وكل هذه التخريجات مبنية على القول بأن التبشير هو الاخبار بما يسر وأما لو جعلناه لمطلق الاخبار سواء أكان سارا أم ضارا فيكون

---

(١٠) أسرار البلاغة ١٥٧/١ وما بعدها •
(١١) التصوير البيانى ٢١٦ •
(١٢) البيان عند الشهاب ١٨٩ •

من باب الحقيقة وعلى هذا فاستعمال التبشير في مثل هـــذه الصـــور له وجوه خمســـة :

١ ــ أنه من باب الحقيقة .
٢ ــ أنه من باب الاستعارة التهكمية .
٣ ــ أنه من باب العكس في الكلام .
٤ ــ أنه من باب المجاز المرسل التهكمي .
٥ ــ أنه من باب الذم الذي يشبه المدح .



المجاز المرسل

قلت فى مستهل الحديث عن المجاز • انه لا بد فيه من العلاقة • وهذه العلاقة ان كانت المشـابهة فالحديث مع الاستعارة وان كانت غـير المشابهة فالحديث مع المجاز المرسل • وهذا واضح فى استعارة الأسـد للرجل الشـجاع فالعلاقة التى سوغت هذا المجـاز هى المشـابهة بين الطرفين • ولكن فى اطلاق الرزق على المطر النازل من السـماء فى قـوله تعالى : « وينزل لكم من السـماء رزقا » لا توجد مشابهة بينهمـا وانما كان الرابط هو كون الرزق مسببا عن سببه وهو المطر •

وكذلك فى قول الشـاعر :

اذا سقط السماء بأرض قـوم
رعينـاه وان كانوا غضـابا

فقد عبر بالسـماء وأراد المطر بعلاقة المجاورة وأعاد الضـمير على المطر وهو لا يرعى وإنما هو سبب فيما يرعى من النبات والكلأ فلا مشابهة بين السـماء والمطر ولا بين المطر والنبات ولم يحدث هناك تغيير أو اضافة شىء من الصفات والأحوال بين الشيئين المتجاورين أو بين السبب والمسبب وانمـا الذى سـوغ طريقـة النقل هو المجـاورة فى الأول والسببية فى الثانى وهمـا غير علاقة المشابهة التى تحكم بها الاستعارة •

وقد أشار عبد القاهر الى أن بعض العلمـاء مثل ابن دريد والآمدى قد ذكروا صورا من هذا المجاز على طريق الاستعارة (الا أنه لا يكـون عنـد ذكر القوانين وحيث تقرر الأصول •• فأطلق لفظ الاسـتعارة على وقوع المجلس هنـا بمعنى القـوم الذين يجتمعون فى الأمـور وليس المجلس اذا وقع على القوم من طريق التشبيه بل على وجه وقـوع الشىء على ما يتصل به وتكثر ملابسته اياه وأى شبه يكون بين القوم ومكانهـم الذى يجتمعون فيه ؟ الا أنه لا يعتد بمثل هـذا فان هـذا قد يتفق حيث ترسل العبارة (١) •

---

(١) أسرار البلاغة ٢٧٣/٢ •

ومضى بعد ذلك يقرر القواعد ويبين الأصول فى الفرق بين المجازين فقال : (بل الصواب أن تقصر الاستعارة على ما نقله نقل تشبيه للمبالغة لأن هذا نقل يطرد على حد واحد وله فوائد عظيمة ونتائج شريفة فالتطفل به على غيره فى الذكر وتركه مقصورا فيما بين أشياء ليس لها فى نقلها مثل نظامه ولا أمثال فوائده ضعف من الرأى وتقصير فى النظر) (٢) ٠

ويقول سعد الدين (والمجاز المرسل ان كانت العلاقة المصححة غير المشابهة بين المعنى المجازى والمعنى الحقيقى والا فاستعارة (٣) ٠

ومن العلماء من جعلهما معا تحت اسم الاستعارة كأبى هلال كما اختلفوا فى تسميتهم له ٠ فمنهم من سماه مجازا بالحذف كابن أبى الاصبع أو مجازا فقط كابن رشيق وجعله ابن الأثير من باب التوسع (٤) ٠

وأما صاحب مصطلح — المجاز المرسل — فهو السكاكى ٠ يقول أستاذنا الدكتور محمد أبو موسى (لا أعرف أحدا ذكر هذا الاصطلاح لهذا اللون من التجوز قبل أبى يعقوب يوسف السكاكى ٠٠٠) (٥) ٠

وان كنت أرى أن لعبد القاهر اشارة تعتبر كالرمز لهذا المصطلح وهى قوله فى النص السابق — حيث ترسل العبارة — أى تطلق عن التقييد بعلاقة واحدة كما فى الاستعارة أو عن دعوى الاتحاد بين الطرفين وهو مفهوم سبب التسمية عند المتأخرين ٠ فلعل هذه العبارة هى موطن الهام السكاكى وبخاصة أنه ذكر فيها الفعل — ترسل ٠

وبالنسبة للعلاقات التى يدور عليها هذا المجاز فقد اختلفت بالزيادة والنقصاء لدى العلماء ٠

---

(٢) المرجع السابق ٠
(٣) المطول ٣٥٤ ٠
(٤) ينظر البيان عند الشهاب ٥٦ وما بعدها ٠
(٥) البلاغة القرآنية ٤٤١ ٠

فمنهم من اقتصر على أهم هذه العلاقات والتى تعد أساسا لما تفرع عليها بعد ذلك من علاقات أخرى كالسكاكى والخطيب .

ومنهم من زاد على ذلك ووصل بها الى ثمانية وعشرين علاقة . ومنهم من وصل بها الى ثلاثة وأربعين علاقة وفرع من تلك العلاقات علاقات أخرى مبنية عليها (*) . وبذلك (فان محاولة تحليل وتفصيل علاقة الملابسة ووضعها فى صور محددة لم تنجح فى جهود البلاغيين لأنهم تفاوتوا تفاوتا كبيرا فى حصرها وهذا راجع الى أن هذه الملابسة أشمل من أن تتحدد فى علاقات جزئية معينة وأن العرب كانوا يعتمدون الملابسات التى تسوغ النقل فى اطار عرفهم البيانى .

وقد أشار عبد القاهر الى أن الملابسة قد تكون وليدة اتفاق وحدث يطرأ ويعرف فيربط بين المعنين ربطا يجيز قيام أحدهما مكان الآخر وذلك كما فى قولهم : رفع عقيرته أى صوته ولا مناسبة بين العقر أى القطع والصوت ولكنه حدث أن رجلا عقرت رجله فرفعها وصاح فاقترن الصوت العالى بالعقر فى هذا الحدث وارتبط به فساغ أن يطلقوا العقر على الصوت (٦) .

بل انهم كانوا يترددون فى تحديد أشهر هذه العلاقات كما فى اطلاق اليد على النعمة وأن ذلك من باب علاقة السببية لأن اليد سبب للنعمة . فقد قالوا فى تفسير هذه السببية — والعلاقة كون اليد كالعلة الفاعلية للنعمة فى أن العلة الفاعلية يترتب عيها المفعول وجودا كما يترتب وصول النعمة الى المقصود بها عن حركة اليد ويترتب وجودها بوصف كونها نعمة على الغير بالفعل ولا شك فى تحقق الملابسة بين العلة الفاعلية ومفعونها المقتضية للانتقال .... ويحتمل أن تعتبر اليد للنعمة كالعلة الصورية اذ بها تظهر كما يظهر المعلول بصورته أو كالعلة المادية لترتبها على اليد كما يترتب الشىء من مادته وعلى كل حال فالعلاقة هنا تعود الى السببية الفاعلية أو الصورية أو المادية (٧) .

(*) البيان عند الشهاب ٦٠ وما بعدها .
(٦) ينظر أسرار البلاغة ٢/٢٧١ والتصوير البيانى ٢٥٨ .
(٧) شروح التلخيص ٤/٣٢/٣٣ .

وأعتقـــد أن جمـــال الأســـلوب وروعة المجـــاز يذبل بل ويمـــوت بكثرة هذه العلل • فلا مجال للقـــول بالعلة الفاعلية أو الصورية أو المادية فى تحليل الصـــور والتعرف على مساراتها واستشفاف أنفاس مبـــدعيها واسنطاق دلالاتها واستظهار ما طوى فى تراكيبهـــا من عادات القـــوم وطباعهم — فالاعتبارات اللغوية تتبع أحـــوال المخلـــوقين وعاداتهـــم وما يقتضيه ظاهر البينة وموضوع الجبلة (٨) وهـــذه النظـــرة هى التى تعطى لنتراكيب حيويتها فتجود بالمعانى الثرية أما وضعها فى قوالب معينة تحت مصطلحات العلل فهـــو بمثابة الحجر على معانيها والكتـــم لأنفاسها وهيهات أن توجد أصابع للبلاغة فى ظلال هذه القيود ولكن هذه القيـــود قد تحطمت فى كثـــير من الأمثلة فقـــد وجدنا أن العـــلاقات تتـــداخل فى بعضها • فدلالة اليـــد على النعمة مثلا تحتمل أن تكون بعلاقة الســـببية أو المحلية كمـــا ذكر الســـبكى وهنـــاك من الأمثلة ما يمكن حملهـــا على الجزئية وغيرها من العلاقات كالحالية والسببية واللزومية ومنها ما يحمل على السببية والمسببية وما يحمل على المحلية والمجـــاوزة • بل ان منهـــا ما يحمل على المجاز المرسل أو غـــيره من الفنـــون البلاغيـــة الأخرى كالاستعارة والكناية والتجريد والمشاكلة (٩) •

والمجاز المرسل هو : اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له لعلاقة غـــير المشـــابهة مع قرينة مانعة أو ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملابســـة غير التشبيه (١٠) •

صـــور من عـــلاقاته :

ومن علاقاته الجزئية • والمجاز بها حاصل من تسمية الكل باســـم الجزء وهنـــاك دقائق بلاغيـــة فى التعبير بهذه العلاقة • فليس كل جزء صالحا للتعبير عن الكل وانمـــا لا بد أن يكون له مزيد اختصـــاص بالمعنى الذى قصـــد بالكل • فالعين تطلق على الجاسوس لأنها الجزء الأســـاسى فى أداء مهمة التجسس والرقبة تطلـــق على الانســـان الذى يعتـــق لأن

---

(٨) اسرار البلاغة ٢/٢٦٨ •

(٩) البيان عند الشهاب ٢/٢٠٣ وما بعدها •

(١٠) بغية الايضـــاح ٣/٩١ •

العبودية أوضح ما تكون فى الاعناق ووضع أحد الجـزئين مكـان الآخر لا يدل على المراد •

والصـلاة • يطلق عليها قرآن — كمـا ذكر البيضاوى فى تفسير — وقرآن انفجر — وقيام فى قوله تعالى : « **قم الليل الا قليلا** » وركـوع « **واركعوا مع الراكعين** » وسـجود : « **ومن الليل فاسـجد له** » وذكر : « **ولذكر الله أكبر** » وكلها أمور أساسية فى الصلاة •

ومنها التعبير عن نفس الشيء أو جملة الانسان بالوجه كمـا فى قوله تعالى : « **بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن** » فان حاجـوك فقل أسلمت وجهى لله • قال الشهاب : ان الوجه مجاز عن نفس الشيء وذاته كما فى : « **ويبقى وجه ربك** » أو عن جملة الشـخص تعبـيرا عن الكـل بأشرف الأجزاء (١١) •

ويطلق الدعاء على العبادة لأنه مخها كمـا فى قـوله تعـالى : « **ان الذين تدعون من دون الله** » أى تعبدونهم •

وفى قوله تعالى : **أم لكم علينا أيمان بالغـة** » يمكن أن تكـون من علاقة الجزئية أو اللزومية • قال الشـهاب : أريد بالأيمان العهود وهـو من اطلاق الجزء على الكل أو اللازم عن الملزوم (١٢) •

وفى قوله تعالى : **فاجعل أفئدة من النـاس تهـوى اليهم** » عبـر بالأفئدة عن أصحابها لأنها منشأ الشوق والحنـين فى المضى الى الأماكن المقدسـة •

ومنه قوله تعالى : « **ويقـولون هو أذن قل أذن خـير لكم** » قال الفارسى جعله على المجاز — أذنا — لأجل اصغائه (١٣) •

كذلك يستخدمون القلب فى التعبير عن جملة الانسان وذلك فى مقام له مزيد اختصـاص بذلك • كمـا فى قول الشاعر :

---

(١١) البيان عند الشهاب ٢/٣ •
(١٢) حاشية الشهاب ٨/٢٣١ •
(١٣) البرهان فى علوم القرآن ٢/٢٦٦ •

والقلب يعتاده من حبها عبـــد

وقـــوله :

أمسى بأسماء هذا القلب معمـــودا

إذا أقول صـــحا يعتـــاده عيـــدا

وقـــوله :

لم يترك الدهر من قلبى ولا كبدى

شيئا تتيمه عـــين ولا جيـــد (١٤)

وعكس هذه العلاقة أعنى الكلية والمجاز بها حاصل من تسمية الجزء باســم الكل — كما فى قوله تعالى : ((**يجعلون أصـــابعهم فى آذانهم من الصواعق**)) وهى بعض آية جاءت فى ظلال تشبيه يصـــور حال المنافقين بصورة من أصابهم صيب السماء بالظلمات والرعـــد والبرق الذى يكـــاد يخطف أبصـــارهم ولفهم الخـــوف الراعب والصـــواعق المدمدمة من كل جانب حتى كانوا لفرط الهول يحاولون وضع الأصابع بتمـــامها فى الآذان وان لم يدخل منها الا الأنامل •

ومنه قوله تعالى : ((**والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما**)) والمراد البعض الذى هو الرســـغ • وقـــوله : ((**تعجبك أجســـامهم**)) والمراد وجوههم لأنه لم ير جملتهم وقوله : ((**فمن شهد منكم الشهر فليصمه**)) • استشكله الامام — امام الحرمين — تفسيره من جهة أن الجزاء انما يكون بعـــد تمام الشرط والشرط أن يشهد الشهر وهو اسم لثلاثين يوما وحاصل جوابه أنه أوقع الشهر وأراد جزءا منه وارادة الكل باسم الجزء مجـــاز شـــهير (١٥) •

ومن أدور العلاقات • السببية • والمجاز بها حاصـــل من تســـمية الشىء باســـم سببه •

---

(١٤) ديوان المتنبى ٢/٨/١٤١ •
(١٥) البرهان فى علوم القرآن ٢/٢٦٣ •

ومنه قوله تعالى : ((**ومن الناس من يقـول آمنـا بالله وباليـوم الآخر وما هم بمؤمنين**)) قال البيضاوى : القـول هو التلفظ بما يفيـد وللرأى والمذهب مجازا — لأن القول سبب فى اظهار الرأى أو الاعـلام بالمذهب ومنه التعبير بالابتـلاء عن العرفان والاظهـار كمـا فى قـوله تعـالى : ((**وليبتلى الله ما فى صدوركم**)) ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم لأن الابتلاء أى الامتحـان سبب معرفة الأخبار وأظهار ما فى الصـدور ومعلوم أنه لا تغيب عنـه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين فليس هنـاك حاجة الى الابتـلاء وانمـا كان ذلك تطبيقا لما هو معلـوم أزلا فى علم الله فكمـا علم الشىء بيانا يقع أيضـا عيانا .

ومنه قوله تعالى : ((**فمن اعتدى عليكم فاعتـدوا عليه بمثل ماعتدى عليكم**)) أى جازوه على اعتدائه ولكنه عبر عن المجاز بالاعتداء لأنه سببها وهنـا اشـعار لقوة السببية بين الاعتداء وجـزائه . بمعنى أن الجزاء ينبغى أن يكـون نتيجة فورية للاعتداء اظهارا لقوة الاسـلام وشـوكة المسـلمين مع الكفرة والمنافقين حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله وحده وتكون هذه المجـازاة بالمثـل حتى لا تخـرج عن اطار العـدل وروح الانسـانية فالآية وسياقها يفيض بروح القوة والتمكن الـذى يجب أن تكون عليه أمة الاسلام .

وأستاذنا الدكتـور بسيونى عرفه يحمل الآية على السماح والعفو فيقول : (والحق أن فى التعبير القرآنى لفتة كريمة يحسـن بالعـاقل أن يتدبرها حيث أطلق على رد الاعتداء اعتـداء لأنه هو الآخر لا يخلو من اعتداء يجدر بالعاقل أن يترفع عنه ولا يقع فيه وأنظر الى تقييـد السماح بالمجازاة على العدوان بالعدوان بأن يكون ذلك الجزاء بالمثـل فان زادت المجازاة عن المثل ولو قليلا صـار المجـازى معتـديا وكان جرمه فى ذلك جرم المعتـدى بداءة ومن ذلك الذى يسـتطيع أن يقيس العدوان الأول ويحدده بالضبط ثم يحدد طريقة وكيفية وكمية الرد عليه بالمثل تماما حتى ولو كان ذلك فى وقت طويل ؟ فمـا بالك اذا كان رد العدوان عادة لا يقع الا فى وقت الغضب فالسـماح برد العدوان بالعدوان معلق على محال . والأولى بالمؤمن العدول عنه امتثالا لقوله تعالى واتقوا الله وأملا فى قوله

« **ان الله مع المتقين** » (١٦) .

ومثله « **وجزاء ســيئة سيئة مثلها فمن عفــا وأصــلح فأجره على الله انه لا يحب الظــالمين** » فالسيئة الأولى حقيقة لأنها الذنب الذى وقع من الجانى والثانية مجاز لأنهــا الجزاء والعقــوبة على الأولى فالآية فى شقها الأول تبرز قوة الســببية بين السيئة وجزائها وفى الشق الأخــير منها تدعو الى العفو والاصلاح .

ولو فسرت السيئة بمطلق ما يسىء الجانى فالسيئة الثانية حقيقــة لأن الجزاء مهما كان عدلا فانه يسىء الى الجانى ويؤذيه فالآية اذا محتملة للحمل على الحقيقة والحمل على المجاز (١٧) .

وأشير الى أن بعض البلاغيين ذكر هاتين الآيتــين فى باب المشاكلة ولكن — يجب أن يلاحظ أنه يترتب على ذلك فرق جــوهرى فى المعنى لأن اعتبار أن السيئة عبر بها عن المجــازاة نظرا لعــلاقة السببية يسقط حين يقال انه عبر عن المجــازاة بالسيئة لوقوعه فى صحبتها كمــا هى طريقــة المشــاكلة فاذا اعتبرت بيت عمــرو — ألا لا يجهلن أحد علينــا — وآية — فاعتــدوا — من باب المشاكلة تكون قد أغفلت سببية العداوة وسببية الجهل فى المجــازاة والمكافحــة وهذا جزء مهــم من المعنى وربمــا كان مقصــدا من مقاصــده وهو واضح فى الآية والبيت كمــا هو واضح فى آية الشــورى « **وجزاء ســيئة سيئة مثلها** » لأنهــا جاءت عقب قوله : « **والذين اذا أصابهم البغى هم ينتصرون** » وقال النخعى كانوا يكرهون أن يذلوا أنفســهم فيجترىء عليهم الفســاق وقــوله « **وجزاء ســيئة سيئة مثلها** » وهو شــق الآية الأولى وبعده : « **فمن عفا وأصــلح فأجره على الله انه لا يحب الظالمين** » تجد فيه الغضب على هؤلاء الذين يسيئون الى الناس وفى ضوء هذا تتقرر القيمة البلاغيــة للمجاز هنــا وأنه ابراز لقــوة السببية ثم تجد الشــق الثانى من الآية يتجــه الى تلك الطــائفة المســالمة ويناشدها العفو والاصلاح بعد ما أعطــاهم حــق المجــازاة والمكافحة ولعل فى ذلك العفو والاصلاح ما تنكف به نفوس المجترئين ...

---

(١٦) الصور البيانية ٣٣٠ .

(١٧) الافصــاح ١٢٩ .

والمشاكلة لا تقوم على علاقة بين المعنى الأصلى والمعنى الذى استعملت الكلمة فيه فالذى يقول انى بنيت الجار قبل المنزل • انما ذكر اختيار الجار بلفظ البناء لوقوعه فى صحبة البناء وليس ثمة علاقة بين الاختيار والبناء وانما هو شىء يجرى فى كلامهم حبا للمشاكلة واعتمادا على وضوح المعنى وهو من العناصر التى يحلو بها الكلام وتحسن ديباجته) (١٨) •

وفى قول الشاعر :

ألا لا يجهلن أحد علينا

فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فالجهل الصادر من أعدائه عليه بداءة حقيقة وقوله — فنجهل — أى نجازى ونعاقب — مجاز من باب تسمية الشى باسم سببه •

ومنه استعمال — اليد — فى النعمة كما فى قول المتنبى :

وما قتل الأحرار كالعفو عنهم

ومن لك بالحر الذى يحفظ اليدا (١٩)

والبلاغيون المتأخرون يذكرون قول النبى ﷺ لزوجاته : أسرعكن لحاقا بى أطولكن يدا — ويذكرون له احتمالين :

الأول : أن تكون — اليد — مجازا عن العطاء بعلاقة السببية و — أطولكن — من الطول الذى ضد القصر ترشيح للمجاز لملائمته اليد أو من الطول بمعنى الفضل ولا ترشيح للمجاز •

الثانى :أن تكون — اليد — حقيقة على اعتبار أن فى الحديث حذفا لجار ومجرور متعلق بأفعل التفضيل والأصل قبل الحذف أطولكن يدا بالعطاء •

وعبد القاهر ذكره فى باب الاستعارة التمثيلية وهو يحرر أن اللفظ المفرد لا يستقل أحيانا بالدلالة على المعنى المقصود الا بضميمة شىء

---

(١٨) التصوير البيانى ٣٥٠/٣٥١ •

(١٩) ديوان المتنبى ٢/١١ •

اليه كالحرص والرغبة المدلول عليهـا بمجموع التلقى واليـد والقـوة القاهرة المدلول عليها بمجموع الطى واليمين وأن فضـل القدرة أو وفرة العطاء مأخوذة من مجموع الطول مع اليد كمـا فى قولهم • فلان طـويل اليـد وكمـا ورد فى الحديث — أطولكن يدا •

والحقيقة أن اليـد والطول يشيران الى القوة أو الجـود بطـريق اللزوم لا بطريق الشبه فالعلاقة بين الهيئة المحسوسة والمعنى المقصـود ليست علاقة مشـابهة)(٢٠) •

وقد اشترط الخطيب للتجوز باليد عن النعمة — أن يكون فى الكـلام اشـارة الى المولى لهـا فلا يقال — اتسعت اليد فى البلد أو اقتنيت يدا كمـا يقال — اتسعت النعمة فى البلد أو اقتنيت نعمة وانمـا يقـال جلت يده عنـدى وكثرت أيادته لدى (٢١) •

ويناقشه السبكى فيقول — وفيمـا ذكره نظر لأن كل مجـاز فلا بد له من قرينة كمـا سبق فلا حاجة الى تقييد هذا النوع ثم الاشـارة الى المولى لهـا لا يتعين بل بذكر قرينة ما فقد تحصل القرينة من غير اشارة الى المولى كقولك — رأيت يدا عمت الوجود وقد تحصـل الاشـارة الى المولى ولا قرينة تصرف الى المجاز كقولك تعجبنى يد زيد وتمثيل المصنف بقوله جلت يده عنـدى فيه نظر لأن ذلك ليس فيه ما يعـين المجـاز اذ لا مانع أن تقول جلت يده عنـدى مريدا الجارحة (٢٢) •

ومعلوم أن الاشـارة الى المولى للنعمة وردت فى نص لعبد القـاهر وهو (ودليل آخر وهو أن اليـد لا تكاد تقع للنعمة الا وفى الكلام اشارة الى مصدر تلك النعمة والى المولى لهـا ولا تصـلح حيث تراد النعمـة مجردة من اضافة لها الى المنعم أو تلويح به (٢٣) •

وهو يستدل على ضعف الملابسة بين اليـد والنعمة كما يشير صدر

---

(٢٠) التصوير البيانى ٢٤٢ •
(٢١) بغية الايضاح ٣/٩٢ •
(٢٢) شروح التلخيص ٤/٣٣ وما بعدها •
(٢٣) أسرار البلاغة ٢/٢٢١ •

النص (ودليل ....) لأنه قد لاحظ أن الاستناد بين الأصل والفرع يقوى ويضعف (٢٤) وعند ضعف الملابسة فانه تجب الاشارة الى مصدر هذه النعمة حتى تقوى الملابسة وتفهم النعمة من اليد ولا تصلح اليد مجازا عن النعمة اذا خلا الكلام من هذه الاشارة طالما أن فهم هذا المجاز طريقه الملابسة وهى لا تكون الا بتلك الاشارة .

فكلام الخطيب الذى يناقشه السبكى مقتطع من كلام عبد القاهر بطريقة غير دقيقة — وظن أن المسألة مسألة قرينة وفاته أن هذا عند عبد القاهر شرط فى صحة النقل فهو شىء يسبق القرينة لأنه جزء من العلاقة المسوغة للنقل . ولو أن السبكى فهم مراد عبد القاهر كما شرحناه لكان من حقه أن يورد الاعتراض بصورة أخرى وهو أنه قد ورد فى فصيح كلام العرب اطلاق اليد والأيادى على النعمة وما شابهها من غير أن يكون فى الكلام اشارة الى المنعم من ذلك قولهم — ان الأيادى قروض — أى أن النعم والعوارف عند الذى سيقت لهم كأنها قروض وديون فلا خلاص للنفس الكريمة من الاحساس بأثقالها الا اذا أتيحت لها المكافأة بالأوفى كما يقولون ان عارا ونقيصة على الكريم أن يموت وعليه دين من ديون المعروف وهذا المثل ذكره الميدانى فى أمثال المولدين ولا ضير من استخدام اليد لهذه المعانى المجازية من غير اشارة ما دامت قد قويت الملابسة بشهرة الاستعمال وشيوعه (٢٥) .

وكذلك علاقة المسببية والمجاز بها وحاصل من تسمية السبب باسم المسبب كما فى قوله تعالى : « **وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج** » وفى الآية ثلاثة وجوه .

الأول : أن — **أنزل** — لغويا تعنى الاسقاط من أعلى الى أسفل والذى يسقط فى مرأى العين هو المطر الذى يسبب خروج النبات الذى ترعاه الأنعام وتعيش عليه . فالمراد بانزال الأنعام . انزال المطر والأنعام مسببة عن وجود النبات والنبات مسبب عن نزول المطر .

---

(٢٤) المرجع السابق ٢٢٠ .
(٢٥) التصوير البيانى ٣٦٠ .

الثانى : أن المراد بانزال الأنعام • حكم الله وقضاؤه بخلقها وايجادها وعلى ذلك فالنزول لا يتعلق بالأنعام نفسها وانما بقضائه وحكمه وقضاؤه بعد ثبوته فى اللوح المحفوظ ينزل الى الأرض لتنفيذه • وعلى هذا فلا مجاز فى الآية •

الثالث : أن النزول حقيقى على معنى أن الله خلق كل شىء فى الجنة ثم ينزله منها الى الأرض ولا مجاز فى الآية •

وعلى غراره قوله تعالى : « **يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ...** » •

فاللّباس مسبب عن النباتات التيلية وهى مسببة عن المطر النازل من السماء وقيل المراد قضينا لكم ذلك وقسمناه وقضاياه تعالى وقسمه توصف بالنزول من السماء حيث كتب فى اللوح المحفوظ • فالكلام اما على المجاز واما على الحقيقة وقوله — يوارى — أى يستر ترشيح للمجاز •

وفى نفس السياق قوله تعالى : « **يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة** » لأن الخروج من الجنة هو المسبب الناشىء عن الفتنة (٢٦) •

ومنه قول الشاعر :

أقبل فى المستن من ربابه
وأسنمه الآبال فى سحابة

والمستن موضع جريان الغيث فى السحاب • وأسنمة الآبال ليست فى السحاب وانما الذى فى السحاب هو الغيث • فعبر عنه لأنه سبب فى سمنها وعلو سنامها •

ومنه التعبير عن الارادة والرغبة بالفعل والحدث نفسه وهو كثير فى القرآن الكريم مثل قوله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى**

---

(٢٦) البرهان فى علوم القرآن ٢/٢٥٩ •

الصلاة فاغسـلوا وجوهكم » ••• أى إذا أردتم القيام بدليل هذه الفاء التى تقتضى أن يكون ما بعدها مرتبـا على ما قبلها كمـا فى قولك اذهب الى الباب فافتـح • فالفتـح لا يكون الا بعد الذهاب الى الباب وهنـا لو جعلنـا غسل أعضاء الوضوء بعد القيام الى الصلاة فلا يستقيم الكلام مع الأمر الشرعى واذن فلا مفر من جعـل قمتـم — بمعنى — أردتم أو عزمتم أو نويتم • فلمـا كان القيام الى الصـلاة مترتب على الارادة أو العزيمة والنية صح أن يعبر بالحدث عن هذه الارادة ليكـون ما يطـويه الانسـان تجاه هذا الأمر الشرعى الذى هو عماد الدين من النية والرغبة أمرا محققا بالفعل فى الواقع وليس مجرد أمانى أو خواطر تدور فى نفسه سرعان ما يثبطها الشـيطان وأعوانه ولكن يجب أن تكون النيـة مقرونة بالعمل حتى كأنها هى العمل نفسه أو بحيث لا ينفك انفعل عن الارادة كما يقول البيضاوى •

ومثله — فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله — أى اذا أردت القـراءة كمـا تدل على ذلك فاء السببية والحديث المشـهور عن جبـير أن النبى ﷺ كان يقول قبل القراءة أعوذ بالله من الشـيطان الرجيـم • وغـيره مما اسـتفاض رواية وعمـلا • وهو مـذهب الجمهـور من القـراء والفقهاء (٢٧) •

ومنه **« ونادى نوح ربه فقال رب ان ابنى من أهلى »** فقد دلت الفاء فى — فقـال — على أنه قصد بالنداء ارادة النـداء • وأيضـا قـوله : **« وكم من قرية أهلكنـاها فجاءها بأسـنا »** أى أردنا اهـلاكها فجاءها بأسـنا أى أن مجىء البأس وهو العـذاب كان مقـارنا للارادة باعتبار تعلقهـا التنجيزى •

وفى الآية أقـوال أخرى ذكرها الألوسى فقال — وقيل • ان المراد بالاهلاك الخذلان وعدم التوفيق فهـو استعارة أو من اطـلاق المسبب على السبب والى هذا يشـير كلام ابن عطية وتعقب بأنه اعتـزالى وأن الصواب أن يقال • معنـاه خلقنـا فى أهلها الفسـق والمخالفة فجـاءها بأسـنا وقيل المراد حكمنـا باهلاكها فجاءها وقيل • الفاء تفسيرية نحـو

---

(٢٧) حاشية الشهاب ٥/٣٦٧ •

توضأ فغسل وجهه وقيل ان الفــاء للترتيب الذكرى وقال ابن عصفور • ان المراد أهلكنــاها هلاكا من غير استئصال فجاءها هلاك الاســتئصال وقال الفراء الفــــاء بمعنى الـــواو أو المراد فظهـــر مجىء بأســـــنا واشتهر ••) (٣٨) •

ومن المشهور فى هذه العلاقة قوله تعالى : « **ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمــا انمــا يأكلون فى بطونهم نارا** » فالذى يؤكل على الحقيقة ما يدخل البطون من المطعومات الشهية فاذا كانتمن طريق غير مشروع كانت سببا فى دخول النــار فكأن الذى يأكل هذه المطعــومات الحــرام يأكل نارا بالفعل وفى ذلك تغليظ الوعيــد لمن يسلك هذا المسلك وتشخيص لدخول الحمم النارية فى بطونهم • وتنفــير من أكل أموال اليتامى ظلمــا ولذلك أمر قبل ذلك باعطائهم أموالهم •

« **وآتوا اليتامى أموالهم** » والمراد بايتائهم أموالهم • اعطاؤها لهم **بالفعل • وذلك لا يكون الا بعد البلوغ كمــا قال : « فان آنستم منهــم رشــدا فادفعوا اليهم أموالهم** » وأصل الاستئناس • النظر من بعــد مع وضـــع اليد على العين ثم استعير للتبين أى علم الشىء بينــا وقيــل المراد به الابصـــار مطلقــا أخذا له من انســـان العين • وعلى كل فالمراد المعرفة الواضـــحة باهتـــداء اليتيم الى أهلية الملك والتصرف • فأموالهم جديرة بالعودة اليهم وهم أحقــاء بأن يكونوا المتصرفين فيها كما توحى اضــافة الأموال اليهم — أموالهم — فهى اضــافة دالة على اختصاص الملك والتصرف كمــا أن هنــاك اشارة أخرى دالة على وجوب المســارعة الى هذا الدفع وهى اطلاق لفظ — اليتامى — عليهم بعد البلوغ ومعلوم أنه — لا يتم بعد الاحتلام — ولكن لمــا كان لفظ اليتم يثـــير الشـــفقة والحنـــو والعنـــاية وكانت مصلحتهم تقضى برد المـــال اليهم فأطلـــق عليهم — يتامى — باعتبار الوصف الذى كانوا عليه قبل البلوغ تذكيرا به وكأن اســـم اليتم باق بعد غير زائل عنهم •

وجعل الزركشى منــه قوله تعالى : « **مالى أدعــوكم الى النجــاة وتدعوننى الى النــار** » وهم لم يدعوه الى النار انمــا دعــوه الى الكفر

---

(٣٨) روح المعانى ٧٨/٨ •

بدليل **قوله : « تدعوننى لأكفر بالله »** لكن لما كانت النـــار مســـببة عنـــه أطلقها عليه وقوله تعالى : **« فاتقوا النار » أى العناد المستلزم للنـــار —** وقوله : **« وليستعفف الذين لا يجـدون نكـاحا »** انمــا أراد والله أعلم الشىء الذى ينكح به من مهر ونفقة وما لا بد للمتزوج منه ••• (٢٩) •

وجعل الخطيب من علاقة المسببية قول الشاعر :

أكلت دما ان لم أرعـــــك بضرة

بعيـــدة مهوى القرط طيبة النشر

أى أكلت دية والدم سبب فى الدية وهى مسببة عنه فالعلاقة بالنظر الى لفظ الدم هى الســـببية وليست المسببية وقد نبه الى هـــذا الســـهو شراح التلخيص (٣٠) •

وأما علاقة اعتبار ما كان فالمجـــاز بها حاصل من تســـــمية الشىء باسم ما كان عليه نتعلق الغرض به فى مغزى التركيب كما فى قوله تعالى : **« وآتوا اليتامى أموالهم »** وســـبق ذكره •

وقوله تعـــالى : **« انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم »** فقد سماه مجرما يوم القيـــامة بصـــفة الاجرام التى كان عليها فى الدنيا لأن المرء لا يوصف فى هـــذا اليـــوم بأنه مجرم لانقطاعه عن العمل بالمـــوت وفى وصفه بهـــــذا الوصف تشـــنيع لحـــاله وابراز لجرمه ودليـــل بين على غضب الله عليـــه وكأنه يحمل أدلة عقابه فى هذا اليوم المشهود •

وقوله : **« ولكـــم نصف ما ترك أزواجكم »** ســـماهن أزواجا بعـــد الموت لأنهن كن أزواجا •

ومثله — ويذرون أزواجا — فالزوجيـــة تنقطع بالمـــوت • فالوصف بالزوجية فى الآيتين باعتبار الوصف الذى كان قبل الموت ولعل الوصـــف بذلك يشير الى الأحقية الشرعية فى الميراث • فهو لا يثبت الا بالقرابة •

---

(٢٩) البرهان ٢/٢٦٠ •
(٣٠) شروح التلخيص ٤/٣٨ •

وفى قوله تعالى : « **إن أنتم الا فى ضـــلال مبـــين** » على أن ذلك من كلام الزبانيـــة للكفـــار يوم القيامة كما يدل ســـياق الآيات فوصفوهم بالضلال لما كانوا عليه فى الدنيا لأنهم ليسوا الآن فى ضلال وانما وصفوهم بذلك تقريعا لهم وتوبيخا ويحتمل أن يكون المراد بالضـــلال ما هو مسبب عنـــه من العقـــاب والعـــذاب فتكون العلاقة السببية •

وعلاقة اعتبار ما يكون المجاز بهـــا حاصل من تسمية الشىء باســـم ما يكون عليه كمـــا فى قوله تعالى : « **ولا يلـــدوا الا فاجرا كفـــارا** » فالمولود لا يوصف بالفجور أو الكفـــر لأنه ما من مولود الا يولد على الفطرة وانمـــا أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما قال الرســـول الكريم فالوصـــف بالفجور والكفر باعتبار الحالة التى ســـيؤول اليهـــا أمره فى المســـتقبل •

وقوله — انى أرانى أعصر خمرا — أى عنبا يؤول الى الخمـــرية • وذهب ابن جنى الى أنه من باب التعبير بالمسبب وهو الخمـــر عن السبب وهو العنب وقيل لا مجاز فى الآية وأن الخمر إســـم للعنب بلغة غسان أو أزد عمان (٣١) •

ومنه قوله تعالى : « **انك ميت وانهم ميتون** » فســـمى الحى ميتـــا باعتباره ما يكون •

ومنه قوله تعـــالى : « **وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا فى كتـــاب** » فقـــد ســـماه معمرا باعتبار ما يؤول اليه فى المستقبل •

ومنه قوله ﷺ (من قتل قتيلا فله سلبه) •

وقد فرق العلماء بين ما اذا كان الاتصاف بالمعنى الحقيقى متراخيا عن تعلق النسبة كمـــا فى الاتصـــاف بالخمرية والفجور والكفر والمـــوت فانه متراخ عن زمن تعلق العصر بالعصير وعن نسبة الموت الى المخـــاطب وعن تعلق الولادة بالمـــولود وهـــذا يسمى مجاز المآل بطريق الصـــيرورة وبين ما اذا كان الاتصاف بالمعنى الحقيقى واقعـــا اثر تعلـــق النســـبة بلا تراخ كمـــا فى الحديث وهذا يســـمى مجاز المآل بطريق المشـــارفة •

---

(٣١) ينظر روح المعانى ١٢/٢٣٩ والبرهان ٢/٢٧٩ •

قال السـيد — ثم المجـاز بحسب المآل قد يكون بطريق المشـارغة كما فى — من قتل قتيلا — ويمـرض المريض وتضـل الضـالة فانه قتيـل ومريض حقيقة عقيب تعلق القتل والمرض به بلا تراخ وكذلك حال الضالة وقد يكون بطريق الصـيرورة مجردة عن المشـارفة كمـا فى قـوله — « **ولا يلدوا الا فاجرا كفارا** »فان الاتصـاف بالفجور والكفر متراخ عن تعلق الولادة بالمولود (٣٢) •

وجعل الزركشى من مجاز المشارفة قوله تعالى : « **فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن** » أى قاربن بلوغ الأجل أى انقضـاء العدة وقال البيضاوى أى شـارفن آخر عدتهن وقال الشـهاب • فهـو من مجـاز المشـارفة بقرينة ما بعده (٣٣) •

وعلاقة المحلية والمجاز بهـا حاصل من تسمية الشىء الحال باسـم محله :

كالتعبير بالمكـان عن أهله فى قوله تعـالى : « **فليـدع ناديه** » أهله المجتمعين فيه واسأل القرية — أى أهلها •

والتعبير بالأفواه عن الألسـنة فى قوله تعالى : « **يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم** » •

والتعبير بالصدور عمـا فيهـا فى قـوله : « **ان الله عليـم بذات الصدور** » •

والتعبير بالخزائن عن المقدرات من الأرزاق فى قوله : « **قل لا أقول لكم عنـدى خزائن الله** » وتحتمل من اطلاق اللازم على الملزوم •

والتعبير بالكأس عن الخمر فى قوله تعالى : « **يطاف عليهم بكأس من معين** » • وقوله : « **يتنازعون فيها كأسـا** » فالمراد بالكـأس الخمـر •

---

(٣٢) حاشـية السـيد على الكشاف ١/١١٨ •
(٣٣) البيان عند الشهاب ٢/١٦٤ •

والكأس لا تسمى كأسا الا وفيها شراب فان خلت سميت قدحا كمـــا قال اللغويون • وقيل العلاقة بينهما المجـــاورة •

وعلاقة الحالية • والمجاز بها حاصل من تســـمية المحل باسم الشيء الذي يحل فيه •

وكالتعبير بالغيب عن اللوح المحفوظ في قوله : « **وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله** » وهـــذا يشير الى أن الرحمة شملتهم شـــمول الظرف على المظروف • ومثله : « **فأما الذين آمنـــوا وعملوا الصـــالحات فيدخلهم ربهم في رحمته** » •

كالتعبير بالغيب عن اللوح المحفوظ في قوله : « **أم عندهم الغيب فهم يكتبـــون** » •

والتعبير بالزينة عن اللبـــاس في قوله — **يا بنى آدم خـــذوا زينتكم عند كل مسجد** » فاللبـــاس محل الزينة • وفى الآية مجاز آخر عـــلاقته الجزئية ان أريد بمســـجد صلاة على أنه مصدر ميمى أو علاقته المحليـــة على أنه اســـم مكـــان فأطلق المكـــان — المسجد — وأراد الحال فيه — الصـــلاة (٣٤) •

وعلاقة الآلية • والمجـــاز بها حاصل من تسمية الشيء باسم آلته :

كالتعبير باللســـان عن الذكر الحسن في قوله تعالى : « **واجعـــل لى لســـان صدق فى الآخرين** » •

والتعبير باللســـان عن اللغة في قوله : « **وما أرســـلنا من رســـول الا بلســـان قومه** » •

والتعبير بالعين عن الرؤية في قوله تعالى : « **تجرى بأعيننـــا** » أى بمرأى منـــا (٣٥) • ومثله : « **فأتوا به على أعين الناس** » •

---

(٣٤) البرهان ٢/٢٨٢ •
(٣٥) المرجع السابق •

وأما قوله تعالى : « **واصنع الفلك بأعيننـــا** » فيحتمل أن تكون من باب المجــاز المرسل بعلاقة الآلية لأن العين آلة الحفظ والرعاية أو بعلاقة اللزومية لأن الحفظ من لوازم العين أو بعـــلاقة الجزئيـــة على أن المراد بأعيننا . ملائكتنا الذين جعلنـــاهم عيـــونا على مواضـــع الحفـــظ . أو يكون التركيب من باب الاستعارة التمثيلية (٣٦) .

وعلاقة المجـــاورة تحصل من تســـمية الشيء باســـم مجاورة كما فى قوله تعالى « **ثم محلها الى البيت العتيق** » . قال الشهاب البيت مجاز بعلاقة المجـــاورة عمـــا قرب منه لأنها لا تنتهى الى البيت العتيـــق نفسه وذكر قول الشـــاعر :

وخيـــل قد دلفت لهـــا بخيـــل
تحيـــة بينهـــم ضرب وجيـــــع

قوله — الخيل — معروفة ويتجوز بهـــا عن الفرســـان كثـــيرا وفى الحديث يا خيل الله اركبى والمراد هنا المعنى المجازى . وبعضـــهم اعتبر التجوز بالبيت عن الحرم . علاقته الجزئية .

ومثله : « **ولا تقاتلوهم عنـــد المســـجد الحـــرام** » والمراد الحرم كله (٣٧) .

ومنه قـــول عنترة :

فشككت بالرمح الأصـــم ثيـــابه
ليس الكريم على القنـــا بمحـــرم
فتركته جزر الســـباع ينشـــــنه
يقضمن حسن بنـــانه والمعصـــم

فكونه ترك عدوه على الحالة التى ذكرها فى البيت الثانى .

---

(٣٦) روح المعانى ٤٦/١٢ .
(٣٧) البيان عند الشهاب ١١٩/٢ .

فان هذا لا يتأتى بمجرد شكه بالرمح فى ثيابه بل لا بد وأن يكون ضربه ضربة مصمية تجاوزت الثياب والجسد الى انقلب والمقاتل والعلاقة مجاورة الثياب لذلك .

وهناك علاقات أخرى كاللزومية والاطلاق والتقييد ولعل فيما ذكرناه ما يحقق الفائدة .

صور من أقسامه :

أولا :

ذكر العصام أن القوم لم يقسموا المجاز المرسل الى أصلى وتبعى ولكن ربما يشعر بذلك كلامهم أى يدل على هذا التقسيم دلالة التزامية تقول السكاكى ومن أمثلة المجاز قوله تعالى : **« فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله »** استعملت قرأت مكان أردت استعمالا مجازيا .... (٣٨) .

ويعقب العصام قائلا : فبين العلاقة فى المصدر فيشير الى أن استعمال بمعنى المشتق بتبعية المصدر ويوضح الغلبوى ذلك بقوله : يعنى أن استعمال المشتق وهو قرأت فى معنى المشتق الآخر وهو أردت اللذين تكون العلاقة بينهما غير المشابهة أو تكون العلاقة بينهما المسببية بتبعية المصدر بأن يقدر العلاقة غير المشابهة بين المصدرين فيستعمل أحدهما فى معنى الآخر ثم يشتق من لفظه بأن يقال . ذكر القراءة وأريد به الارادة لعلاقة المسببية ثم اشتق من اسم القراءة الذى هو بمعنى الارادة قرأت بمعنى أردت فصار قرأت بمعنى أردت مجازا مرسلا تبعيا وأما القراءة بمعنى الارادة فهو مجاز مرسل أصلى ثم يقول . فالمجاز المرسل ان كان مشتقا أو حرفا فهو تبعى لكون علة التبعية مشتركة بين المشتق والحرف وان كان اسم جنس فهو أصلى (٣٩) .

وعلى ذلك يمكن تقسيم المجاز الى :

---

(٣٨) المفتاح ١٧٣ .

(٣٩) البيان عند الشهاب ١٦٨/٢ .

١ — **مجاز مرسل أصلى :** وهو ما كان اسم جنس • كاليد والعين والأصابع والأذن فى الأمثلة التى سبقت •

٢ — **مجاز مرسل تبعى :** وهو ما كان مشتقا أو حرفا • كما سبق فى ذكر قرأت مراد بها أردت • وكذلك فى **« قم الليل الا قليلا » فالقيام** أظهر أركان الصلاة • عبر بالجزء وأراد الكل وهو مجاز تبعى كأنما تجوز بالقيام عن الصلاة ثم أخذنا منه قم بمعنى صل • وكذلك الحال فى الأجزاء التى يتجوز بها عن الصلاة وتأتى على صيغة المشتق •

وكذلك لفظ — اليتيم — لك أن تجعل مجازه تبعيا فتقول • نقل اليتم من فقد الأب مع انصغر الى فقده مع الكبر لأن الموصوف بهذا كان موصوفا بذاك واشتق منه يتيم بمعنى فاقد الأب مع الكبر ولك أن تقول انه هنا جار مجرى الأسماء الجامدة من حيث غلبت عليه الاسمية (٤٠) •

وقوله تعالى : **« فهل ترى لهم من باقية »** فهل حرف موضوع للاستفهام وقد استعمل فى النفى بمعنى ما ترى لهم من باقية والعلاقة السببية اذ الجهل بالشىء يلزم منه عادة نفيه لأن الأصل العدم (٤١) •

ثانيا :

ذهب بعضهم الى أنه اذا كان المجاز المفرد يتحقق بنقله عما وضع له لعلاقة المشابهة كما فى نقل الأسد للرجل الشجاع وأن ذلك يسمى استعارة ولعلاقة غير المشابهة كما فى نقل العين الى الجاسوس وأن ذلك يسمى مجازا مرسلا • فان ذلك يتحقق فى الوضع النوعى فى المركبات فاذا كانت العلاقة المشابهة كان المركب استعارة تمثيلية •

كقولهم للمتردد : أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى • وان كانت العلاقة غير المشابهة فى المركب سمى مجازا مرسلا مركبا •

قال سعد الدين : كما أن المفردات موضوعة بحسب الشخص

---

(٤٠) علم البيان ١٠٠ •
(٢١) نظرات فى البيان ٢٣٧ •

فالمركبات موضـــوعة بحسب النوع فاذا استعمل المركب فى غير ما وضع له فلا بد أن يكـــون ذلك لعلاقة فان كانت المشابهة فاستعارة والا فغـــير استعارة وهو كثير فى انكـــلام كالجمـــــل الخبرية التى لم تســـتعمل فى الاخبـــار كقوله : هواى مع الركب اليامنين مصعد •

فالتركيب موضوع للاخبار والغرض منه الحزن والتحسر (٤٢) •

وبناء على هذا فالمجاز المرسل يأتى مفردا ومركبا •

١ — **فالمفـــرد** :كهذه الأمثلة الكثيرة التى مرت فى ذكر العلاقات •

٢ —**المركب** : كالتراكيب الاخبـــارية التى قصد بها اظهار التحسر والتحزن وأســـاليب الانشاء المستعملة فى الخبر والخبر المســـتعمل فى الانشاء كقولنـــا — رحمه الله — وقول رسولنا ﷺ من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النـــار •

والعلاقة فى هذه التراكيب يمكن أن تكـــون اللازميـــة والمزوميـــة لأن الاخبار بوضـــع الأنثى فى قولها انى وضعتها أنثى — يستلزم اظهار التحسر • ويمكن أن تكون السببية • اذ يتسبب عن الأمر بالتبوء الاخبار به فى حديث الرســـول ﷺ •

ثالثـــا :

فى تعليقـــات الشهاب على البيضاوى أشار الى لـــونين من ألـــوان المجـــاز المرسل وهما :

١ — **المرسل الكنائى** : وذلك فى قوله تعالى : « **الا عبـــادك منهـــم المخلصـــين** » •

قال البيضـــاوى : أى الـــذين أخلصتهم لطاعتـــك وطهـــرتهم من الشوائب فلا يعمل فيهم كيدى •

وقال الشـــهاب : قوله طهرتهم من الشـــوائب أى من كل ما ينـــافى الاخلاص وقوله فلا يعمل فيهم كيدى اشـــارة إلى أنه من ذكر الســـبب

(٤٢) ينظر شروح التلخيص ١٤٦/٤ والمطول ٣٨٠ •

وارادة مسببة ولازمة على طريق الكناية لينتظم اللحـاق بالسـياق فانه كان الظاهر أن منهم من لا أغويه لكن الاخـلاص والتمض لله يسـتلزمه فذكر ليثبت ما ذكر بدليل فهو أبلغ من التصريح (٤٣) ٠

٢ — المرسل التهكمى كمـا فى قوله تعـالى : « **بشر المنافقين بأن لهم عـذابا أليمـا** » فمعـروف أن — بشر — بمعنى أنذر على سـبيل الاستعارة التبعية التهكمية وقيل ان — بشر — بمعنى أخبر فقال الشهاب — ولك أن تقول : انه مجاز مرسل فهو وجه آخر فى التهكم (٤٤) ٠ وقال الألوسى (وضـع فيه بشر موضع أنذر تهكما بهم ففى الكـلام استعارة تهكمية وقيل ٠ موضع أخبر فهناك مجاز مرسل تهكمى) (٤٥) ٠

أضواء على بلاغة المجاز المرسل

أشرت فى عرض بعض صور هذا المجاز الى شىء من بلاغتـه ونزيد هنـا بأن صـور هذا المجـاز يقف من ورائها خيـال طريف يمتع القلب والعقل معـا فاذا تأملنـا صورة الرزق وهو ينصب من السماء أو صورة النبات أو صـورة الأنعام أو صـورة اللباس والريش أو صورة الأسنمة فى السحاب ٠ فانهـا تثير فى النفس كوامن الاحسـاس بالجمال عنـدما نتخيـل هذه الصـور وهى تتسـاقط على حقيقتهـا من السـماء الى الأرض ٠ وبالنظر فى أعطاف الكلام ومراميه ورؤية القرائن المعينة ترتد مرة أخرى الى المعنى المجـازى المقصـود من التركيب ٠ وهنـا ندرك من اللفظ فضيلة أخرى وهى فضيلة الايجاز والتركيز وذلك بطى قصـة طريفة طواها اللفظ بتعبيره عن المراد ٠ فعندما ندرك أن المراد بالرزق هو المطر ٠ فى قوله تعـالى : « **وينزل لكم من السماء رزقا** »فان الذهن يعود الى تلك العملية الاسقاطية للمطر والتى ليست فى مقدور أحـد من البشر كمـا فى قوله تعالى : « **وينزل الغيث** » واختلاط هذا المطر بالأرض فاذا بها تهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج يكون هو مصدر الرزق للانسان والأنعـام ٠ وأحيـانا تمتد القصـة فنطلع من خلالها على تلك العملية

---

(٤٣) ينظر البيان عند الشهاب ١٨٧ وروح المعانى ١٤/ ٥٠ ٠
(٤٤) المرجع السـابق ١٨٩ ٠
(٤٥) روح المعـانى ٥/ ١٧١ ٠

الصناعية والزراعية التى تقوم على أثر سقوط المطر فيتخذ الانسان من هذه الأقطان اللباس الذى يوارى السوأة واللباس الذى يتزين به ٠

وعندما يدرك الانسان هذه السلسلة الممتدة من نزول المطر وانبات النبات وخروج هذه الأقطان ودخولها الى مصانعها لتخرج للانسان لباسا يقيه الحر والقر ٠ فان ذلك يدفع العقل للايمان بالمنعم الذى سخر له هذه النعم وبذلك يصل حبله بالله ويزداد قربا منه فلا يلقى بالا لمن يوهمه بأنه قادر على سعادته أو شقاوته ٠ فان هذا التنشيط العقلى يؤكد لديه بالعيان معنى قوله تعالى : « **وأنه هو أضحك وأبكى** » وقوله بعد ذلك : « **وأنه هو أغنى وأقنى ٠٠٠٠** » **(٤٦)** ٠

وفى التعبير عن الصلاة ببعض أركانها كالركوع والسجود أو الذكر أو الفاتحة كما فى حديث رسول الله ﷺ ٠ الذى رواه عن رب العزة تبارك وتعالى : « قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل ٠٠ » ٠

ما يدل على مدى الأهمية البالغة لهذه الأجزاء فى صحة اكتمال الصرح الكلى للصلاة وأنها لا تصح بدونها ولعل فى ذلك اشارة الى شرفها وأنها كل لا يتجزأ وأنها عمود الدين ولذلك كانت جديرة بأن يكون تشريعها فى السماء مباشرة وليس فى الأرض بالوحى ٠

وفى التعبير عن المصغى بأنه أذن وعن الجاسوس بأنه عين فيه دلالة على المبالغة وكأنك جعلت جملته آلة للاستماع لولعه بالاصغاء والتصنت أو جعلت جملته آلة للاستطلاع مبالغة فى عنايته وحرصه عى التجسس ٠ وهكذا لو بحثنا فى صور هذا المجاز لوجدنا هذا الخيال الطريف الذى يثير النفس ويحرك الذهن وهذا الايجاز والاختصار والمبالغة وراء التصوير بهذا الأسلوب ٠

---

(٤٦) سورة النجم ٤٣ ، ٤٨ ٠

الكنـــاية

تعتبر الكنـــاية الركن الثالث المكـــون لعلم البيـــان بعد التشـــبيه والمجاز وقد حظيت منذ مرحلة التـــأليف بتصويب نظـــرات العلمـــاء الى أساليبها وبيـــان صورها ولكن هذا البيان كان مصـــحوبا بالتعميم أحيانا والخلط بينها وبين غيرها من التراكيب أحيانا أخرى •

فأبو عبيـــدة (٢٠٧ ت) يفسر المفردات فى ظلال التراكيب تفسيرا يؤول الى الكنـــاية ولكنه لا يشـــير إلى ذلك مكتفيا بهذه التفاسير اللغوية كمـــا فى قوله تعالى **« يد الله مغلولة »** قال ــ خير الله ممسك (١) •

وقد يعتبر التركيب مجازا كما فى قوله تعالى : **« فسينغضون اليـــك رؤوســـهم »** فيقـــول : (مجـــازه فســـيرفعون ويحـــركون اســـتهزاء منهم) (٢) •

كمـــا يجعل تحول الأسلوب من شـــكل الى آخر كناية فقال (ومن مجاز ما يحول خبره الى شىء من سببه ويترك خبره هو قـــوله : **« فظلت أعنـــاقهم لها خاضـــعين »** • حول الخبر الى الكنـــاية التى فى آخـــر الأعنـــاق) (٣) •

وفى قوله تعـــالى : **« اياك نعبد »** قال : (بدىء بكناية المفعول قبل الفعل) (٤) •

وأحيانا يقترب من المعنى اللغوى للكنـــاية أى الـــدلالة على الشىء من غير أن يصرح به كما فى قوله تعـــالى : **« أو جاء أحد منكم من الغائط »**

---

(١) مجاز القرآن ١/١٧٠ •
(٢) المرجع الســـابق ١/٣٨٢ •
(٣) المرجع الســـابق ١/١٢ •
(٤) المرجع الســـابق ١/٢٤ •

قال : كناية عن اظهار لفـــظ قضـــاء انحاجة من البطن وقوله « **أو لامستم النســاء** » كنــاية عن الغشـــيان (٥) ٠

وكانت هذه النظرات من أبى عبيــدة بمثابة الخطــوة الأولى على طريق التأليف ولا ينبغى أن يطالب بأكثر من هذا فى هذا الزمن المتقدم بل ان من جاءوا بعـــده مباشرة كان موضـــوع الكناية يتفاوت فى بحـــوثهم بين القبض وانبســـط كمـــا اختلفت مصطلحاتهم الدالة عليه ٠

فالجاحظ (٢٥٥ ت) يدخل فيها الكنية مثل أم الفضل وأم حكـــــيم والرجل يكنى أباكبشة ٠

كمـــا يستخدمها بالمعنى اللغـــوى وذلك بالكنـــاية عن الشىء الذى يقبح ذكره ٠ فيقال لموضوع الغائط ٠ الخلاء والمذهب والمخرج والكنيف والمرحاض والمرفق ٠ وكل ذلك كناية واشتقاق ٠٠٠٠ (٦) ٠

وقالوا فى قوله تعـــالى : « **وقالوا لجلودهم لم شـــهدتم علينـــا** » الجلود كنـــاية عن الفروج وفى قوله تعـــالى : « **كانا يأكلان الطعـــام** » ان هذا انمـــا كان كناية عن الغائط) (٧) ٠

وأحيانا كان يشـــير الى علة التعبير الكنائى وهو : (أن يظهر المعنى بأليـــق لفظ إما تنويها واما تفضلا كما سموا المعزول عن ولايته مصروفا والمنهزم عن عدوه منحـــازا) (٨) ٠

والكنـــاية عنده مرتبطة بالحال واقتضاء المقـــام فقال ــ فالافصاح فى موضع الافصـــاح والكنـــاية فى موضـــع الكنـــاية ــ وربمـــا كانت الكنـــاية أبلغ فى التعظيم وأدعى للتقديم ٠٠٠٠)(٩) ٠

---

(٥) المرجع السابق ١/١٥٥ ٠
(٦) ينظر الحيوان ٥/٤٦٣/٢٩٥ ٠
(٧) الحيوان ١/٣٣٤ ، ٢/٢٨٠ ٠
(٨) رسائل الجاحظ ٣/١٤٠ ٠
(٩) ينظر الحيوان ٣/٣٩ والمصدر الســابق ١/٣٠٧ ٠

وأما المبرد (٢٨٥ ت) فقد قسمها الى ثلاثة أقسام وكان فى عرضها يحطب فى وادى الجاحظ (١٠) ٠

وأما قدامة (٣٣٧ ت) فقد بحثها تحت (الارداف) وهو — أن يريد الشاعر دلالة على معنى من المعانى فلا يأتى باللفظ الدال على ذلك المعنى بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له فاذا دل على التابع أبان على المتبوع (١١) ٠

وكان منهجه مستقيما فى تحديدها وعرض أمثلتها لم يتمثله أبو هلال فيما بعد فخلط فى أمثلتها ٠

وابن رشيق بحثها تحت مصطلح (الاشارة) وجعل الكناية والتعريض والتلويح والرمز واللمحة وغيرها أنواعا منها ٠٠٠ (١٢) ٠

ومعلوم أن الاشارة قد ذكرها الجاحظ من قبل كاحدى الدلالات على المعانى وأراد بها الاشارة بالجوارح كاليد والعين أو بما يحمل كالسيف والثوب كما أراد بها الايجاز أو اللمحة والوحى وبهذا المعنى الأخير ذكرها قدامة (١٣) ٠

وأما ابن سنان (٤٦٦ ت) فقد بحثها تحت مصطلح (الارداف والتتبيع) والارداف يرجع الى قدامة والتتبيع يرجع الى ابن رشيق ٠

ثم جاء عبد القاهر (٤٧١ ت) وحدها بقوله هى (أن يريد المتكلم اثبات معنى من المعانى فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة ولكن يجىء الى معنى هو تاليه وردفه فى الوجود فيومىء به اليه ويجعله دليلا عليه) (١٤) ٠

وبذلك غلب مصطلح الكناية وشاع وبخاصة فى مدرسة المفتاح وعند شراح التلخيص وأما الارداف فلم يعد يذكره بعد عبد القاهر سوى ابن أبى الأصبع المصرى ٠

---

(١٠) ينظر الكامل ٢/٦ والعمدة ١/٣١٣ ٠
(١١) نقد الشعر ١٥٧ — ٠
(١٢) ١/٣٠٢ وما بعدها ٠
(١٣) البيان ١/٤٤ ونقد الشعر ١٥٤ ٠
(١٤) دلائل الاعجاز ١٠٥ ٠

وقد أخذ عبد القـــاهر فى عرض أمثلتهـــا وتحليهـــا تحليـــلا فنيـــا متميزا وحرر أقسامها غير أنه لم يتكلم عن الكناية عن الموصوف • وكان المتأخرون قد تناقلوا صورتها عنده من وجهة نظرهم العقلية ولم يحافظوا على منهجه فى بيان حســنها وأثرها فى بلاغة الصورة وانحدروا بها منـــذ القرن الســـابع الهجرى الى حيز الدراسات الفلســـفية والمنطقيـــة التى تقوم على الجدل والخلافات اللفظية والتقسيمات العقلية فوقعت بحوثها نهبا لتضـــارب الآراء • فما يثبته البعض ينقضه الآخرون •

يقول الســـيوطى عن اختلافهم حول كونها حقيقة أو مجازا (وفيها أربعة مذاهب أحدها أنهـــا حقيقة قال ابن عبد الســـلام وهـــو الظـــاهر لأنها استعملت فيمـــا وضعت له وأريد بها الدلالة على غـــيره • الثـــانى أنها مجاز • الثالث أنها لا حقيقة ولا مجاز واليه ذهب صـــاحب التنخيص لمنعه فى المجاز أن يراد المعنى الحقيقى مع المجازى وتجـــويزه ذلك فيهـــا الرابع وهو اختيـــار الشيخ تقى الدين السبكى أنها تنقسم الى حقيقـــة ومجاز فان استعملت اللفظ فى معنـــاه مراد منه لازم المعنى أيضـــا فهو حقيقة وان لم يرد المعنى بل عبر بالملزوم عن اللازم فهو مجاز لاستعماله فى غير ما وضـــع له والحاصـــل أن الحقيقـــة منهـــا أن يســـتعمل اللفظ فيمـــا وضع له ليفيد غير ما وضع له والمجاز منها أن يريد به غير موضوعه اســـتعمالا وافادة (١٥) •

كذلك اختلفوا فى احتياجها الى قرينـــة مانعـــة • فقـــال السبكى (الكناية أيضـــا ان كانت حقيقة لا بد لهـــا من قرينة تصرف اليها كما أن المجـــاز لا بد له من قرينـــة • فلم جعلت القرينة انصـــارفة الى المجـــاز مانعة من ارادة الحقيقة ولم تجعل القرينة الصارفة الى الكناية مانعة من ارادة معنى الكلمة • ومما يدل على أن الكنـــاية لا بد لهـــا من قرينـــــة ••••• قول الجرجانى فى دلائل الاعجاز المكنى عنه لا يعلم من اللفظ بل من غـــيره ألا ترى أن كثير الرماد لم يعلم منه الكرم من اللفـــظ بل لأنه كلام جاء عندهم فى المدح ولا معنى للمدح بكثرة الرماد وكذلك ولا أبتاع الا قريبة الأجل لا معنى لابتياع ما دنى أجله فهذا الكـــلام صريح فى أن الصـــارف الى الكناية القرينـــة وكيف لا والكنـــاية على خلاف الأصـــل

(١٥) الاتقان فى علوم لقرآن ٢/٤١ •

لأن الأصل فى الكلام أن يراد به ما استعمل فيه وكل خلاف الأصل محتاج الى القرينة ....) (١٦) .

وهل هذه القرينة مرجحة أو مسوية أو لا مرجحة ولا مسوية ؟ خلاف لا طائل تحته . قال عنه المغربى (ومعلوم أن هذا من التحكم الذى لا دليل عليه (١٧) .

والواقع أنها خلافات لفظية . جرهم اليها النظر العقلى والجدل المنطقى ولا تتجاوز مجرد التسمية . فان ذهن السامع ينتقل من كثرة الرماد الى الكرم وليس فى حاجة الى معرفة اللازم والملزوم وهل هو حقيقة أو مجاز .

— وقد شغلت هذه المسألة أقلام الشراح بقدر ربما لم يكن السياق فى حاجة ماسة اليه لأن الانتقال فى الدلالات اللغوية لا يلتزم بهذه الدلالات المنطقية وقدامة يجعل فحواها أن يبين التابع عن المتبوع فالمهم ألا يذكر الشاعر المعنى باللفظ الدال عليه بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له فاذا دل التابع أبان عن المتبوع وهذا نفسه ما ذكره الخطيب اذا لاحظنا ما قلناه من أن الانتقال من اللازم الى الملزوم أو من الملزوم إلى اللازم والفرق هو أن الخطيب اصطنع كلمة اللزوم وهى أقرب الى المصطلح المنطقى والأصولى بينما قدامة اصطنع كلمة الرادف والتابع وهى أقرب الى المصطلح اللغوى والبيانى وقد التزمه الذين تأثروا قدامة وهم كثير منهم أبو هلال كما ذكرنا وابن رشيق على ما كان منه من مهاجمة قدامة وعبد القاهر وابن سنان وابن أبى الأصبع كلهم يذكرون الرادف والتابع ولم يعدلوا الى الملزوم واللازم وانما فعل ذلك السكاكى والخطيب ومن قفاهم (١٨) .

ومعلوم أن هناك فرقا جوهريا بين الكناية والمجاز لا يمكن اغفاله وسط هذا الركام النظرى . يستبين من خلال هذه التراكيب .

---

(١٦) شروح التلخيص ٤/٢٤٠ وما بعدها .
(١٧) المرجع السابق ٤/٢٤١ .
(١٨) التصوير البيانى ٣٧٠ .

ففى صور المجـاز نجد أن المعنى الحقيقى هو المتوارى وأن المعنى المجـازى هو المقصـود بالاعلام • وذلك واضـح فى أمثلة المجـاز التى مرت فى مواطنها فلا معنى لاخراج الله النـاس من الظلمـات الحسـية الى النور الحسى • ولا معنى لتعلق الصدع الحسى بتبليـغ الرسـالة ولا معنى لوقوع التقطيع الحقيقى عنى بنى اسرائيل ولا معنى لحصـول الطغيـان الحقيقى من المـاء كمـا لا يوصف النـاس بالمـوج الحقيقى والزلزلة الحقيقية • ولا معنى لنزول الأرزاق التى تقتات بالمعنى الحقيقى من السـماء وكذلك نزول اللبـاس والريش •

فكل هذه الدلالات المبـاشرة غير مرادة ولا يسـتقيم معنـاها فى النفس والعقل الا على أسـاس من التأويل والتجـوز • وذلك بخـلاف تراكيب الكنـاية كمـا فى قوله تعالى : ((وانى كلمـا دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصـابعهم فى آذانهم واستغشـوا ثيابهم وأصروا واسـتكبروا استكبـارا)) •

والآية تعبر عن موقف الرفض والعنـاد والاستكبار لقوم نوح عليه السـلام وترسم أفعالهم رسـما يكشف عن أحوالهم النفسية وما تكنـه صدورهم للحـق •

فعلى الرغم من تكرار نداء الدعـوة اليهم وكثرة الانذار والتذكـير كمـا يوحى بذلك قوله ((كلمـا دعوتهم)) فقد عطلوا أجهزة اسـتقبالهم بوضع أصابعهم فى آذانهم وذلك للمبالغة فى منع تسرب أى صدى لصوت الحق فى مسامعهم • وواضـح أن هذا مجاز مرسل ولا يسـتقيم معناه المباشر فى العقل الا على طريق التجوز •

كمـا عمدوا الى فعلة أخرى أكثر جرما وأشمل فى التبعيد • فجدوا فى طلب الثيـاب ليتغطوا بهـا مبالغة فى اظهار الكراهة للدعوة والداعية وحجب أجهزة الادراك كلهـا • السمع والبصر والفـؤاد عن مصدر نداء الايمـان وذلك قوله ((واستغشوا ثيابهم)) •

وهذا التركيب كنـاية ومعنـاه المبـاشر يسـتقيم فى العقل وأنه السبيل الى المعنى الآخر المقصـود من وراء الدلالة المباشرة •

وقال ذو ألرمة :

عشـــــية ما لى حيلة غــــير أننى
بلقط الحصى والخط فى الترب مـولع

أخط وأمحو الخـــط ثم أعيـــده
بكفى والغـربان فى الـــدار وقـع

انه يصـــور حاله فى عشـــيته التى حط فيها رحاله فى منزل الحبيبة وتفقدها فلم يعثر عليهـا فتغشــاه الحزن وتمنكه الذهـول وسيطر عليه اليــأس وشرد عنه اللب وراح يعبث بلقط الحصى والخـط فى التراب ثم محوه واعادته والغربان من حوله فى الدار واقعــة وهذه الأمــور لا مانع من ارادة معنــاها الحقيقى ولكنه وضــعها فى هــذه الصــورة الجميلة والبســـيطة لينطلق منهــا الى بيــان حــاله من وراء هــــذه الدلالة المبــاشرة .

وقال امرؤ القيس :

وتضحى فتيت المسك فوق فراشــها
نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضــل

الانتطاق هو الائتزار للعمــل . والنطــاق ثوب تشــده المرأة على وسطها للمهنة والعمــل .

فالدلالة المبــاشرة نتراكيب البيت من كون فتيت المســك يبقى فى فراشــها الى الضـحى وكثرة نومها فى هذا الوقت وأنها لم تنتطق لتعمل غير مراده وان كان يجوز ارادتها كمــا يقتضيها موضــوعها فى اللغــة . ولكن المعــانى الثوانى التى تفضى اليهــا هــذه الدلالة هى محط الغرض المقصــود .

ففى قوله ـــ نؤوم الضحى ـــ المقصود أنهــا فى دعة ونعمــة وترف وأنها مخدومة لهــا من يكفيها أمرها . فهى تنــام الى هذا الوقت الذى تسعى فيه النســوة لقضــاء مصــالحهن . ولكى يثبت لهــا دوام هــذا الترف والخدمة قال ـــ لم تنتطق عن تفضل ـــ أى أنها لم تشــد وسطها بنطاق لتعمل بعد هذا التفضــل .

وأما قوله — وتضحى فتيت المسك فوق فراشها — فقد حملها بعضهم على المبالغة أى — كأن فراشها فيه المسك من طيب جسدها لا أن أحدا فت لها فيه مسكا — كما قال فى بيت آخر .

ألم تر أنى كلما جئت طارقا

وجدت بها طيبا وان لم تطيب (٢٠)

وابن أبى الاصبع قد أضاف أبعادا أخرى الى هذه الدلالة الثانية وهى — دقة البشرة واقتبال الشباب وكثرة الحظوة وعظم الثروة وأنها غير شظفة ولا ممتهنة .

وفى قوله — وتضحى فتيت المسك فوق فراشها — أنها حظية عند الرجال المثرين وأنهم فى غاية الميل اليها مع القدرة بالثروة على الاستكثار من حرائر النساء ومن الاماء اما لأفراط جمالها أو لسعد جدها وأنها ممن يسمح له بأغلى الطيب وأعلاه بما يبقى فتيته فى صبيحة كل ليلة على فراشها بعد ما يتصعد منه ويلصق بجسمها وما يعلق بشعرها وبشرتها وفى التعبير كذلك دلالة على كثرة النوم الذى لا يكون الا عن غلبة الدم الطبيعى فى سن النمو وطبيعة الدم حارة رطبة وهى طبع الحياة ومادتها فيكون اللون به مشرقا والماء فى الوجه كثيرا والأخلاق حسنة لأجل اعتدال المزاج ...... (٢١) .

وقال النابغة الذبيانى :

وردت مطايا الراغبين وعريت

جيادك لا يحفى لها الدهر حافرا(٢٢)

يقول ان القاصدين الى النعمان الراغبين فى معروفه يردون مطاياهم اذا علموا بموته ثم يقول — وعريت جيادك .... فالمعنى الأول وهو حط السروج عنها وعدم احفاء حوافرها ليس هو الغرض

---

(٢٠) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ٦٥ بتصرف .
(٢١) تحرير التحبير ٢٠٨ نقلا عن الصور البيانية ٣٦٠ .
(٢٢) ديوان النابغة ٦٨ .

المقصـــود وإنمـــا المعنى الثانى الذى يلزم المعنى الأول هو المقصـــود وهو أنها أهملت ولم تركب لغـــزو ولا لغيره ٠

ولذلك كانت الكناية عندهم هى (لفظ أريد به لازم معنـــاه مـــع جواز ارادة معناه) ٠

كما فرقوا بينها وبين المجاز بقولهم :

وقد تبين أن الكنـــاية والمجاز يشتركان فى افادة الـــلازم ويفترقان من جهة أن الكنـــاية لا تصحبها قرينـــة مانعـــة من ارادة المعنى الأصلى بل يبقى معها جـــواز ارادة المعنى الأصلى والمجاز لا بد أن تصحبه قرينة مانعة من ارادة المعنى الأصلى وبهـــذا يخرج عن حد الكنـــاية اذ لا يبقى معه جواز ارادة الأصل (١٩) ٠

ولهذا ترى الضربين مختلفين اختلافا جوهريا فى طريقـــة صـــياغة الفكرة والعبارة عنها ومن هنـــا كان من المتوقع أن يفرق بينهما وأن يكونا بابين مختلفين ٠ ما دام بينهما فى طريقة الصياغة هذا القدر من الاختلاف وواضـــح أن ذلك يقـــال فيما بينها وبين صور المجاز المرسل أما بالنسبة الى التشبيه فالفرق بين صوره وهذه الصور واضح جدا ٠

فالتقســـيم الذى جرى عليه القوم فى بحث البيـــان وأنه أقســـام ثلاثة ٠ التشبيه والمجـــاز والكنـــاية ناظر الى طبيعـــة الدلالة وتنـــوعها ومتلائم معها فى ذلك تلاؤما واضـــحا وهـــذا يعنى غفلة بعض البـــاحثين الذين هاجموا أمثـــال هذه التقســـيمات الأساسية ٠٠٠ (٢٣) ٠

واذا كان البلاغيـــون قد قســـموا الكناية الى ثلاثة أقسام ٠ كناية عن صـــفة وموصوف ونسبة ٠ فسأعمـــد الى تراكيب الكناية فى الأودية المختلفة ٠ القرآن الكريم والســـنة المطهرة والشعر بالعرض والتحليـــل وبيان الخصائص الفنية والملامح الجمالية ومن الميسور بعد ذلك التعرف على كل قســـم من هذه الأقســـام الثلاثة من خلال صور الكناية ٠

---

(١٩) شروح التلخيص ٤/٢٣٨/٢٣٧ ٠

(٢٣) التصوير البيـــانى ٣٦٧ ٠

صــور الكنــاية • عرض وتحليل :

تؤدى صور الكناية دورا هاما فى تصوير المعانى ونقلهــا على وجه أبلغ وأنسب للمقــام اذ هى تبرز المعــانى المجردة فى صور محســوسة فترســم المعــانى فى أشــكال وصور تراها العين فلا تشــك النفس فى وقوعها ولا تمــارى فى حدوثها • فيكون ذلك أدعى الى قبــولها وآكــد لديها سواء كان ذلك مدحا أو قدحا •

وهى ثوب ورداء تســتتر فيــه المعــانى التى يتحــرج المتكلم من التصريح بهــا لتعلقها بمــا يثير الغرائز كالحديث عن الجنس والمرأة •

كمــا أنها تحرك الفكر وتبعث النفس على التأمل فى المعنى المبــاشر لظاهر الكــلام ثم المروق منه الى المراد عن طريق العلائق والصلات بين ظاهر الكلام والمعنى الكنائى المراد •

أولا : صور من كنايات القرآن الكريم :

لقد جمع القرآن صورا عديدة للكنــاية تضيق بسردها واستقصائها هذه السطور وحسبنا أن نشير الى بعضها •

ومعلوم أنه كتاب تشريع وأخلاق ومبادىء وتربيــة • وقد ســاق الكثير من المعــانى التى تعبر عن مواقف مستورة فى قــوالب كنــائية • وكأنه يعلمنــا بهــذا النظم الحكيم وجوب التستر والحيــاء فى الفعــل والقــول لهــذه المواقف •

يقول الحق فى آية الوضوء والتيمم : ((**أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء**)) يطلب من عبــاده المؤمنين الذين يقومون للصلاة أن يتطهروا من الحــدثين الأصــغر والأكبر • فكنى عن الأول بالمجــىء من الغائط وعن الثانى بالملامســة •

وقال : ((**أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم هن لبــاس لكــم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفســكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم**)) •

نجد أن الآية تعالج موضوعا من أشد الموضوعات حساسية وهو اتصال الرجل بامرأته الحلال فى وقت غير مباح كما يدل على ذلك سبب نزول الآية • فيبتعد النظم الحكيم عن اثارة الغرائز وتهيج النفوس وتجريح من وقع فى الخطيئة وذلك بسرد هذه القوالب الكنائية المعبرة عن هذا الاتصال — الرفث الى نسائكم — وجاء التشبيه بعدها بمثابة الدليل المؤكد والعلة الصحيحة على هذه الكناية — هن لباس لكم وأنتم لباس لهن — فى الاشتمال والتصون والحفظ والنقاء وعلو القيمة وغير ذلك من معانى الجمال التى يتطلبها الانسان فى الثوب الأنيق وهكذا ينبغى أن تكون المرأة التى تكون موضع معاشرته ومباشرته •

وقوله : ((**تختانون أنفسكم**)) كناية عن الجماع المحرم ولذلك عبر عنه بالاختيان وهو تحرك شهوة الانسان لتحرى الخيانة والمعنى تنقصون أنفسكم تنقيصا تاما بتعريضها للعقاب وتنقيص حظها من الثواب ويؤول الى معنى الظلم (٢٤) •

فانظروا كيف خالف النظم الكريم بين ما هو حلال فكنى عنه بالرفث والمباشرة وابتغاء ما كتب الله وبين ما هو حرام فكنى عنه بخيانة النفس وهى تنفث فى المعنى المكنى عنه الخيانة والتنقيص والظلم بطريق مهذب وتثبته بصيغة المضارع وان كان الحدث ماضيا لاستحضار صورته لتزداد النفس نفرة منه وابتعادا عنه •

وعلى هذا النمط قوله تعالى : ((**نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم**)) فهنا تشبيه بليغ وكناية عن الجماع ولكن يلاحظ أن التشبيه المتقدم كان باللباس وهنا بالحرث ولعل هذا الاختلاف يرجع الى الغرض المقصود من الآيتين •

فالآية الأولى كان الغرض منها تقرير حكم كان محرما عليهم فى وقت مخصوص وهو مباشرة النساء بعد النوم فى ليل رمضان ولكن كبار الصحابة وقعوا فى هذا المحظور • فأحله الله لهم بعد تحريمه كما يشعر

---

(٢٤) روح المعانى ٢/٦٥ •

بذلك لفظ — أحل لكم — ولما كان هذا الوقوع مستقبحا منهم قبل الاباحة كنى عنه كذلك بلفظ يحمل معنى الفحش وهو الرفث فهو من رفث فى كلامه وأرفث وترفث أفحش وأفصح بما يكنى عنه • كما قال : « **الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج** » ولما كان الغرض من التشريع هو البعد عن الوقوع فى مثل هذا المحظور • نبه القرآن الى أن المرأة يجب أن تكون صونا لزوجها تقيه موارد الهلاك وبخاصة فيما يتصل بأمور دينه لا أن تكون عونا للشيطان عليه ولذلك جعلها كاللباس لأن المقام مقام صيانة وتحفظ ووقاية •

وهذه الآية « **نساؤكم حرث لكم** » والتى قبلها : « **ويسألونك عن المحيض قل هو أذى** » تتحدث عن مواصفات الأرض الطيبة الطاهرة التى يجود فيها الزرع وينمو فيها البذر وعلى الانسان أن يسلك الطريق المستقيم الذى يرسمه الشرع وأن ينأى عن الانحرافات الشاذة فى وضع بذوره فى أرض لا تنبت ما يوضع فيها • طالما أن الهدف هو الانجاب وليس قضاء شهوة عاجلة ولذلك جاء التشبيه بالحرث الذى هو القاء البذر فى الأرض وهو غير الزرع كما قال تعالى : « **أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون** » وتشبيههن بتلك المواضع متفرع على تشبيه النطف بالبذور من حيث ان كلا منهما مادة لما يحصل منه ولا يحسن بدونه فهو تشبيه يكنى به عن تشبيه آخر (٢٥) •

وقد سبق هذا التشبيه وهذه الكناية بكناية معبرة عن السبيل الذى يسلكه الانسان فى إتيان حرثه وهو قوله « **فأتوهن من حيث أمركم الله** » أى المكان الذى أمركم الله تعالى بتجنبه لعارض الأذى وهو الفرج •

والقرآن بذلك عبر عن الجماع بكنايات متعددة • الملامسة • المباشرة • التغشية الرفث • الاختيان • إتيان الحرث • الافضاء • وكل صياغة لها المقام الذى اقتضاها وعبرت عن مغزاها فيه •

---

(٢٥) المرجع السابق ٢/١٢٤ •

وقال تعالى : **« ان الذين كفروا بعد ايمانهم ثم ازدادوا كفــرا لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون »** • فالآية تقرر مصير هؤلاء الكــافرين الذين تمادوا فى الكفر والعنــاد وتكنى عن عدم توبتهم بعدم قبــولها • وبذلك تتجاوز الكنــاية على أبلغ وجه من وجوه التحــدى حــدود الزمن الحاضر الى الزمن المســتقبل وتقطع من منطلــق علم الله الغيبى بأنهــم مستمرون على الكفر ولن يتوبوا منه • ولذلك استحقوا هــذه الاشــارة المميزة لهم بهذا الضــلال الذى قعد بهم عن طريق الحــق والنجــاة — وأولئك — وأكد هذه المعــانى فيهم بالضــمير — هم — ودخــول الألف واللام على الخبر — الضــالون — أى الكــاملون فى الضــلال • ولذلك توعدهم الله بهذه الكنــايات الســاخرة فى الــدار الآخرة وهى قــوله : **«ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة »** فعــدم التكليم كنــاية عن غضبه ونقمته عليهم • وعدم النظر كنــاية عن عدم العطف والرحمــة كمــا يقول القائل : أنظر الى يريد ارحمنى أو كنــاية عن الاهمال وعــدم الاعتــداد •

(وجعله الزمخشرى مجازا عن الاستهانة بهم والسخط عليهم وفرق بين استعماله فيمن يجــوز عليه النظــر المفسر بتقليب الحــدقة وفيمن لا يجوز عليه ذلك بأن أصــله فيمن يجــوز عليه كنــاية لأن من اعتــد بالانســان التفت اليه وأعاره نظر عينيه ثم كثر حتى صــار عبارة عن الاعتداد والاحســان وان لم يكن ثم نظر • ثم جاء فيمن لا يجوز عليــه النظر مجردا لمعنى الاحســان مجازا عمــا وقع كناية عنــه فيمن يجــوز عليه النظر وفى الكشــف ان فى هذا تصريحا بأن الكناية يعتبر فيها صلوح ارادة الحقيقــة وان لم ترد وأن الكنــايات قد تشــتهر حتى لا تبقى تلك الجهة ملحوظة وحينئــذ تلحق بالمجــاز ولا تجعــل مجــازا الا بعــد الشهرة) (٢٦) •

وهذا من باب المجاز المبنى على كنــاية :

وفى تصوير الحانقين على الاسلام وأهله يبلغ القرآن الذروة العليا فى تصوير دواخلهم ونفوسهم المريضة عندما يرون اجتماع كلمة المؤمنين وائتلاف صــفوفهم •

---

(٢٦) المرجع الســابق ٣/٢٠٤ •

قال تعالى : **« واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور »** .

يصور ندمهم الأسيف العاجز بهذه الكناية المعبرة وهى عض الأنامل وترسم صورتهم فى خلوهم وكيفية اقبالهم على نفوسهم متحسرين وعضهم جوارحهم نادمين . وهو فعل المغتاظ النادم كما قال الشاعر :

فأقتل أقواما لئاما أذلة
يعضون من غيظ رؤوس الأباهم

وكانت هذه الكناية المفردة تصور فعلهم وكان الرد عليهم بتركيب أقوى يحمل كنايتين مزدوجتين وهو — موتوا بغيظكم — فليس المراد المعنى المباشر وهو مجرد الدعاء عليهم بالموت غيظا وانما المراد ملزومه وهو الدعاء عليهم بزيادة الغيظ ودوامة حتى يهلكوا وهذه هى الكناية الأولى ويلزم عنها تضاعف قوة الاسلام وعز أهله وارتفاع شأنه وهذه هى الكناية الثانية . فهذا التركيب من باب الكناية المبنية على كناية أخرى .

وفى القرآن كنايات عديدة معبرة أصدق تعبير عن شدة الندم والحسرة والألم النفسى الذى ينخلع على الجوارح فتتحرك حركة خاصة ترسم الكناية صورتها وتجسد هذه المعنويات حتى تبدو من خلال التصوير شاخصة أمام العين كما فى قوله تعالى : **« فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها »** . وقوله : **« ولما سقط فى أيديهم »** .

وأنظر الى كنايات الشدة وكيف عبر عنها القرآن وبخاصة فى تلك الغزوات التى أحاط العدو فيها بالمسلمين مثل غزوة الأحزاب كما قال تعالى : **« اذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا »** .

نجد أن الآية ترسم صورة الشدة رسما دقيقا ويترقى أسلوبها مصورا بداية مجىء الأعداء الذين أحاطوا بالمسلمين فكنى عن هذه الاحاطة بهذا التعبير المكانى — من فوقكم ومن أسفل منكم كما فى قوله تعالى : **« يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم »** .

وكان هذا هو السبب الأول لمصدر الشدة ثم انتقل التصوير الى بيان موقف المسلمين • فقد زاغت منهم الأبصار وتقلبت منهم المحاجر ومالت عن اسنن المعتدل وانحرفت عن طبيعتها وكأنها كانت كالمؤشر الذى يشير الى علو درجات الشدة والحيرة وكانت كلمة — زاغت — دقيقة وعميقة فى بيان درجة الفزع الذى تغشى القوم • اذ أن مادتها — زيغ — تدور حول الميل والكلال •

وبعد تصوير الشدة من خلال هذه الجوارح المرئية نفذ التصوير الى حيث يكون اللب والرعب أى الى القلب ولكنه لم يكن أسعد حالا من الابصار • فقد بلغ الحناجر • وهذه أقسى مرحلة يصل اليها الخائف الفزع الذى يعتصره الخوف ويؤلمه الوجل وكأن لم يكن بينه وبين الموت سوى ثوان معدودة •

ولذلك جاء هذا التركيب لتصوير الخوف الراعب يوم القيامة كما فى قوله تعالى **يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار »** • وقوله : **« أنذرهم يوم الآزفة اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين »** •

ثم يجىء الفعل المضارع — وتظنون — لينقل صورة هذه الشدائد ويعكس الواقع الأليم الذى عايشه المسلمون فى هذه المعركة ويستحضرها • لتكون عظة مستمرة فيتذكروا نعمة ربهم بالنجاة والنصر وكان الله على كل شىء قديرا •

ويأتى ظرف المكان — هنالك — لينقل صورة المكان والزمان لهذه الأحداث وهو حقيقة فى المكان مجاز فى الزمان •

ثم كانت النهاية المركزة لهذا الاضطراب الشديد فى هذه الاستعارة — وزلزلوا — الدالة على أنها شدة واضطراب تميد به الأرض وتنشق عنه الجبال وهذه محصلة حتمية لما تقدم من شدة الفزع وكثرة الأعداء المحيطين •

ويظهر أثر الكناية الجميل فى تلك المجادلات بين الرسل وأقوامهم فيتخذها الرسول أداة رد على أبلغ ما يكون الرد وأقواه دون مصارحة للأقوام بالرد الجارح أو بما يثير حفيظتهم عليه •

فنــوح عليه الســـلام يطلب من قــومه أن يعبـــدوا الله وحـــده فيقولون له « **انا لنراك فى ضلال مبين قال يا قوم ليس بى ضـــلالة ولكنى رسول من رب العالمين** » .

فقد خالف النظم الكريم بين مقولتهم فى اثبـــات الضـــلال له وبين جوابه فى نفى الضـــلال عن نفسه . فالقوم لعنـــادهم وتجبرهم كشــفوا عن نظرتهم له فهو فى ضـــلال متنبس به وواقع فى داخله لا ينفك عنه كما تشـــير الى ذلك الاســتعارة الحرفية — فى ضلال — التى جسدت معنى الضـــلال حتى كأنه ظرف احتوى نوحا فى داخله وتلك صراحة الحمقى .

ولكن أنظر كيف أجابهم نوح فى أدب جم وعلى وجه لا يقلقهم بهذا الأسلوب الكنائى — ليس بى ضلالة — أى ليس بى ضلالة واحدة فضـــلا عن ضلالاتكم المتعـــددة . فنفى عن نفسه الضـــلال ونسب اليهم الكذب من حيث نفى الضلال عن نفسه .

وعلى شـــاكلته قـــول عاد لهـــود **انا لنراك فى سفاهة وانا لنظنك من الكاذبين قال ياقوم ليس بى ســفاهة ولكنى رسول من رب العالمين** » (فكنى عن كذبهم بعبارة لا تثتثيرهم ولا تزيد الهوة اتســـاعا بينه وبينهم فذلك من أدب الرسل ومن منهج الدعاة) (٢٧) .

وهاتان الكنايتان من باب الكناية عن النسبة .

وفى تصوير أصحاب الفيـــل فى قوله تعـــــالى : « **فجعلهم كعصـــف ماكول** » . نجد أنه يشبههم بورق الزرع الذى أكله الدود أو التبن الـــذى أكلته الدواب وراثته ولكن هـــدف التشبيه لا يقف عنـــد حد هـــذا المعنى بل يرمى الى معنى آخر يلزم عنـــه وهو امتهان آدميتهم وحقارة شأنهم وذهاب أوراحهم وكونهم مبتذلين ضـــائعين لا ينظر اليهم أحدا فهـــو من باب الكناية المبنية على تشبيه . قال الزمخشرى (جاء على ما عليه آداب القرآن كقوله : « كانا يأكلان الطعام » (٢٨) .

---

(٢٧) من بدائع النظم القرآنى ٧٧ .
(٢٨) الكشـــاف ٤/٢٨٦ .

ثانيـــا : صور من كنايات السنة المطهرة :

وقد حفلت السـنة المطهرة بكثير من الكنـايات التى نهجت نهـج القرآن الكريم فى التعبير عمـا يستقبح ذكره وذلك فيمـا يتصل بالأمور الشرعية التى لا بد من أن يعرض لهـا الرسول ﷺ باعتباره المعلم الأول للرسـالة الخـالدة •

كمـا فى قوله : (اذا جلس بين شعبها الأربع ثم أجهدها فقد وجب الغسـل) •

فهو عليه الصـلاة والسلام يعلم أمته الطهارة والترفع عن القذارة لأنها بئسـت الشـارة • فيوجب الغسل على من جلس من امرأته هـذا المجلس كمـا يعلمنـا بأن نربأ بأنفسـنا عن مواطن الاثارة وأن نسـلك سـبيل التلميح والتكنية فى الأحـاديث المتصلة بالجنس وهـذا من أدب الكلمة والسـلوك فى الاسـلام • أما أن يكشـف الجنس نفسه عن ساقه بهـذا العرى الفاضح والتبذل المشين فهذه هى الفواقر المبيدة •

فكنى عن الجمـاع بالجلوس بين شعبها الأربع والمراد بهـا يداها ورجلاها أو رجلاها وفخذاها على خلاف فى ذلك •

ثم كنى عن معالجة الايلاج بقوله (ثم أجهدها) • جهـد وأجهد أى بلغ المشـقة قيل معنـاه كدها بحركته (٢٩) •

وأحيـانا كان يمنعه حيـاؤه عليه الصـلاة والسلام من التصريح أو التكنيـة كمـا فى موقفه من المرأة التى سـألته عن كيفية الغسـل من الحيض فقـال لهـا • خذى فرصة فتطهرى بها • قالت • كيف أتطهـر بها • قال : تطهرى بها • قالت : كيف ؟ قال : سبحان الله تطهرى • تقول السـيدة عائشة : فاجتذبتها الى فقلت تتبعى بها أثر الدم • فالمراد بأثر الـدم كمـا قال النـووى (الفرج) فكنت عائشـة بأثر الـدم عنـه وقد جعل ابن حجر من فوائد هذا الحديث • استحباب الكنـايات فيمـا يتعلق بالعورات (٣٠) •

---

(٢٩) ينظر فتح البارى ٢/٢٠٥ •

(٣٠) المرجع السابق ٢/٢٣١ •

وقال عليه الصلاة والسلام (أغبط الناس عندى مؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من صلاة) .

فعلى القول بأن خفة الحاذ هى قلة لحم باطنى أو ظاهرى الفخذين فان الكلام يكون كناية عن مدح المؤمن الذى يجد فى عدوه ويسرع فى خطوه تحقيقا للأعمال الصالحة وبلوغ الدرجة العالية والمراقى الكاملة فى الاحسان حتى يكون أغبط الناس عند الرسول (لأن الدنيا بمنزلة المضمار والناس فيها بمنزلة الخيل المجراه والغاية هى الآخرة فكلما كان الواحد منهم أخف نهضا وامتراقا كان أسرع بلوغا ولحاقا ويبين ذلك قول أمير المؤمنين على عليه السلام فى كلام له تخففوا تلحقوا ..

وعلى القول بأن الحاذ هو المتن من الانسان فيجوز أن يكون كناية عن قلة العيال ونزارة المال كما يقولون . فلان خفيف الظهر اذا أرادوا هذا المعنى) (٣١) .

وقال ﷺ فى شأن شريح الحضرى (ذاك رجل لا يتوسد القرآن) .

وهو من الكنايات الغريبة التى تحتمل معنيين . أحدهما . مدح والآخر ذم .

فالمدح أن يكون المراد به لا ينام عن قراءة القرآن بل يقطع ليله بالتهجد مع تلاوته وملازمته كأنه جعله وسادا لخده وفراشا لجنبه كما ورد فى الحديث الآخر : (يا أهل القرآن لا توسدوا القرآن واتلوه حق تلاوته) .

وأما الذم فعلى معنى أنه غير حافظ للقرآن فليس بخازن من خزنته ولا وعاء من أوعيته فليس هناك ملازمة بينهما (٣٢) .

كذلك الوصف بالألوان من نحو الغبرة والحمرة لها أثر فى التعبير الكنائى كما فى قوله عليه الصلاة والسلام (لو يعلمون ما يكون فى

---

(٣١) المجازات النبوية ٤١ بتصرف .
(٣٢) المرجع السابق ٤٢ بتصرف .

هذه الأمة من الجوع الأغبر والموت الأحمر ..) فوصف الجوع بالغبرة على عادة العرب فى وصف أيام الشدة والسنين المجدبة بالاغبرار لاغبرار آفاقها وقلة أمطارها وقحولة أعشابها وشجرها كما قال الشاعر :

أغر يبارى الريح فى كل شدة
اذا اغبر أقدام الرجال المحل

كما وصف الموت بالحمرة كناية عن شدة البأس أو كثرة الدماء (وهذه طريقة للعرب فى وصف اليوم العماس — الشديد والأسود المكفهر — واشتداد البأس بالحمرة . فكما يقولون يوم أحمر يقولون موت أحمر . قال الشاعر فى صفة الأسد :

اذا علقت أظفاره فى فريسة
رأى الموت فى عينيه أحمر أسودا (٣٣)

كذلك فى وصف الأخلاق بالبياض كناية عن الحسن فى قوله ﷺ : (تزوجوا الشواب فانهن أغر أخلاقا) كما أن السواد فى قولهم فلان أسود الخلق عبارة عن القبح فكأنه عليه الصلاة والسلام قال فانهن أحسن خلقا كما أن الغر من الخيل أحسن خلقا) (٣٤).

ولماذا نزل قوله تعالى : ((**وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من افجر ...**)) قال عدى بن حاتم — عمدت الى عقالين أبيض وأسود فجعلتهما تحت وسادتى فكنت أقوم من اثليل فأنظر اليهما فلا يتبين لى الأبيض من الاسود فلما أصبحت غدوت الى رسول الله ﷺ فأخبرته فضحك وقال . إن كان وسادك لعريضا وروى انك لعريض القفا انما ذاك بياض النهار وسواد الليل .

قال الزمخشرى — عرض رسول الله ﷺ قفاه لأنه مما يستدل به على بلاهة الرجل وقلة فطنته وأنشدتنى بعض البدويات :



(٣٣) المرجع السابق ٥٨ .
(٣٤) المرجع السابق ٢٠٨ .

عريض القفـــا ميــــزانه فى شـــماله
قد انحص من حسب القراريط شاربه(٣٥)

فقول النبى عنـــه انه (عريض الوســـادة) وعريض القفا) كنايتان عن البله ولكن دلالة التركيب الأول عليه بواســـطة اذ ينتقل من عرض . الوســـادة الى عرض القفا ثم الى المقصـــود وهو البله وقد ســـموا هذا النـــوع بالكنـــاية البعيـــدة وهى ما ينتقل منهـــا الى المطلـــوب بواسطة

بينمـــا ينتقل من عرض القفـــا الى البله بلا واسطة وهو ما يسمى بالكنـــاية القريبة وهى ما ينتقل منهـــا الى المطلـــوب بلا واســـطة وهى اما واضـــحة كقولهم . طويل النجاد . كناية عن طول القامة .

واما خفيـــة مثل — عريض القفـــا — فهى خفية باعتبـــار الفهـــم وقريبة باعتبار نفى الوســـائط .

وقد جعل الســـكاكى التركيب الأول — عـــريض الوســـادة — من القريبة على أنه كنـــاية عن عرض القفـــا ولكن الخطيب يجعله محل نظر ووجه النظر لو كان كنـــاية عن عرض القفـــا لكـــان هو المقصود فلا يكون كناية عن البله والغرض خلافه والحـــق أنه يصح أن يكون مثـــالا لهما . فان قصـــد الكناية عن البله فهو مثال للبعيـــدة أو الكناية عن عرض القفا فهـــو كنـــاية قريبـــة (٣٦) .

والبيت الســـابق فيه ثلاث كنـــايات من النوع القـــريب الخفى . كلهـــا تتآذر فى رســـم صـــورة كاملة لهـــذا الموصـــــوف وقد تواردت بلا عاطف اشـــارة الى توحدها فى هذا الشـــخص وأن الأولى منها كانت مقدمة للثانيـــة والثالثة ناتجة عن الثانية . فالبله سبب فى عـــدم الضبط والاحكام — ميزانه فى شـــماله — ونشأ عنه — الانشغال بتوافه الأمـــور قد انحص من حسب القراريط شاربه —

---

(٣٥) الكشـــاف ١/٣٣٩ .
(٣٦) شروح التلخيص ٤/٢٥٧ .

ثالثـا : صـور من كنايات الشعراء :

ضرب الشعراء بسـهم وافر فى تمثل أسـلوب الكنـاية كطريق من طرق الابانة عمـا فى نفـوسهم وتصوير أحوالهم فى حلهم وترحالهم وقد جمع أحمـد الجرجانى (٤٨٢ ت) قدرا كبيرا من كنـاياتهم المختلفة فى كتابه — (المنتخب من كنايات الأدباء واشارات البلغاء) — منها المقبول ومنها ما يستحى القلم من ذكرها • كمـا أن العلمـاء الذين تنـاولوها بالدراسة قد أشاروا الى صور شعرية كثيرة سلك أصحابها طريق الكناية فى تصويرها • مثل قدامة وابن رشـيق وعبد القاهر •

وقد تميزت طريقة عبد القاهر بالعرض والتحليل والموازنة القائمـة على التـذوق والاحساس بالتعبير •

وقد كانت الكناية عن الصـفة من أشيع الكنايات فى شعرهم فقـد كنوا عن كرمهم بتراكيب متعددة منها قول الشاعر :

ومـا يك فى من عيب فانـى
جبـان الكلب مهـزول الفصـيل

فقد أراد — أن يذكر نفسـه بالقـرى والضـيافة فكنى عن ذلك بجبن الكلب وهزال الفصيل وترك أن يصرح فيقـول • قد عرف أن جنابى مألوف وكلبى مؤدب لا يهر فى وجوه من يغشـانى من الأضياف وانى أنحر المتالى من ابلى وأدع فصالها هزلى (٣٧) •

ومثل جبن الكلب وهزال الفصيل • كثـير الرماد وواسـع الجفنـة ومبسـوط اليدين وكثير القصـاع • فكلها كنايات تفضى الى معنى الكرم ولكن الصور مختلفة •

فجبن الكلب يدل على الكرم من حيث انه قد زجر عن الهرير فى وجوه الضيفـان فسـكنت ثورته وألف الـوفود فجبن عن الهـرير والنبـاح وهزال الفصيل دل على الكرم من حيث ان صـاحبه قد قصـد الى أمه فنحرها جودا وأريحية •

---

(٣٧) دلائل الاعجاز ٢٩٧ •

وكثرة الرماد دلت على الكرم من خـــلال هذه المخلفات الناجمة عن كثرة الاحراق اللازم لكثرة الطبـــائخ الــــدال على كثرة الأكل وكثرة الضـــيفان •

وبســـط اليدين يدل على العطاء الوفير • وكثرة القصاع واتســـاع الجفـــان وهمـــا من أوانى الطعام تدل على الجود الغزير • وهكذا يبرز معنى الكرم من خلال هذه الصور المتعددة • وهى تقترب وتبتعد حســب تسلسلها فى مفهوم الشــعراء • قال عبد القاهر (أنك تنظر الى قوله : جبـــان الكلب ـــ فتعلم أنه نظير لقوله ـــ زجرت كلابى أن يهر عقورها ـــ من حيث لم يكن ذلك الجبن الا لأن دام فيه الزجر واســـتمر حتى أخرج الكلب بذلك عمـــا هو عادته من الهرير والنبح فى وجـــه من يدنو منـــه من دار هو مرصـــد لأن يعس دونها وتنظر الى قوله ـــ مهزول الفصـــيل ـــ فتعلم أنه نظير قول ابن هرمة ـــ لا أمتع العوذ بالفصال ـــ وتنظر الى قول نصيب :

لعبـــــد العزيز على قومـــــــه
وغــــيرهم منن ظـــــــــاهرة
فبابك أســـــــهل أبوابهـــم
ودارك مأهـــــولة عامــــــرة
وكلبــــك آنس بالـــزائرين
من الأم بالابنـــــة الـــــزائرة

فتعلم أنه من قول الآخر :

يكاد اذا ما أبصر الضيف مقبـــلا
يكلمه من حبه وهـــــو أعجـــم

وأن بينهما قرابة شـــديدة ونسبا لاصقا (٣٨) •

فهذه الأحوال المختلفة للكلب والتى تبدأ بزجره عن الهرير ثم جبنـــه ثم الفـــه الضيفان ثم أنســـه بالزائرين ثم كونه يكاد يكلمهـــم من حبـــه

---

(٣٨) دلائل الاعجاز ٢٩٨ •

وهو أعجم انمــا هى حلقات فى سلسلة رســمها (الشعراء صعدا فى باب الدلالة فصــارت أواخر صورها أبعد من أوائلها ولكنهــا تقترب أكثر اذا قورنت بصـــورة — هزال الفصــيل — لأن كل واحدة من هاتيك الكنايتين — جبن الكلب وهزال الفصــيل أصل بنفسه وجنس على حده كما يقــول عبد القــاهر وكذلك قول ابن هرمة :

لا أمتــــع العــــــوذ بالفصــال
ولا أبتــاع الا قريبــة الأجـــــل

ليس احدى كنايتيه فى حكم النظير للاخرى وان كان المكنى عنــــه بهمــا واحدا فاعرفه (٣٩) •

كذلك إستغل الشعراء العصا فى التعبير عن كنايات مختلفة فيقــال : (ألقى فلان عصــاه اذا أقام واستقر • قال الشاعر :

فألقت عصــاها واستقر بهــا النوى
كمــا قر عينـــا بالايات المســـافر

وقال زهـــير :

فلمــا وردنا المــــاء زرقا جمــــامه
وضعنا عصى الحــاضر المتخيــــــم

ويقال طارت عصى بنى فلان شققا اذا تباغضوا (٤٠) •

وشق العصا كنــاية عن تفريق الأمر وتشتيت الجمع •

قال الراعى :

فتشققت من بعــد ذلك عصــاهم
شققا وغودر جمعهــــم مفلــولا

ومنه قوله ﷺ : (من أتاكم وأمركم جمع يريد أن يشـــق عصــاكم ويفرق جماعتكم فاقتلوه) •

---

(٣٩) دلائل الاعجاز ٣٠١ والتصوير البيانى ٣٨٢ •
(٤٠) المنتخب ١٤٢ •

(ويجوز أن يكون لشق العصا وجه آخر وهو أن يريد به فل شوكتهم وايهان قوتهم لأن العصا لصاحبها قوة يدفع بها وبسطة يعول عليها (٤١) •

وقوله عليه الصلاة والسلام (لا ترفع عصاك عن أهلك) •

المراد لا ترفع التأديب عنهم ولا تغب التقويم لهم فكنى عن ذلك بالعصا حملا للكلام على عرف العرب لأن المتعارف بينها أن التأديب فى الأكثر لا يكون الا بقرع العصا •••

ويقال للرجل اذا كان دقيق السيرة جميل الايالة — الرياسة — انه للين العصا • قال معن بن أوس المزنى •

عليه شريب وادع لين العصا

يساجلها جماته وتساجله (٤٢)

وقال الشاعر :

ضعيف العصا بادى العروق ترى له

عليها اذا ما أجدب الناس اصبعا

قال عبد القاهر : وأنشد شيخنا رحمه الله مع هذا البيت قول الآخر :

صلب العصا بالضرب قد دماها

أى جعلها كالدمى فى الحسن • وكأن قوله — صلب العصا — وان كان ضد قول الآخر — ضعيف العصا — فانما يرجعان الى غرض واحد هو حسن الرعية والعمل بما يصلحها ويحسن أثره عليها • فأراد الأول بجعله — ضعيف العصا — أنه رفيق بها مشفق عليها لا يقصد من حمل العصا أن يوجعها بالضرب من غير فائدة فهو يتخير ما لان من العصى وأراد الثانى أنه جيد الضبط لها عارف بسياستها فى الرعى يزجرها عن المراعى التى لا تحمد ويتوخى بها ما تسمن عليه ويتضمن

---

(٤١) المجازات النبوية ١١٨ •
(٤٢) المرجع السابق ٢٠٢/٢٠٣ •

أيضـــا أنه يمنعها عن التشرد والتبدد وأنها لما عرفت من شــدة شــكيمته وقوة عزيمته تنســاق وتستوثق فى الجهة التى يريدها من غير أن يجــدد لهـــا فى كل حال ضربا (٤٣) •

كمـــا كنوا عن الهرم والعجز بالمشى على العصا قال الشاعر :

مشيت على العصا وحنون ظهــرى

ووودعت المــــــوارك والــزماما

فهو يصور ما آل اليه حاله بعد سهره الليل ومراقبتــــه النجــوم ومكابدته الهموم وذهاب شبابه وانحناء ظهره فعبر عن عجـــزه وهــرمه بالمشى على العصـــا •

وكنى عن المحـــاربة بوضع عصا الحرب كقوله :

لئن وضـــعت قيس وخندق بينهـــا

عصا الحرب ما أوجفت فيها مع الركاب

يقول : ان الأخطل لا طاقة له ولا صــبر على معــالجة الحــرب اذا ما عزمت قيس وخنــدف على المحاربة بوضع عصا الحرب بينهما (٤٤) •

كذلك استغل الشعراء الألوان المختلفة فى التعبير الكنائى •
قال المتنبى :

قالت وقد رأت اصــفرارى من به

وتنهدت فأجبتها المتنهـــــــــد

فمضت وقد صبع انحيــاء بياضها

لونى كمـــا صبغ اللجين العســجد

فهو يعبر عن شــعوره الداخلى تجاه التى ســفكت دمه بجفونهـــا وأن وجد الفراق وألم البعد قد غمره بالاصفرار وهى تتساءل عن سببها من به ؟ وتنهــدت فأجابها بأنها هى التى كانت سببا فى هــذه الصــفرة

---

(٤٣) أسرار البلاغة ٢/٢٢٢ •

(٤٤) التصوير البيــانى ٣٧٦ للمؤلف •

الناجمة عن وجده لفراقها • فكنى بصفرة لونه عن تلك الآلام النفسية التى يعانيها من الخوف والبعد •

وقوله (صبغ الحياء بياضها لونى) أى أحال الحياء بياضها الى صفرة والحياء يحمر اللون ولا يصفره ولكن لما كان حياؤها مشوبا بالخوف صبغها بالصفرة ولذلك قال الواحدى — ان الحياء لا يصفر اللون بل يحمره ولكن هذا الحياء كان مختلطا بالخوف لأنها خافت الفضيحة على نفسها أو خافت أن يسمع الرقيب هذا الكلام أو خافت أن تطالب بدمه فاستشعارها خوف ما جنت من القتل غلب سلطان الحياء فأورث صفره (٤٥) •

وفى قوله :

متى لحظت بياض الشيب عينى

فقد وجدته منها فى السواد

فهو يعبر عن كراهيته الشديدة لابياض الشيب ونفوره منه فيجعل هذا البياض كأنه فى سواد العين • مبالغة فى هذه الكراهية لأن ابضاض العين كناية عن العمى كما قال تعالى عن يعقوب ((**وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم**) •

وقال أبو تمام :

تردى ثياب الموت حمرا فما أتى

لها الليل الا وهى من سندس خضر

فقد دبج الشاعر هذا المعنى بطريق الكناية تعبيرا عن موقف المرثى فى ساحة القتال حيث القتل والتلطخ بالدماء — تردى ثياب الموت حمرا — وما ان أتى الليل الا وقد تحولت هذه الثياب القانية الى أثواب سندسية خضراء كناية عن الشهادة ودخول الجنة •

---

(٤٥) ديوان المتنبى ٢/٥٢/٥٣ •

وقال ابن حيــوس :

طالمــا قنت للمســـائل عنكـــم
واعتمادى هـــداية الضـــلال

ان ترد علم حالهـــم عن يقـــين
فالقهـــــــم يوم نائل أو نزال

تلق بيض الوجوه ســـــود مثار
النقع خضر الأكناف حمر النصـــال

فقـــوله : بيض الوجوه ــ كناية عن كرمهم وخصـــوبة عيشـــهم وتنعمهم و ــ سود مثار النقــع ــ خضر الأكناف ــ حمر النصال ــ كناية عن شجاعتهم وبســالتهم فى الحروب .

وقال الحريرى : (فمــذا زور المحبوب الأصــفر واغبر العيش الأخضر أسود يومى الأبيض وابيض فودى الأسود حتى رثى لى العــدو الأزرق فيا حبــذا الموت الأحمر) .

وصف العيش بالاخضرار كناية عن طيبه ونعومتـــه وكمـــاله لأن اخضرار العــود والنبات يدل على طيبه ونعومته وكونه على أكمــل حال فيكنى به عن لازمه فى الجملة الذى هو الطيب والحسن والكمال .

والاغبرار كناية عن ضــيق العيش ونقصانه وكــونه فى حال التلف لأن اغبرار النبات والمكــان يدل على الذبول والتغــير والرثاثة فيكنى به عن معنى هذا اللازم ..

واسوداد اليــوم كناية عن ضيق الحال وكثرة الهموم لأن اسوداد الزمان كالليل ينــاسب المهوم ووصفه بالبياض كناية عن ســعة الحــال والفرح لأن بياض النهــار يلابس ذلك .

وابيض فودى الأسود ــ الفود هو شــعر جانب الرأس ممــا يلى الأذن وابيضاض الفود كنــاية عن ضعف بنيته ووهنـــه من كثرة الحــزن والهــم .

ووصف العـدو بالـزرقة كنـاية عن شـدة العـداوة لأن أشـهر الناس بالعـداوة وأشدهم فيها للمسـلمين الروم وأكثرهم زرق الأعـين فاشتهر وصـفهم بالعداوة مع زرقة أعينهم حتى صار كناية عن كل عـدو شـديد العـداوة •

ووصف الموت بالاحمرار كنـاية عن شدته أو أراد بالموت الأحمـر القتـل •

وأما وصـف المحبـوب بالاصفرار فمن باب التورية (٤٦) •

وقد ترمى الكنـاية الى معنيين كمـا فى قول المتنبى يمدح كافورا •

لقد شـب فى هذا الـزمان كهـوله
لديك وشابت عند غـيرك مـــرده

فكون الكهول يصيرون شبابا اما أن يكون كناية عما يجدونه من رغد العيش وبشـاشة الحياة ونور العدل • وهذا مدح واما أن يكون كناية عن الظلم والاحتقـار والذل حتى صاروا كالصبيان وهذا هجاء •

وكون الشباب يصيرون شيبا اما أن يكون كناية عن اليـأس والظلم والحياة المكفهرة التى يلاقونها عنـد غير الممدوح فيكـون مدحا له •

وقال ابن جنى : هذا تعريض بسـيف الدولة أى صاروا عنـد غيرك بظلمه وسوء سيرته شـيبا (٤٧) •

واما أن يكون كنـاية عمـا يجدونه من التوقير والاحترام شـأنهم فى ذلك شأن الشيب فيكون هجاء لكافور •

وهذا من إبداع المتنبى فى كناياته • فالكناية الواحدة لهـا أكثر من دلالة وكما تكـون احدى الدلالتين مدحا تكون الأخرى هجاء •

ومن كناياته المبنية على المجـاز والمبـالغة قوله يمدح الحسـين بن على :

---

(٤٦) ينظر شروح التلخيص ٤/٢٩٢ وما بعدها بتصرف •
(٤٧) ينظر ديوان المتنبى ٢/١٢٦ •

أرى القمر بن الشمس قد لبس العلا
رويدك حتى يلبس الشعر الخد

فقد جعله قمرا وأباه شمسا وقد لبس من العلا والشهرة ثوبا . ويطلب اليه أن يتمهل فى ابتناء المعالى لأنه لما يبلغ مرحلة الرجولة بعد فقوله — حتى يلبس الشعر الخد — كناية عن الصغر . والتعبير عن انبات الشعر فى الخد باللباس استعارة حسنة ولعله شاكل به قوله — لبس العلا — والصورة ملفوفة بثوب المبالغة لأنه اذا وصل الى هذه المنزلة الفائقة فى حال الصغر فان منزلته فى حال الرجولة لا يحيط بها الوصف ولا يصورها تعبير .

وقد ينزع الشعراء الى منزع آخر فى اثبات الصفة وهو ما يعبر عنه بالكناية عن النسبة ويشرح عبد القاهر هذا المنهج بقوله — أنهم يرومون وصف الرجل ومدحه واثبات معنى من المعانى الشريفة له فيدعون التصريح بذلك ويكنون عن جعلها فيه بجعلها فى شىء يشتمل عليه ويتلبس به ويتوصلون فى الجملة الى ما أرادوا من الاثبات لا من الجهة الظاهرة المعروفة بل من طريق يخفى ومسلك يدق ومثاله قول زياد الأعجم .

ان السماحة والمروءة والندى
فى قبة ضربت على ابن الحشرج

أراد كما لا يخفى أن يثبت هذه المعانى والأوصاف خلالا للمدوح وضرائب فيه فترك أن يصرح فيقول . ان السماحة والمروءة والندى لمجموعة فى ابن الحشرج أو مقصورة عليه أو مختصة به وما شاكل ذلك مما هو صريح فى اثبات الأوصاف للمذكورين بها وعدل الى ما ترى من الكناية والتلويح فجعل كونها فى القبة المضروبة عليه عبارة عن كونها فيه واشارة اليه فخرج كلامه بذلك الى ما خرج اليه من الجزالة وظهر فيه ما أنت ترى من الفخامة ولو أنه أسقط هذه الواسطة من البين لما كان الا كلاما غفلا وحديثا ساذجا (٤٨) .

---

(٤٨) دلائل الاعجاز ٢٩٦ .

ونظيره قول يزيد يمدح يزيد بن المهلب :

أصـبح فى قيدك السـماحة والمجـ
ـد وفضل الصـلاح والحسب

ومما هو فى حكم المناسب لبيت زياد وأمثاله التى ذكرت وان كان قد خرج فى صورة أغرب وأبدع قول حسان رضى الله عنه :

بنى المجـد بيتـا فاستقرت عمـاده
علينـا فأعى الناس أن يتحـولا

وقول البحترى :

أو ما رأيت المجـد ألقى رحلـه
فى آل طلحـة ثم لم يتحـول

ذاك لأن مدار الأمر على أنه جعل المجد والممدوح فى مكـان وجعله يكون حيث يكون (٤٩) .

وأما الكنـاية عن الموصوف فمثل كنايتهم عن الناس بالشجر كقول المسيب بن على :

دعـا شجر الأرض داعيهـم
لينـصره السـدر والأثأب

ويقولون فى الكلام المنثـور . جاء فلان بالشـوك والشـجر . اذا جاء بجيش عظيـم .

وكنوا عن المرأة بالشـاة والناقة والسرحة والنخلة .

قال عنترة :

يا شـاة ما قنـص لمن حلت لـه
حرمت على وليتهـا لم تحـرم

ويبين ابن رشـيق الوجه فى كنايتهم عن المرأة بالنعجة فيقـول : والعرب تجعل المهـاة شاة لأنها عندهم ضائنة الظبـاء ولذلك يسـمونها

---

(٤٩) المرجع السابق ٣٠٠ .

نعجة وعلى هذا المتعـارف فى الكناية جاء قول الله عز وجل فى اخباره عن خصم داود عليـه السـلام — ان هـذا أخى نه تسع وتسعون نعجة — كناية بالنعجة عن المرأة (٥٠) ٠

— فليس الذى سوغه هو التأنيث والولادة — كما زعم ابن الأثير — لأن ذلك يجيز الكنـاية عنها بكل مؤنث من حية ولبؤة وغيرها وانما هنـاك شىء آخر هو أنهم شـبهوا المرأة بالمهـاة أى البقـرة الوحشـية واستعاروها لها وهذا كثير ثم انهم يطلقون على المهاة شاة (٥١) ٠

وروى ابن قتيبة أن رجلا كتب الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

ألا أبلغ أبا حفص رسـولا
فدى لك من أخى ثقـة ازارى

قلائصنا هـداك الله انـا
شغلنا عنكم زمن الحصـار

فما قلص وجـدن معقـلات
قفـا سـلع بمختلف النجـار

يعقلن جعـد شـيظمى
وبئس معقل الـذود انظـؤار

وانمـا كنى بالقلص — وهى النـوق الشـواب — عن النسـاء وعرض برجل يقـال له — جعـدة — كان يخالف الى المغيبات من النساء ففهم عمر ما أراد وجلد جعـدة ونفاه (٥٢) ٠

وقال حميـد بن ثور :

تجرم أهلوها لأن كنت مشـعرا
جنونا بها يا طـول هذا التجرم

---

(٥٠) العمـدة ٣١٢/١ ٠
(٥١) التصوير البيانى ٤١٣ ٠
(٥٢) العمدة ٣١٢/١/٣١٣ ٠

ومالى من ذنب اليهـــم علمتـــه
سوى أننى قد قلت يا سرحة اسلمى

بلى فاسلمى ثم اسلمى ثمت اسلمى
ثلاث تحيــــات وان لم تكلمى

فكنى بالسرحة عن المرأة والسرحة الدوحة العظيمة التى يأوى الناس الى ظلها • وأحسنها ما نبت على الماء ولذلك عدوا من أحســن الكنــايات قــول الشاعر :

يا سرحة المــاء قد سدت موارده
أما اليــك طريق غــير مســدود

وقد فشا هذا النوع من الكناية فى عهد عمر بن الخطاب • فيذكرون أنه أو غــيره من الخلفــاء قد حظر على الشــعراء ذكر النســاء فكانوا يتوصلون اليهن بهذه الكنــايات (٥٣) •

وكنوا عنها بالنخلة قال الشاعر :

ألا يا نخلــة من ذات عــــرق
عليك ورحمـــــة الله الســـلام

وذلك • كناية عن طولها واعتدال قامتها وحلاوة جناها • وهـــذه الأوصـــاف وان كانت يمكن أن تكون أســاسا لعلاقة المشــابهة ويكــون التعبير من باب الاستعارة الا أن الدلالة لم تقم على هذه العلاقة لأنهــا صــارت ملغيــة فى الاستعمال وانما الذى ســوغ ذلك الأساس العرف اذ أن الشــعراء انمــا لجأوا إلى ذلك لأنهــم لم يســتطيعوا التصريح بالاسم • فالهروب من التصريح بالاســم هو الذى جعلهم يقصدون الى أسلوب الكناية (٥٤) •

وكنوا عن القلب بموطن اللب والرعب والحقد كمــا فى قول البحترى فى قصيدته التى يذكر فيها قتله للذئب •

---

(٥٣) المرجع الســابق •
(٥٤) التصوير البيانى ٤١١ بتصرف •

فأتبعتهـــا أخرى فأضللت نصـــلها
بحيث يكون اللب والرعب والحقــــد

وبمجامع الأضغان كمـا فى قول عمرو بن معد يكرب :

الضــاربين بكل أبيض مخـــدم
والطاعنين مجــامع الأضــغان

ومعلوم أن هناك دقة بالغة فى التعبير عن القلب بهـذه الأوصـاف كشف عنها الدكتور بسـيونى بقوله (لأن ايقاع الطعن فيها دليل صدق الانفعال وجمـاع الاحساس بأطراف المـوقف وما يجب فى عـلاجه فأبو عبادة يريد أولا أن يفسد على الذئب قوته وصحة عزمه فكان قصده الى اللب الذى هو موطن الحزم والقـوة ثم انه خشى انقضـاض الذئب عليه انقضـاض الوحش المرعوب الذى يدافع عن نفسه بفعل الطبيعـة فيهجم على كل من يعترضه ليخلص نفسـه • فقصد البحترى الى موطن اللب والرعب ولم يكن البحترى بعـد هذه الجولة الحامية ليقف عند هذا الحد بل الغرض الأسـاسى والغاية النهـائية له أن يصيب مكمن الحقـد ويقضى عليه فى هذا الذئب وبذلك يشـفى غليله ويرضى دوافع الانتقـام منه •

وهذا عينه ما قصـد اليه عمرو بن معـد يكرب عنـدما خصـص الضرب والطعن بمجامع الأضـغان فلو كانت انغـاية مجرد اصابة القتل لكـانت الرقاب والـرؤس أولى ولو كان المقصـود مجـرد قلب لكـان مجمع الحب والعطف كاف فيه وانمـا المقصـود فيه والـذى اسـتحق بسببه الضرب والطعن أنه مجمع الأضـغان وأنه مـوطن اللب والرعب والحقد فى الخصم (٥٥) •

وبعد هذه الجولة المتواضـعة مع صور الكناية يتحصل لنا مما سبق أن الكنـاية يمكن أن تكون مستقلة عن غيرها من صور البيان الأخرى فتدل على صـفة أو نسبة أو موصـوف ويمكن أن تجامع صـور البيان الأخرى • فتظهر فى هذه الصور :

---

(٥٥) الصور البيانية ٣٦٩ وما بعدها •

١ — الكنـــاية المبنية على تشبيه •
٢ — الكناية المبنية على مجاز •
٣ — الكناية المبنية على كنـــاية •
٤ — المجاز المبنى على كنـــاية •
٥ — الكنـــاية ذات الدلالتين المتغايرتين •

ونختم الكنـــاية ببيان وجه أبلغيتها كمـــا وضحه عبد القاهر بقـــوله (أما الكناية فان السبب فى أن كان للاثبات بها مزية لا تكـــون للتصريح أن كل عاقل يعلم اذا رجع الى نفسه أن اثبـــات الصـــفة باثبـــات دليلهـــا وايجابها بمـــا هو شـــاهد فى وجودها آكد وأبلغ فى الدعوى من أن تجىء إليهـــا فتثبتها هكذا ســـاذجا غفـــلا وذلك أنك لا تدعى شـــاهد الصـــفة ودليلها الا والأمر ظاهر معروف وبحيث لا يشـــك فيه ولا يظن بالمخبـــر التجـــوز والغلط (٥٦) •

فاذا كانت المعـــانى التى تثبت من خلال الصور الكنائيـــة ملتبســـة بأدلتهـــا فان ذلك يفتـــح لهـــا طريقـــا الى النفس تقبله وتقنـــع به وتأنس إليه ولذلك كان ابراز هذه المعـــانى بأدلتها من أبرز الأشياء التى جعلت لهـــا لعوقا بالنفس • ولذلك قال العلوى (فانها تفيـــد الألفـــاظ جمالا وتكسب المعانى ديباجة وكمـــالا وتحرك النفوس الى عملها وتدعـــو القلوب الى فهمها فان أوقعتها فى المـــدح كانت أرفع وأحســـن وفى نفس الممدوح أوقع وأمكن وان صـــدرتها للذم كانت آلم وأوجـــع والى ذكر فضائح المذموم أسرع وأخضع وان أدخلتها من أجل الحجاج كان البرهان بهـــا أوضح وأنور والســـلطان بها أقدر وأقهر والافحـــام بها أشـــهر والتســـلط أعظم وأبهر وان وقعت فى الافتخار كان ضياؤه أسطع ومناره أعلى وأرفع وان كانت موجهـــة للاعتـــذار فهى الى سل سخائم القلـــوب أعجل وأقرب وبوحر الصدور وفل غرب غضـــبها أذهب وان صـــدرت للاتعـــاظ كانت فى المبـــالغة فى النصيحة أنجع ولمرض القلـــوب أشـــفى وأنقع وان أردت بهـــا جانب الاعتاب والرضا كانت بطيب الصـــحبة ولين العريكة أظفر وعلى الوفاء بلوازم الألفة أوفر (٥٧) •

---

(٥٦) دلائل الاعجاز ١١٠ وما بعدها •
(٥٧) الطراز ٤٣٥/١ •

ولا شك فى أن جمال التصوير يكمن فى هـــذه الاثارة المعنـــوية التى تداخل النفس وتستولى على الحس ولذلك قال المرحوم العقاد (والجمال فى الفن معنـــوى لا شكلى وان الأشكال لا تعجبنا وتحـــــل فى نفوســـنا الا لمعنى تحركه أو لمعنى توحى اليه فالوظيفـــة فى الحياة تسبق العضـــو الذى يمثلها وما من شـــــكل نراه الا يختنف موقعـــه فى الـــذوق بحسب اختلاف الدلالة التى يدل عليها والوظيفة التى يقوم بها (٥٨) ٠

هذا وبالله التوفيق وصلى اللهم وسلم وبارك
على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين
أجمعين

(٥٨) مراجعات فى الاداب والفنون ٤٩/ ٥٠ ٠



المراجـــع

أولا : القرآن الكريم :

ثانيا : المراجـع العربية

١ ــ **الاتقان فى علوم القرآن**
السـيوطى

٢ ــ **اسرار البلاغة**
عبد القاهر الجرجانى

٣ ــ **الاشارة الى الايجاز فى بعض أنواع المجاز**
عز الدين بن عبد السلام

٤ ــ **الاعجاز البلاغى**
دكتور / محمد محمد أبو موسى

٥ ــ **الافصاح عما تضمنه الايضاح من مباحث علم البيان**
الأستاذ الشيخ / أحمد الحجار

٦ ــ **بغية الايضاح**
الأستاذ الشيخ / عبد المتعال الصعيدى

٧ ــ **البرهان فى علوم القرآن**
الزركشى

٨ ــ **البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى**
دكتور / محمد محمد أبو موسى

٩ ــ **البيان والتبيـين**
الجاحظ

١٠ ــ **البيان بين عبد القادر والسكاكى**
دكتور / على البدرى

١١ — **البيان عند الشهاب الخفاجى**
دكتور / فريد محمد بدوى النكلاوى

١٢ — **الترادف فى اللغـــة**
حاكم مالك

١٣ — **التصوير البيانى**
دكتور / محمد محمد أبو موسى

١٤ — **ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن**
تحقيق دكتور / محمد خلف الله
والدكتور محمد زغلول

١٥— **الجنى الدانى فى حروف المعانى**
تحقيـــق طه محســـن

١٦ — **حاشية السيد على المطول**

١٧ — **حاشية الانبابى على الرسالة البيانية**

١٨ — **حاشية الصبان على الأشمونى**

١٩ — **حاشية الشهاب على البيضاوى**

٢٠ — **حاشية السعد على القسم الثالث من المفتاح**
تحقيق دكتور / رأفت اسماعيل

٢١ — **دلائل الاعجاز**
عبد القاهر الجرجانى

٢٢ — **ديوان النابغة**

٢٣ — **ديوان البحترى**

٢٤ — **ديوان المتنبى**

٢٥ — **ديوان البارودى**

٢٦ — **ديوان حافظ**

٣٧ — **ديوان شوقى**

٢٨ — **الرسالة البيانية**

للصبان

٢٩ — **روح المعانى**

للألوسى

٣٠ — **سر الفصاحة**

لابن سنان الخفاجى

٣١ — **شروح التلخيص**

لسعد الدين لتفتازانى وآخرين

٣٢— **الصور البيانية وقيمتها البلاغية**

دكتور / بسيوني عرفه رضوان

٣٣ — **الصور الأدبية**

دكتور / مصطفى ناصف

٣٤ — **الطراز**

ليحيى العلوى

٣٥ — **العمدة**

لابن رشيق

٣٦ — **الكشاف**

لجار الله الزمخشرى

٣٧ — **المثل السائر**

لابن الأثير

— **مجاز القرآن**

لأبى عبيدة

٣٩ — **المطول**

للتفتازانى

٤٠ — **مفتــــاح العلوم**
السكاكى

٤١ — **الموازنة بين أبى تمام والبحترى**
للآمدى

٤٢ — **المنتخب من كنايات الأدباء**
أحمد الجرجانى

٤٣ — **من بدائع النظم القرآنى**
دكتور / السيد حجاب

٤٤ — **الوساطة بين المتنبى وخصومه**
القاضى الجرجانى

الفهـــــرس

الموضـــــوع	الصــفحة

رقم الايداع : ٤٤٨٧ / ٨٨
ترقيم دولى : ٩ — ٠٣٢ — ٤٧٨ — ٩٧٧

شركة سعيد رأفت
للطباعة
شارع خالد بن الوليد - أمام فندق السلام
☎ ٢٤٧٥١٨٩